أعلام العرب

١٢

القلقشندى

فى كتابه صبح الأعشى

عرض وتحليل

بقلم

الدكتور عبد اللطيف حمزه

وزارة الثقافة والارشاد القومى

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

فى ذمة كل جيــل من الناس أو فى عنقه أمانة عظيمة بالنسبة للأجيال التى سبقته . وهذه الأمانة هى أن يقوم هذا الجيل بنقل ما ورثه من تراث أدبى وعلمى عن تلك العصور . وذلك بأسلوب جديد وعرض جديد وفهم جديد للظروف المحيطة بالأمة . وبهذه الطريقة تصل هذه الأمة ماضيها بحاضرها وتجعل من جهود أسلافها فى شتى العصور سلسلة متصلة الحلقات يمكن أن تعطى صورة دقيقة من حضارتها التى تميزت بها عن سائر الحضارات .

والمعروف ان ثقافتنا العربية ثقافة قديمة عميقة الجذور ، وذلك فى كل اقليم من الأقاليم التى ازدهرت فيها تلك الثقافة . وهى من هذه الناحية خليقة بأن يعنى بها على هذا النحو ، بحيث نعتبر أنفسنا آثمين فى حق عروبتنا اذا نحن تركنا تراثنا العــربى القديم مكتوبا بخطوط أصــحابه وأعلامه ، معروضا بطريقتهم التى كانت ملائمة للعصر الذى عاشوا فيه . ومن هنا يدعونا داعى العروبة من آن لآن الى

أن نعمد الى هذا التراث ، فنقوم بنشره اولا عن طريق المطبعة . والمطبعة من الأدوات أو الأسباب التى من أجلها سميت العصور الحديثة بهذا الاسم . ثم لا يكفينا نشر هذا التراث القديم عن طريق المطبعة حتى نأخذ فى عرضه كذلك بطريقة حديثة تلائم أذواق الجيل الذى نحن منه . وللأجيال التى تأتى بعدنا أن تفعل فعلنا . وهكذا دواليك .

لعل ذلك ما دعا وزارة الثقافة الى أن تقدم للجيل الحاضر هذه الموسوعة المشهورة فى تاريخ الأدب العربى باسـم :

صبح الأعشى فى صناعة الانشا

وقد عهدت الىّ بهذا العمل الجليل فرحبت به ترحيبا شديدا لهذا السبب الذى شرحته الآن ، ولأسباب أخرى كثيرة ؛ من أهمها عنايتى منذ سنوات بفن التحرير الصحفى حتى لقد أرخت فى كتب أخرى لهذا الفن الجديد لمدة تزيد على قرن . وما زلت ماضيا فى عملى هذا الى اليوم .

ونحن نعرف ان الكتابة العربية انما تأثرت منذ نشأتها الى الآن بعاملين كبيرين هما : ديوان الانشاء فى العصر الوسيط ، وظهور الصحافة فى العصر الحديث . ومعنى ذلك اذن أن للكتابة العربية طورين كبيرين : أولهما — الطور الذى تأثرت فيه الكتابة بديوان الانشاء . وثانيهما — الطور الذى تأثرت فيه بظهور الصحافة .

وقد أرخ القلقشندى وغيره للأول ونؤرخ نحن وغيرنا للثـــانى .

على اننا نستدرك هنا فنقول اننا لا تتطاول الى بلوغ المنزلة التى بلغها القدماء فيما أرخوا لصناعة الانشاء : فهذا أبو العباس القلقشندى صاحب صـــبح الأعشى كتب فى موضـــوع (الكتابة الديوانية) أربع عشرة مجلدة لا تقل الواحدة منها عن أربعمائة صفحة ، وقد تصل الى ستمائة . على حين ان مجموع ما كتبناه نحن فى موضوع (المقالة الصحفية) الى الآن لم يبلغ بعد ألفى صفحة . وذلك بالرغم من أن لنا من الامكانيات مالم يكن للسابقين الأولين من العلماء والباحثين . وأجلّ هـــذه الامكانيات تلك الأداة الحديثة التى أشرنا اليها وهى المطبعة !!

* * *

كان من أيسر الفوائد التى عادت على القارىء العربى القديم من مثل هذا الكتاب الذى نحن بصدده الآن — وهو كتاب صبح الأعشى — ان حصل هذا القارىء على ما نسميه فى لغة العصر الحاضر (بالوعى العربى) — وهو الوعى الذى انتشر بسرعة البرق ، وعمل عمله فى العقل العربى ، والنفس العربية والذوق العربى فى وقت معا .

وقد رأينا أبا العباس القلقشندى يتتبع كل فن من فنون المكاتبات التى تصدر عن ديوان الانشاء فى كل بلد من بلاد الاسلام ، كالعراق والشام ومصر والحجاز . ثم لا يكتفى

بذلك حتى يصف ما كان من أمر هذه الفنون الكتابية كلها فى بلاد المغرب والأندلس .

حيا الله أسلافنا من العلماء . فقد كان الواحد منهم يستطيع بمفرده أن يقوم بتأليف موسوعة كبيرة تبلغ العشرات من المجلدات ، وليس الى جانبه مطبعة تسعف ولا أجهزة تعين على هذا العمل الضخم . على حين اننا فى الوقت الحاضر قلما نستطيع القيام بمثل هذا العمل الا عن طريق الجهود المشتركة والتعاون الجماعى على أوسع نطاق !!

* * *

والكتاب الذى نقدمه اليوم للقراء يعطينا فكرة صحيحة عن الثقافة التى كان لابد منها لكاتب الديوان ، وذلك فضلا عن الفنون الكتابية العديدة التى لابد له من أن يحذقها جيدا ، ويقف على أصول كل فن من فنونها على حدة . وسيخرج القارىء الحديث من كل ذلك برأى صحيح عن تقدير أسلافنا للثقافة من جهة ، ومدى اعتمادهم عليها فى ترقية المواطن العربى الذى هو عنوان الدولة الاسلامية فى جميع عصورها من جهة ثانية .

* * *

(والخلاصة) اننا نجد فى الكتاب الذى بين أيدينا الآن - خلا فنون الانشاء التى أشرنا اليها بيانا لأمور عدة : —
نجد فيه بيانا لحال اللغة العربية فى عصورها المختلفة ،

واتتشار هذه اللغة فى بلاد كثيرة ، منها فارس وما وراء النهر وبلاد الروم ومصر وبلاد افريقية والمغرب الأقصى والأندلس وبلاد الهند والصين وبعض بلاد أوربا نفسها .

نجد فيه بيانا للسبب الذى من أجله نجحت هذه اللغة فى أن تصبح فى وقت قصير لغة الأدب والعلم ، ولغة الحكم والسياسة ، فضلا عن كونها لغة الدين ولغة القرآن الكريم .

نجد فيه شرحا للنظم الادارية التى سارت عليها الدول الاسلامية فى كل بقعة من بقاع الأرض ظهر فيها الدين الاسلامى .

نجد فيه اهتماما خاصا (بوصف مصر) من جميع نواحيها ، وعناية بالنيل وزيادته ونقصه وخلجانه وزرعه . وبيانا بخطط الديار المصرية على نحو يذكّر بما فعله المقريزى فى خططه المعروفة .

هذا كله فضلا عن كون الكتاب الذى ألفه القلقشندى يعتبر معرضا جميلا لآثار الكتابة الديوانية منذ عرف المسلمون ديوان الانشاء الى زمان المؤلف كما سبق أن ذكرنا . ولو لم يكن لهذا الكتاب من حسنة الا هذه الأخيرة لكفاه شرفا وفخرا واستحقاقا للجهد الذى بذل فى نشره وتحقيقه عن طريق القسم الأدبى بدار الكتب المصرية فى سنة ١٩١٣ . ثم استحقاقا للجهد الذى نبذله نحن الآن فى عرضه وتحليله وتقديمه للقراء فى جيلنا هذا .

* * *

أريد أن أختم هذا التقديم بشكر وزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة على أن عهدت الىّ بهذا الكتاب الذى أقدمه اليوم للقراء وأنا مغتبط به أشد الاغتباط للأمرين اللذين شرحتهما قبل الآن .

أولهما — أننى أقدم للقراء رجلا من أعظم بناة الثقافة العربية فى العصور الوسطى ، عاش فى عصر المماليك ، وهو العصر الذى تبلورت فيه الشخصية المصرية واتخذت شكلا نهائيا .

وثانيهما — أن كتاب (صبح الأعشى) عرض (للرسائل الديوانية) بصورها المختلفة فى عصورها المختلفة .

أجل — تعرض القلقشندى فى موسوعة صبح الأعشى لفنون شتى من التحرير الرسمى أو الديوانى :

كفن تحرير (الولايات) ، وتحرير (العهود والمبايعات) وتحرير (الأيمان) جمع يمين ، وتحرير (كتب الأمان) ، وتحرير (عقود الصلح) ، وتحرير (كتب الهدنة) ، وتحرير (الوصايا الدينية) التى تلقى باسم الخليفة من أعلى المنابر العامة ، وتحرير (المسامحات) وتحرير (الاطلاقات) ، وتحرير (الاقطاعات) وهكذا الى ما يقرب من عشرين فنا !!

وتعرضنا نحن فى كتب أخرى لفن تحرير (المقال) بأنواعه المختلفة ، وتحرير (العمود) بصوره المتعددة ، وتحرير (القصة الاخبارية) داخلية كانت أم خارجية ، وتحرير (التعليق) ، وتحرير (الطرائف) ، وتحرير (الحديث

الصحفى) ، وتحرير (التحقيق الصحفى) ، وتحرير (الماجريات الصحفية) ، ثم تحرير (الصورة) ، وتحرير (الاعلان) ، وتحرير (الراديو) وتحرير (التلفزيون) ، وتحرير (السينما) .

فهاتان اذن صورتان متقابلتان للنثر العربى قديما وحديثا . يلذ للباحث المتخصص أن يتأمل فيهما ، ويبدى اعجابه بالجيد منهما !!

والله نسأل أن تقبل الشبيبة العربية فى وقتنا هذا على مثل هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء ، وأن يحببهم جميعا فى الثقافة العربية ، ويحقق لهم بها كل الفائدة المرجوة . انه سميع مجيب .

عبد اللطيف حمزة

مصر الجديدة فى أول ديسمبر ١٩٦٢ .



القلقشندى في عَصْره

الفصل الأول

القلقشندى فى عصره

١ — حركة الأحياء

« سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ فى أيدى التتار . ودفع هؤلاء الطغاة بتلك المدينة الاسلامية الزاهرة الى الدمار الحقيقى : عاثوا فيها فسادا واتلافا ، وانهالوا على علمائها تشريدا وازهاقا . ثم لم يكفهم أن يفعلوا ذلك بالأنفس والأرواح حتى راحوا يفعلونه بالكتب والمؤلفات — والكتب يومئذ تراث أجيال مضت ، وأزمنة قضت — فألقوا بهذه الكتب فى نهر دجلة . وقضوا بهذا العمل على بغداد قضاء سياسيا وأدبيا فى وقت معا .

« ثم أتى تيمورلنك فى أواخر ذلك القرن — ونعنى به القرن السابع الهجرى — فذهب بالبقية الباقية من هذه المدينة البائسة . وتركها الناس تحتضر فى يد الطاغية وفر الكثيرون منهم اذ ذاك الى مصر . وحكامها يومئذ هم أولئك الأبطال الذين وقفوا وقفتهم المشهورة ضد التتار ،

فصدوهم وهزموهم ، وأثبتوا للعالم الاسلامى إن رد الطغاة الجبابرة ميسور ، وان انقاذ الحضارة الاسلامية من مخالبهم أمر غير عسير » [1] .

« وفتحت مصر أبوابها للاجئين اليها من العلماء والأدباء والفضلاء فكثرت رحلة هؤلاء جميعا الى هذا البلد المضياف . وهناك فى مصر أمن أولئك العلماء والأدباء على أنفسهم ، وأحدثوا حركة علمية كبيرة أثرت فى العلماء المصريين تأثيرا كبيرا فدعتهم الى التفكير فى انقاذ الثقافة الاسلامية التى جنى عليها الجهل والظلم والتوحش . ورأى العلماء المصريون يومئذ ان خير طريقة ينقذون بها الثقافة الاسلامية الضائعة هى جمع المواد التى تتألف منها هذه الثقافة فى كتب كبيرة على شكل « موسوعات » أو دوائر معارف عظيمة لا تدع صغيرة ولا كبيرة من تلك المواد الا أحصتها » .

« وكان هناك باعث آخر على تأليف هذه الموسوعات وهذا الباعث هو ديوان الانشاء . والاهتمام به فى الواقع هو الذى شجع العلماء والأدباء وكتاب الموسوعات على هذا الاتجاه » [2] .

(١ و ٢) عبد اللطيف حمزه : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ص ٣١٥ .

معنى ذلك أن مصر بحكم انها هزمت التتار فى العصر المملوكى ، وهزمت الصليبيين قبل ذلك فى العصر الأيوبى ، أصبحت زعيمة العالم الاسلامى فى تلك العصور . وأصبح عليها بحكم هذه الزعامة أن تقوم بواجبات كثيرة . من أهمها المحافظة على التراث الثقافى وصيانته بالمعنى الحقيقى .

والحق ان مصر وفقت الى ذلك توفيقا عظيما . وبعد أن خيل الى الناس فى العراق ان الثقافة الاسلامية محيت من الأذهان محوا وزالت من الوجود فعلا رأوا هذه الثقافة نبعت من جديد على يد نفر من علماء المصريين كتبوها كتابة جديدة وسلكوا فى كتابتها طرقا جديدة ، وتوزعوا عليها توزعا جميلا : فهذا يجمع الثقافة الاسلامية فى اطار أدبى — كما فى (نهاية الأرب) وذلك يجمع هذه الثقافة فى اطار جغرافى — كما فى (المسالك والممالك) ثم ذلك يجمعها فى اطار (ديوانى) ان صح هذا التعبير — كما فى (صبح الأعشى) . وأخيرا نجد من يجمعها فى اطار لغوى — كما فى (لسان العرب) وهكذا .

ان الذى لا شك فيه ان فكرة الموسوعات كان لا يمكن أن تصدر الا عن مثل هذا الوازع الذى أشرنا اليه ، وبمثل هذا النظام أو المنهج الذى نصفه . وهـذا وذاك لا يمكن صدورهما الا عن أمة تشعر بواجبها شعورا تاما بعد حادث التتار . وهذا الواجب هو انقاذ التراث الاسلامى من الموت أو الدمار .

ذلك اذن هو المقصود (بحركة الاحياء) — وهى الحركة التى قام بها المصريون نتيجة للزعامتين الدينية والسياسية اللتين سلمتا لمصر المملوكية فى وقت كانت فيه بغداد عاجزة تمام العجز عن القيام بشىء من ذلك .

٢ — مفهوم الثقافة الاسلامية وأثره فى الكتب المؤلفة

كانت الثقافة فى العصر المملوكى موسوعية الطابع للأسباب التى ذكرنا بعضها فى الفقرة السابقة . ولكن من الحق أن يقال ان عصر الموسوعات كان مسبوقا بعصر آخر شهد حركة أخرى من حركات التأليف الشبيه بالموسوعات — ونعنى به العصر العباسى .

فى ذلك العصر امتزجت ثقافات كثيرة بعضها ببعض . كانت كل واحدة منها تمثل عنصرا هاما من عناصر « الثقافة الاسلامية » المعروفة . وهذه الثقافات التى امتزجت على هذا النحو هى :

(الثقافة الفارسية) : وقد انتشرت فى الدولة العباسية بسبب الوزراء الذين كان معظمهم أو كلهم من الفرس . ثم بسبب انتقال العاصمة من دمشق الى بغداد ، وبغير ذلك من الأسباب .

(والثقافة اليونانية) وقد انتشرت هى الأخرى فى العالم

الاسلامى بسبب الترجمة والمترجمين من ناحية ، وبسبب انتشار المدارس التى كانت تبشر بهذه الثقافة من ناحية ثانية. ومن هـذه المدارس على سبيل المثال : مدرسة حرّان ، ومدرسة الإسكندرية ، ومدرسة جنديسابور .

(والثقافة الهندية) وهى ثقافة من المحقق انها تركت آثارها كذلك فى كل من الأدب والدين واللغة .

(والثقافة العربية) وقوامها الشعر والقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والخطب ونحو ذلك مما سيأتى شرحه فى بعض الفصول القادمة .

(والثقافة الدينية) بوجه عام — ونعنى بها اليهودية والنصرانية والذى لا شك فيه ان ثقافة المسلمين تأثرت بهما تأثرا قويا .

أجل — امتزجت هذه الثقافات بعضها ببعض . وكانت كل واحدة منها رافدا كبيرا يصبّ فى نهر الثقافة الاسلامية ويزيدها حياة ونماء وقوة . وكان يمثل هذا الامتزاج بين الثقافات رجال منهم :

الجاحظ : فى كتبه البيان والتبيين والحيوان وغيرهما .

وابن قتيبة : فى عيون الأخبار وأدب الكاتب وغيرهما .

وأبو الفرج الأصفهانى : فى كتابه الأغانى .

وابن سـعيد : فى كتابيه : المغـرب فى حلى المغرب . والمشرق فى حلى المشرق .

« وفى ظل هذه الثقافات المختلفة أصبح للأدب تعريف

خاص جعلوا به هذا الأدب مشتملا على أشياء كانت غريبة عنه كل الغرابة . منها الصيد وألعاب الفروسية ولعب الشطرنج وضرب العود وغير ذلك . ومن ثم قال أحد وزراء العصر العباسي — وهو هنا الحسن بن سهل — الآداب عشرة : ثلاثة شهرجانية [١] ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن .

فأما الشهرجانية : فضرب العود ، ولعب الشطرنج ، ولعب الصوالج .

وأما الأنوشروانية : فالطب والهندسة والفروسية .

وأما العربية : فالشعر والنسب وأيام الناس .

وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس فى المجالس » [٢] .

« بل يظهر لى أيضا ان هذا كان أحد الأسباب فى فوضى الكتب الأدبية المؤلفة فى ذلك العصر : كالبيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، وعيون الأخبار لابن قتيبة . فقد قصدوا فيها الى جمع ما يفيد ، وتكويمه بعضه فوق بعض فاهمين الأدب بمعناه الذى هو الأخذ من كل شىء بطرف . فحكمة بجانبها بيتان من الغزل . ونادرة لطيفة

---

(١) ربما كان المقصود بكلمة شهرجانية (مدنية) نسبة الى مدينة ملاحظات للدكتور حمزة على هذه الكلمة .

(٢) أحمد أمين : (ضحى الاسلام) . الجزء الأول ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

بجانبها خطبة بليغة ، وقصص فى البخل بجانبها أخبار عن الخوارج وهكذا .. ثم جاءت الكتب الأخرى بعدها تحذو حذوها وتفرق مجتمعا ، وتجمع متفرقا ، وتزيد ما استحدث من الطرف الأدبية [1] .

ذلك ما كان عليه الأمر فى عهد ازدهار الأدب العربى والثقافة الاسلامية . وقد استمر الحال على هذا حتى منتصف القرن السابع الهجرى . حين حدثت حادثة التتار فاجتاحت أمامها كل الكنوز الأدبية الضخمة ، وأتت على جميع الثروات العلمية التى لا تقدر بثمن .

اذ ذاك جاء دور مصر المملوكية لتقوم بما يجب عليها نحو هذه الكنوز الأدبية والعلمية ، فنهضت بهذا الواجب خير نهضة ، وأصبح لها فى عنق الثقافة الاسلامية دين كبير . وهذا ما يدعونا الى أن نقف لحظة أمام بعض الموسوعات التى نسبت الى عصر المماليك والتى منها موسوعة أبى العباس المعروفة (بصبح الأعشى) .

ولكن قبل الخوض فى هذه الموسوعات أحب أن أنبه الى الفرق بينها وبين كتب الجاحظ وابن قتيبة وأبى الفرج الأصفهانى من حيث طريقة التأليف . فالأولى بنيت على الفوضى وجمع المعلومات من هنا وهناك والاستطراد فى ذكر هذه المعلومات أو الانتقال من بعضها الى بعض لأدنى مناسبة . والثانية وهى الموسوعات ولم يكن أساسها الفوضى

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جـ ١ ص ١٧٠ ــ ١٧١ .

والاستطراد لأتفه الأسباب ولكنها بنيت على التنظيم الدقيق والتقسيم الأدق بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . كما بنيت على التقيد بموضوع الموسوعة قدر المستطاع . فالموسوعة الجغرافية تحاول ما استطاعت أن تحصر نفسها فى المعلومات الجغرافية . والموسوعة اللغوية تحاول أن تفعل مثل ذلك . وموسوعة صبح الأعشى الخاصة بصناعة الانشاء حاولت أن تسلك هذا الطريق . وهذا كله على النحو الذى ستشرحه الفقرة التالية . والمهم ان أعظم ما تمتاز به الطريقة المصرية من الطريقة العراقية فى التأليف هو العناية التامة بتقسيم الموضوع الواحد الى أبواب ، والأبواب الى فصول، والفصول الى أطراف ، والأطراف الى مذاهب ، والمذاهب الى وجوه وهكذا الى ما لا نهاية له تقريبا .

٣ — أشهر الموسوعات

« الموسوعات المملوكية مشهورة يتداولها الباحثون الى الآن . ويكفى أن تتحدث عن ثلاث منها على سبيل المثال وهى :

نهاية الأرب للنويرى .
مسالك الابصار لابن فضل الله العمرى .
لسان العرب لابن منظور .

وهذا كله فضلا عن كتاب (صبح الأعشى) للقلقشندى وهو موضوع كتابنا هذا من أوله الى آخره .

نهاية الأرب :

يظهر أن هذه الموسوعة هى أولىَ الموسوعات التى اقترنت بالعصر المملوكى . وصاحبها هو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم المعروف بشهاب الدين النويرى . ولد حوالى عام ٦٧٧ هـ بقرية مَن قرى بنى سويف اسمها (نويرة) وقضى طفولته بها . ثم سافر الى قوص — وهى يومئذ من أعظم البيئات العلمية بالديار المصرية . فتربى بهذه المدينة تربية علمية قويمة .

وترجم لحياة النويرى كثيرون منهم : « الزركلى » فى كتابه قاموس الأعلام ، وعلى باشا مبارك فى كتاب الخطط التوفيقية ، وابن حجر العسقلانى فى كتابه الدرر الكامنة فى أعلام المائة الثامنة ، والسيوطى فى كتابه حسن المحاضرة

غير أن هؤلاء جميعا قد استغنوا بالاشارة الخفيفة عن البحوث المستفيضة فى حياة هذا العالم الكبير الذى كان خليقا منهم بعناية أكثر من التى بذلوها . وهذا هو صاحب الدرر الكامنة يكتفى بأن يقول عن صاحب نهاية الأرب[١] : « .. وسمع من الشريف موسى بن على بن أبى طالب ، ويعقوب الهذبانى وغيرهما . ونسخ من البخارى ثمانى نسخ . وكان يكتب النسخة ويبيعها بألف درهم . وجمع

---

(١) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة : الجزء الأول : ص ١٩٧ .

تاريخا حافلا بخطه وباعه بألفى درهم وهو فى ثلاثين مجلدة. وحصل له عند الملك الناصر حظوة ، ووكله فى بعض أموره وباشر نظر الجيش بطرابلس ، وكان حسن الشكل ظريفا متوددا حتى مات فى رمضان سنة ٧٣٣ هـ » .

وأما كتابه (نهاية الأرب) . فقد ألفه فى زمن صاحبه الملك الناصر محمد بن قلاوون — الذى تقدم ذكره ، وذلك فى ثلاثين جزءا — وذكر فى مقدمته انه اشتغل بصناعة الكتابة ثم اشتغل بأعمال الحكومة ، ثم انصرف بعدها الى الأدب ، وتبرأ من الأعمال التى كان يمارسها قائلا : فنبذتها وراء ظهرى وعزمت على تركها فى سرى دون جهرى ، وسألت الله تعالى الغنية عنها ، وتضرعت اليه فيما هو خير منها . ورغبت فى صناعة الآداب ، ورأيت غرضى لا يتم بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاها ، فامتطيت جواد المطالعة ، وركضت فى ميدان المراجعة ، وحيث ذل لى مركبها ، وصفا لى مشربها ؛ آثرت أن أجرد منها كتابا أستأنس به وأرجع اليه ، فاستخرت الله سبحانه وتعالى أن أثبت منها خمسة فنون حسنة الترتيب ، كل فن منها يحتوى على خمسة أقسام :

الفن الأول — فى السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية .

الفن الثانى — فى الانسان وما يتعلق به .

الفن الثالث — فى الحيوان الصامت .

الفن الرابع — فى النبات .

الفن الخامس — فى التاريخ .

تلك رءوس الموضوعات التى تعرض لها النويرى فى كتابه نهاية الأرب . وقد صرح لنا — كما رأيت الآن — أنه استعان عليها بالاطلاعات التى وصل اليها . ومن ذلك نعلم أنه انما أراد أن يلم بأكبر المعارف الانسانية فى عصره ، وأنه رتبها فى فنون خمسة .

والقارىء لكتابه هذا يعجب كيف مزج المؤلف فيه بين العلوم والآداب مزجا قويا جدا ، فهو اذا تحدث مثلا عن السماء فانه لا يقف عندما وصل اليه المنجمون والفلكيون فى زمانه وما حصّلوه من علمى الفلك والتنجيم — ولكن يتجاوز هذا الى ذكر ما ورد فى القرآن عن السماء ، وما ورد فى الحديث عنها ، ثم يذكر الأمثال العامة التى وردت فيها كلمة السماء ، ثم ينتهى من ذلك الى ايراد طائفة ضخمة من الشعر الذى وصفت فيه السماء ، أو الذى فيه تشبيه بالسماء كقول ابن المعتز :

كأن سماءنا لما تجلّت ... خلال نجومها عند الصباح

رياض بنفسج فضل نداه ... تفتح بينه نور الأقاحى

ثم ينتقل المؤلف من الأبيات التى ورد فيها لفظ السماء الى الأبيات التى ورد فيها لفظ (الفلك) ومنها قول أبى العلاء :

يا ليت شعرى وهل ليت بنافعة
ماذا وراءك أو ما أنت يا فلك ؟
شمس تغيب ويقفو اثرها قمر
ونور صبح يوافى بعدها حلك
طحنت طحن الرحى من قبلنا أمما
شتى ولم يدر خلق أيةً سلكا

* * *

ثم ينتقل المؤلف من السماء والفلك الى الكواكب فيتحدث عن الكواكب السبعة ثم عن الشمس والقمر. وهكذا تجد الصفة الأدبية هى الغالبة على هذا الكتاب الذى أريد به جمع أكبر عدد ممكن من النصوص الأدبية التى يحتاج اليها الناس فى مواطن شتى. فاذا احتاجوا الى شيء منها فما عليهم الا أن يعمدوا الى هذه الموسوعة الأدبية الضخمة فيستخرجوا منها ما يريدون بنفس الطريقة التى يستخرجون بها لفظا من ألفاظ اللغة فى معجم من معاجم هذه اللغة.

وبهذه الطريقة تحدث النويرى عن أمور كثيرة منها : الشعر ، والحكم ، والأمثال ، والمجون ، والغناء ، والموسيقى ، ومجالس الخمر ، وأسماء الشراب ، والزهد فى الدنيا ، والأدعية الدينية ، ونظام الحكومة ، ونظام الوزارة ، وما يشترط فى الوزير ، وعن الجيش وأنواع السلاح ، وعن الغزو بطريق البحر ، والغزو بطريق البر ،

وعن القضاء وشروط القاضى ، وعن ولاية المظالم ، ونظام الحسبة ، وعن التجارة والتموين والزندقة ومن اشتهر بها — فانظر الى هذا الخليط العجيب من المعلومات التى قال عنها المؤلف « وما أوردت فيه الا ما غلب على ظنى ان النفوس تميل اليه وان الخواطر تشتمل عليه ، ولقد تتبعت فيه آثار الفضلاء قبلى وسلكت منهجهم فوصلت بحبالهم حبلى » الخ .

مسالك الأبصـــار :

أما مسالك الأبصار فموسوعة جغرافية فى أكثرها ، أتى فيها المؤلف بوصف الممالك الشرقية . وقال انه اذا مدّ الله فى عمره فسيؤلف كتابا آخر فى موضوع (الممالك الغربية) غير انه مات فى التاسعة والأربعين من عمره قبل أن يخرج هذا الكتاب .

ومؤلف مسالك الأبصار هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى . ذكره صاحب الدرر الكامنة وذكر نسبه كاملا وقال انه ولد فى الثالث من شهر شوال سنة سبعمائة للهجرة ، وقرأ العربية على كمال الدين قاضى شهبة ، وقرأ الفقه على شهاب الدين بن المجد ، وقرأ الأحكام الصغرى على ابن تيمية ، وتخرج فى الأدب على الشهاب محمـــود ، وشمس الدين بن الصائغ الكبير ، وأبى حيان وغيرهم .

وكان يتوقد ذكاء مع حافظة قوية ، وصورة جميلة ، واقتدار على النظم والنثر ، مع سعة صدر وحسن خلق وبشر محيا .

وتجهم الزمان لشهاب الدين أكثر من مرة اذ غضب عليه السلطان الناصر فى مناسبات كثيرة ، وقطع يده فى واحدة منها ، وزج به فى السجن ونسيه مدة حتى رفع اليه الشهاب قصته فأفرج عنه ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٧٤١ هـ وعاد الى خدمة السلطان . ولما وقع الطاعون فى دمشق وكان يومئذ بها ، عزم على الحج ، ثم توجه بزوجته الى القدس فماتت عنه فدفنها وعاد هو الى دمشق فمات بحمى أصابته ، وكان ذلك سنة ٧٤٩ للهجرة .

قال صاحب الدرر الكامنة : وأما أصل نسبته (العمرى) — فأتى من انه صنف كتابا بعنوان : فواصل السحر فى فضائل آل عمر — يريد عمر بن الخطاب — وذلك فى أربع مجلدات فنسب اليه رضى الله عنه » .

ولشهاب الدين كتب كثيرة ومعروفة ، غير أن أشهرها على الاطلاق كتابه « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » فى أربعة عشر جزءا ، وموضوع الكتاب كما صرح مؤلفه « وصف الأرض وما اشتملت عليه برا وبحرا ، وهو قسمان : أولهما : فى الأرض . وثانيهما — فى سكان الأرض . والقسم الأول منهما على نوعين : أولهما : المسالك . وثانيهما الممالك .

أما المسالك ففيها وصف لمقدار الأرض وهيئها ، وذكر للأقاليم السبعة والبحار وما يتعلق بها ، وذكر للطرق وذكر للقبلة ، وكيف يستدل عليها الخ .

وأما الممالك ففيها وصف لممالك الاسلام وحدها لم يتجاوز حدها .

وأما القسم الثانى من الكتاب فأنواع أو أبواب . منها : باب فى المقارنة بين الشرق والمغرب ، وباب فى الديانات ، وباب فى طوائف المتدينين ، وباب فى التاريخ — أرخ فيه للدول التى جاءت قبل الاسلام ثم الدول الموجودة بالفعل .

والحق انك مع مؤلف مسالك الأبصار أمام عالم من علماء ذلك العصر قال عن نفسه « ولم أذكر عجيبة حتى فحصت عنها ، ولا غريبة حتى ذكرت الناقل عنه لتكون عهدتها عليه ، ولم أنقل الا عن الأعيان الثقات من ذوى التدقيق فى النظر والتحقيق فى الرواية » .

على ان صاحب مسالك الأبصار قد مزج على عادة الكتاب فى عصره — العلم بالأدب — وهو من هذه الناحية صورة دقيقة من النويرى ، وان كانت موسوعة هذا الأخير أشمل وأكمل وأكثر الماما بالمعارف الانسانية المعروفة فى زمانه .

وان القارىء الحديث ليعجب كل العجب من كتاب موضوعه الجغرافيا يتعرض فيه المؤرخ لكل هذه الموضوعات الكثيرة والمعلومات العديدة من أدب ودين وتاريخ وآثار .

وهذا كله فضلا عما اشتملت عليه هذه الموسوعة من المواد الجغرافية الكثيرة التى هى الموضوع الأصلى لهذه الموسوعة الجليلة . ولكن هكذا كانت طريقة التأليف فى مصر فى ذلك العصر . والى القارىء قطعة صغيرة جدا من هذا الكتاب على سبيل المثال :

(ورد فى الباب السادس من القسم الأول حديثا طويلا عنوانه « فى أحوال الأرض » — تكلم فيه عن الجبال وعن الأنهار ، وخص منها نهر النيل ببحث طويل وجميل أشار فيه الى أصوله ومنابعه ، واكتشاف المسلمين لهذه المنابع قبل الفرنجة ، ومحاولة الملوك من بنى أيوب أنفسهم — كالملك الصالح نجم الدين — معرفة ذلك ، ثم انتقل من الكلام على الأنهار الى الكلام عن البحيرات ، ثم تكلم عن الآثار المنبثة فى أقطار الأرض ومنها الكعبة ، والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى ، ومسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ، ومسجد قرطبة ، وهياكل اليونان والصقالبة والصابئة والصين ، وبيوت النيران بفارس ، والأهرام وأبى الهول وسجن يوسف وعمود السوارى بالاسكندرية . وأخيرا وصل الى الكلام فى موضوع الآثار عن الأديرة المشهورة والحانات . فتكلم عن ديارات العراق والحيرة والشام وفلسطين واليمن ومصر ، وذكر أنه كان بمصر الى زمانه عدد كبير من الأديرة وصف منها ستة عشر ديرا قال انها من خير متنزهات الدنيا .

لســـان العرب :

ومؤلف هذه الموسوعة اللغوية الكبيرة هو : أبو الفضل محمد بن على الافريقى المصرى جمال الدين المعروف بابن منظور . ولد سنة ٦٦٣ هجرية ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧١١ ه . وكان صدرا رئيسا فاضلا فى الأدب مليح الانشاء عارفا بالنحو والكتابة ، خدم بديوان الانشاء بمصر مدة طويلة . وولى قضاء طرابلس مدة كذلك ثم عاد الى مصر ، وظل مقيما بها حتى مات .

ويقال انه ترك بخطه نحوا من خمسمائة مجلد . وقد عمى فى آخر عمره .

ومن أشهر تأليفه هذا الكتاب الذى خلد ذكره الى الأبد وهو كتاب (لسان العرب) وهو معجم واسع المادة عظيم الفائدة . جمع فيه مؤلفه بين كتب ستة وهى : كتاب التهذيب للأزهرى ، والصحيح للجوهرى ، وحواشى ابن برى على الصحيح ، والمحكم لابن سيدة ، والمخصص له كذلك ، والنهاية لابن الأثير .

وبلغت مواد اللغة فى هذا المعجم ثمانين ألف مادة وبذلك أصبح معجمه من أكبر المعــاجم التى وصلت الينا . كما أصبحت المــادة التى تملأ صفحة واحدة من (القاموس المحيط) للفيروزبادى تملأ على الأقل أربع صفحات من (لسان العرب) .

وقد أشار ابن منظور فى مقدمة معجمه الى انه اطلع على أكثر المعاجم التى ألفت فى عصره ، ولكنه مع شدة اعجابه بها كان يجد فى كل واحد منها نقصا . اما من ناحية الجمع واما من ناحية النظام أو الوضع ونحو ذلك .

* * *

(وبعد) فهذه الثقافة الاسلامية التى أعيدت كتابتها بأقلام مصرية وطريقة مصرية هى التى اشترك فيها — كما قلنا — مصريون غيورون من أهمهم :

سيرة أبي العبّاس القلقشندي

٧٥٦ هـ - ٨٢١ هـ

الفصل الثاني

سيرة أبى العباس القلقشندى

كثيرون من المثقفين الى اليوم يتردد على ألسنتهم اسم أبى العباس القلقشندى ، وكثيرون منهم كذلك يشيرون الى موسوعته التى اشتهر بها وهى كتابه « صبح الأعشى » . وقلما تنظر فى بحث من البحوث العلمية الأدبية الحديثة حتى تجد فيه اسم القلقشندى واشارة الى موسوعته فى أكثر من موضع .

وأيسر ما يفهم من هذا الحديث ان مؤلف هذه الموسوعة الكبيرة لابد أن يكون مشهورا فى التاريخ شهرة غيره من العلماء والأدباء والمؤرخين أمثال الجاحظ ، والمقريزى ، وياقوت ، وابن خلكان وغيرهم .

ولكن العجب يملأ نفس الباحث ، والدهشة تملك عليه حواسه حين ينظر فى المراجع الأصيلة فاذا بها تخلو — أو تكاد أن تخلو — من ذكر رجل كالقلقشندى على سعة علمه ، وغزارة فضله ، وفيض أدبه ، وسحر قلمه ، وعظم ما له من دين على الأدب العربى والثقافة العربية !

أليس فى هـذا كله ما يدل على أن التاريخ كالأدب ينصف الناس ان شاء ويظلم الناس ان شاء ويرفع بعضهم متى أراد ، ويخفض آخرين ما دامت له غاية من وراء ذلك ؟

ولكن ما الغاية التى قصد اليها التاريخ من تجاهل هذا الرجل ؟ هل كان له حساد كثيرون فى الزمن الذى عاش فيه ؟ هل قصر به أصدقاؤه وتلاميذه ومريدوه فلم يؤرخوا له بعـد وفاته ؟ هـل أصيب معاصروه بالركود الذهنى أو الكسل العقلى الذى حال بينهم وبين الترجمة له ولأمثاله من العلماء والأدباء ؟

الحق ان الباحث لا يستطيع الاجابة عن واحد من هذه الأسئلة لأن المصادر لا تساعده على ذلك . ولا يزال العجب يستبد بالباحث كيف يهمل التـاريخ سـيرة أبى العباس القلقشندى على هذا النحو ؟ أو كيف أن عين التـاريخ تقتحم رجلا كبيرا كأبى العباس الى هذا الحد ؟

نقول ذلك لأن شيئا من سيرة القلقشندى المتـوفى سـنة ٨٢١ هـ ورد فى كتب كل من المقـريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، وابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، والعينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ والسخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ ، وصاحب كشف الظنون ، وصاحب شذور الذهب آخـر الأمـر .

أجل ! ورد ذكر أبى العباس القلقشندى فى جميع هذه المراجـع أو الكتب . غير أنه ورد بصورة وجيزة مبتسرة

لا غناء فيها فى حقيقة الأمر . ولعل أوسع ترجمة ظفر بهـا أبو العباس هي تلك الترجمة التى وردت فى كتاب « الضوء اللامع » للسخاوى . ومع هذا وذاك فانها ترجمة مختصرة لا حظ لها من دقة ولا حظ لها من اتساع . واليك هـذه الترجمة على سبيل المثال . قال السخاوى :

« هو أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال أبى اليمن الفزارى القلقشندى ثم القاهرى الشافعى والد (النجم) الذى سيأتى ذكره .

« ولد سنة ٧٥٦ هـ . واشتغل بالفقه وغيره ، وسمع من ابن الشيخة ومن فى وقته . وكان أحد الفضلاء ممن برع فى الفقه والأدب ، وكتب فى الأنشاء ، وناب فى الحكم ، وشرح قطعا من جامع المختصرات ، بل شرع فى نظمه كذلك . وعمل صبح الأعشى فى قوانين الانشاء فى أربع مجلدات ، جمع فيه فأوعى . وكان يستحضر أكثر ذلك مع جامع المختصرات والحاوى وكتابا فى أنساب العرب . وهو ممن نظم سيرة المؤيد لابن ناهض مع تواضع ومروءة .

« مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة احدى وعشرين وثمانمائة ، وله خمس وستون سنة . ذكره شيخنا (يريد ابن حجـر) فى معجمه والمقـريزى ، والعينى ، وآخرون .

« وسمَّى العينى والمقريزى والده عبد الله — وهو وهم . وقال آخرون انه برع فى العربية ، وعرف الفرائض ،

وشارك فى الفقه وسمع الحديث ، ونظم ونثر . وأرخوا وفاته بليلة السبت عاشر جمادى الثانية » .

أرأيت الى هذه الكلمات الوجيزة فى سيرة رجل خدم الأدب والعلم هذه الخدمات الجليلة ؟ أرأيت الى عالم كبير كالسخاوى كيف يشير الى موسوعة القلقشندى المعروفة باسم صبح الأعشى اشارة تدل دلالة صريحة على أنه لم ينظر فيها ، ولم يتعرف اليها ، ولم يحاول أن يقف على محتواها حتى يعطى القارىء العربى فكرة ولو بسيطة عنها ؟

ثم انظر معى الى قضية أخرى أثارها السخاوى فى هذه الترجمة الخاطفة التى أتى بها :

لقد عمد السخاوى الى تخطئة المقريزى والعينى فيما ذهبا اليه من أن والد أبى العباس القلقشندى اسمه « أحمد بن عبد الله » . وقال السخاوى : بل اسمه « أحمد ابن على » وانما وهم المقريزى والعينى فيما ذهبا اليه . مع أن المقريزى والعينى كليهما أقرب الى أبى العباس القلقشندى من السخاوى وقد مرّ بك ان وفاة المقريزى كانت فى عام ٨٤٥ هـ ، وان وفاة العينى وقعت فى عام ٨٥٥ هـ ، وأما وفاة السخاوى فكانت عام ٩٠٢ للهجرة .

وقد عرض زميلنا الأستاذ ابراهيم الأبيارى لهذه القضية بشىء من التحقيق . ثم قال :

« وظاهر ان السخاوى نقل ما نقل عن شيخه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هجرية فى معجمه ، وهوا — أى

السخاوى — يرجح غير مشير الى مآخذ . ويخطىء غير كاشف عن مصدر هذا الخطأ . والمؤلفان اللذان رد قولهما يعاصران شيخه . أحدهما — وهو المقريزى — يسبقه وفاة . وثانيهما — وهو العينى — تتأخر وفاته عن وفاة شيخه بأعوام ثلاثة . والغريب ان السخاوى الذى صرّح بهذا الوهم من الشيخين المقريزى والعينى وهو يترجم لأبى العباس عاد فوقع فيه وهو يترجم لابن أبى العباس محمد حيث قال :

« محمد بن أحمد بن عبد الله بن اسماعيل النجم أبو الفضل بن الشهاب بن الجمال أبى اليمن القلقشندى القاهرى الشافعى » .

« وأقرب ما يسعنا لنرد على السخاوى فى تخطئة الشيخين أن تتهمه انه حين نقل عن شيخه ابن حجر ما يخالف رأيهما وثّق شيخه وضعّفهما . وحين نقل عن غير شيخه ترجمة ابن أبى العباس محمد لم ينتبه الى ما فرط منه فيعود اليه بالتبديل ، والا فما باله سكت ولم يقل شيئا وكان بوسعه أن يقول ؟

« وشىء آخر يسعنا فى الرد على السخاوى انه شارك الابن الحياة أعواما لا ندرى عدتها ، ولكنا لا نراها قليلة ، فهو حين يكتب عن الابن غيره حين كتب عن الأب ، فهو

هناك ناقل لم يشهد ولم يسمع وهو هنا ناقل قد سمع وقد شاهد »[1] .

لقد يكون صحيحا ما ذهب اليه الأستاذ الابيارى من أن السخاوى بالغ فى تخطئة المقريزى والعينى ، ايثارا منه لكلام شيخه ابن حجر فى معجمه من أن والد أبى العباس القلقشندى هو أحمد بن علي وليس أحمد بن عبد الله . ولكن بقى أن نسأل : ما الذى حدا بابن حجر الى ما ذهب اليه بصرف النظر عن كونه خطأ أم صوابا ؟

لقد أتينا لك أيها القارىء بهذا المثل لا لنتعب ذهنك فى تحقيق اسم الرجل أو على الأصح اسم والده وجده . وانما ضربنا لك هذا المثل لتعلم الظلم الذى وقع على أبى العباس القلقشندى من جانب التاريخ . فلم يكفه أن ظلم بسبب هذه الترجمات الخاطفة التى لا تكشف عن جوانبه حتى رأيناه قد ظلم بسبب الخلط الذى وصفت به هذه الترجمات على اختلافها .

وحسبك دليلا على هذا الخلط أيضا أن تجد السخاوى يشير الى « صبح الأعشى » فيقول انه يقع فى أربع مجلدات . والواقع انها لا تقل عن سبع مجلدات ما زالت محفوظة فى دار الكتب المصرية الى اليوم .

* * *

---

(١) ابراهيم الابيارى : تحقيق فى كتاب نهاية الأرب فى معرفة انساب العرب لأبى العباس القلقشندى ، صفحة ح و ط.

وندع هذه القضية الكبرى — وهى قضية الظلم الذى وقع على القلقشندى فى كتابة سيرته . وننظر فى هذه الأطراف اليسيرة التى نجدها من هذه السيرة هنا وهناك لنجمع بعضها الى بعض ، ونؤلف منها ما يمكن تأليفه من ترجمة لحياة الرجل .

مولده ونشأته :

ولد أبو العباس القلقشندى فى سنة ست وخمسين وسبعمائة للهجرة ، وذلك فى مدينة (قلقشندة) بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية وفتح الشين وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة .

غير ان ياقوتا ذكر هذه المدينة فى معجمه بالراء بدلا من اللام [1] .

أما « ابن مماتى » فقد أورد هذا الاسم فى كتابه « قوانين الدواوين » باللام ، ولم يوردها بالراء [2] . وابن مماتى من كتاب الدولة الأيوبية ولابد أن هذه المدينة كانت معروفة بهذا الاسم مضبوطة بهذه الحروف فى زمان تلك الدولة .

وعلى ذلك فلا سبيل الى معرفة هذه المدينة بغير هذا

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان : الجزء الرابع : ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين : صفحة ١٦٧ .

الاســم الذى ذكره أكثر المؤرخين وأوثقهم علاقة بالديار المصرية التى منها هذه المدينة .

وتقع قلقشنده الى الجنوب من مركز طوخ بمحافظة القليوبية ، وبينها وبين القاهرة مسافة لا تزيد عن أكثر من ثلاثة فراسخ ، كما تقع هذه المدينة غربى بلدة أجهور الكبرى على ترعة الجاموس .

واذا جاز لمدينة قلقشندة أن تباهى غيرها من المــدن المصرية بنجابة أبنائها وبعض عظمائها فان لها أن تباهى المدن كلها بثلاثة رجال من رجالاتها على الأقل :

أما أولهم فالليث بن سعد ، وأما الثانى فأبو العباس القلقشندى . وأما الثالث فابنه محمد المعروف بالنجم .

وقد كان الليث بن سعد من أعظم فقهاء مصر فى القرن الثانى للهجرة . كان رجلا فاضلا مهابا مسموع الكلمة قد رزقه الله سعة فى المال وفى الجاه . ولكن علمه وفقهه كان أكثر من ماله وجاهه . والليث بن سعد هو الفقيه الذى قال فيه الامام الشافعى « الليث أفقه من مالك ، الا أن أصحابه لم يقوموا به » . وقال فيه ابن وهب : « ما رأينا قط أحدا أفقه من الليث » .

عاش هذا الفقيه الكبير فى مدينة قلقشندة عيشة رغيدة هنيئة ، وكان معروفا بالبر بأهل العلم ؛ يهبهم من ماله وعلمه ، ويسعهم بخلقه وفضله وأدبه . ومع هذا وذاك ، فلم نجد من تلاميذه ومريديه من كلف نفسه التعريف به بعد

وفاته ، وتسجيل العلم الذى أخذه عنه فى كتب يقرؤها الناس ليحكموا له أو عليه . وهـذا ما قصد اليه الامام الشافعى بالكلمة التى قال فيها : « الليث أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به » .

ومات الامام الليث سنة خمس وسبعين ومائة . وقيل فى رثائه يومئذ :

ذهب الليث فلا ليث لكم

ومضى العلم قريبا وقبر

ثم فى القرن الثامن للهجرة أنجبت مدينة قلقشندة رجلها الثانى وهو صاحب السيرة ، ومن بعده أنجبت ابنه محمدا . وهو من قلنا انه نبغ فى الحديث وفى الشعر معا .

ولد هذا الأخير سنة سبع وتسعين وسبعمائة . ومات غريقا فى النيل فى ربيع الأول سنة ست وسبعين وثمنمائة [١] .

أما والده أبو العباس فقد سبق أن قلنا انه ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة من أصل عربى . فهو من بنى بدر من فزارة من قيس عيلان . وكان بنو فزارة قد وفدوا على مصر مع من وفد اليها من العرب منذ الفتح الاسـلامى . ونزلوا باقليم القليوبية ، واستولى بنو بدر منهم على معظم هذا الاقليم ، وأصبحت لهم الرياسة والغلبة على جيرانهم فيه — كما أصبحت لهم الغلبة كذلك فى هذا الاقليم على بنى عمومتهم بنى مازن بن فزارة .

(١) السخاوى : الضوء اللامع : ج ٦ ص ١٥٧ .

معنى هذا كله انه كان لقلقشندة فريقان كبيران هما :
— فريق بنى بدر ، وفريق بنى مازن ، وكلاهما من فزارة . ولكن الرياسة آلت الى الفريق الأول الذى ينتمى اليه صاحب السيرة .

مراحل حياته :

ونستطيع أن ننظر فى حياة أبى العباس القلقشندى فنتبين منها ثلاث مراحل :

الأولى — مرحلة النشأة والتعليم .

والثانية — مرحلة قام فيها بتدريس الفقه والتأليف فى هذا العلم .

والثالثة — مرحلة تولى فيها كتابة الانشاء فى الديوان ووضع كتبا فى هذه الصناعة .

المرحلة الأولى :

نشأ أبو العباس القلقشندى نشأة علمية سليمة . وتربى تربية صحيحة ثم توجه الى الاسكندرية وأقام بها مدة من عمره فى طلب العلم على مشهورى العلماء فى زمانه . واشتغل فى أثناء ذلك بفنون اللغة العربية والأدب حتى اجتمع له من ذلك مقدار وافر .

وفى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة — حينما كان مقيما بثغر الاسكندرية — أجازه الشيخ سراج الدين أبو حفص عمر بن أبى الحسن المشهور «بابن الملقن» بالفتيا والتدريس

على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه . كما أجاز ابن الملقن لأبى العباس كذلك بأن يروى عنه كل تأليف له فى الفقه والحديث ، وأن يروى كل ما جازت له روايته كالكتب الصحاح الستة ، ومسند الشافعى ، ومسند أحمد بن حنبل ، وغير ذلك من الكتب التى هى أصول الفقه الاسلامى .

وترى — أيها القارىء — صورة من هذه الاجازة العلمية التى كتبها ابن الملقن لتلميذه أبى العباس مثبتة فى كتاب صبح الأعشى ، وقد رأينا أن نأتى لك بهذه الصورة فى هذا البحث الذى بين يديك ، فالتمسها فى الفصل الذى تحدثنا فيه عن فن كتابة الاجازات العلمية .

المرحلة الثانية :

جلس أبو العباس القلقشندى بعد ذلك للتدريس . فانتفع به كثيرون ، وبدا للناس فقيها يميل الى الاجتهاد ، ويحاول أن يضع لعلم الفقه أصولا وقواعد ، ويظهر ان أبا العباس كان يأمل من وراء جهوده فى تدريس علم الفقه ووضع الكتب فيه أن يأتى يوم ينتقل فيه من التدريس الى القضاء ، وان كان أهل الورع والتقوى من أسلاف هذا الرجل فى الأزمنة المتقدمة يتحرجون دائما من وظائف القضاء ويفضلون عليها دائما وظائف التدريس ، ويتناقلون فيما بينهم حديثا نبويا أو قولا مأثورا هذا نصه : « قاض فى الجنة وقاضيان فى النار » . أما المعلمون فهم ورثة الأنبياء والمرسلين . ومن ثم لا نعجب من أن يفضل الكثيرون

من علمائنا الأقدمين أن يكونوا أساتذة ومدرسين على أن يكونوا قضاة وحاكمين .

ومهما يكن من شيء فان هـذه المرحـلة من حيـاة القلقشندي قد أتاحت له التأليف فى علم الفقه فوضع فيه يومئذ الكتب التالية :

١ — شرح (لجامع المختصرات فى فروع الشافعية) وهـو كتـاب نسب الى شـيخ من شـيوخ مصر هو المدلجى — كمال الدين أحمد بن عمر بن أحمد بن مهدى ، المتوفى سنة ٧٥٧ هـ . وتولى شرحه القلقشندى بعد ذلك بمدة يسيرة .

٢ — شرح لكتاب (الحاوى الصـغير فى الفروع) للقزوينى — نجم الدين بن عبد الغفار بن عبد الكريم ، الشافعى ، المتوفى سنة ستمائة خمسة وستين للهجرة .

ثم ان أبا العباس فى هذه المرحلة الثانية من حيـاته لم يكتف بالعناية بعلم الفقه ، بل أخذ نفسه كذلك بالتمرس بفن الأدب . يدلنا على ذلك انه ألف فى هذه المرحلة طائفة من الكتب والرسائل الأدبية منها :

١ — حلية الفضل والكرم فى المفاضلة بين السيف والقلم ، وهو رسالة أنشأها للمقر الزينى أبى يزيد الداودار الظاهرى ، وذلك فى شهور سنة ٧٩٤ للهجرة ، وفى تلك السنة كان السلطان الظاهر برقوق قد ولى أبا يزيد هـذا وظيفة الداودارية .

٢ ـ شرح على قصيدة « بانت سعاد » لكعب بن زهير قال فيه القلقشندى نفسه :

« وقد وضعت على هذه القصيدة شرحا بديعا سميته (كنه المراد فى شرح بانت سعاد) فتح الله فيه بمعان لم أقف عليها فى شرح لها من قبل »[1] .

هكذا استطاع أبو العباس القلقشندى أن يفيد من هذه المرحلة الثانية من مراحل حياته ، ويجعل منها امتدادا لمرحلة النشأة العلمية التى سبقت الاشارة اليها .

والحق ـ لقد خرج الرجل من هاتين المرحلتين موفور الحظ من الفقه والأدب ، ونبغ فى هذه العلوم والفنون حتى لفت اليه أنظار أولى الأمر اذ ذاك . ونظرنا نحن فاذا أبو العباس يختار لديوان الانشاء لفضله وعلمه وأدبه ، فكان ذلك بداية المرحلة الثالثة من مراحل حياته التى تتحدث عنها .

المرحلة الثالثة :

فى سنة احدى وتسعين وسبعمائة ـ أى فى سن

---

(١) يقول الأستاذ الابيارى :

وهذا الشرح منسوب أيضا لأحمد بن حجر (انظر كشف الظنون ج ٢ ص ١٣٣) . وبدار الكتب المصرية وبمكتبة الأزهر نسختان من هذا الشرح منسوبتان الى السيوطى .

انظر نهاية الأرب فى معرفة انساب العرب : تحقيق الابيارى : ص ٤٢٠ والذى نراه نحن ان لهذه القصيدة شروحا كثيرة من الجائز ان يكون شرح القلقشندى واحدا منها .

الخامسة والثلاثين اختير أبو العباس القلقشندى للعمل فى ديوان الانشاء . واذ ذاك أسفر ذكاء أبى العباس أو جادت قريحته بطائفة أخرى من الكتب تتفق وهذا العمل الأخير . ومن هذه الكتب ما يلى :

١ — مقامة فى تقريظ القاضى بدر الدين بن القاضى علاء الدين بن القاضى محيى الدين بن فضل الله رئيس ديوان الانشاء فى ذلك الوقت . وأطلق القلقشندى على هذه المقامة اسم (الكواكب الدرية فى المناقب البدرية) . وبناها على التعريف بكتابة الانشاء ، فأوضح أنها الحرفة التى لا يليق بطالب العلم غيرها ، والصناعة التى لا يجوز لها العدول عنها ، وضمنها كثيرا من أصول الصنعة فى الكتابة .

غير ان هذه المقامة برغم اشتمالها على كثير من المعانى كانت من الايجاز الشديد بحيث احتاجت من أبى العباس الى شرح واف يكشف اشارتها ويوضح عبارتها . ومن ثم فكر القلقشندى فى وضع كتابه المشهور :

٢ — صبح الأعشى . وقد جعله شرحا لهذه المقامة . واستغرق فى وضعه وقتا طويلا ، وفرغ من تأليفه يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة للهجرة .

فاذا عرفنا انه التحق بديوان الانشاء سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، وانه اشتغل بعد ذلك فى كتابة المقامة

التى أشرنا اليها ، وانه شرع بعد هذا وذاك يؤلف كتابه « صبح الأعشى » فاننا نميل الى القول بأن أبا العباس أنفق فى كتابة الصبح زمنا يقرب من عشرين سنة .

شعر القلقشندى بعد ذلك بأن كتابة الانشاء فى زمانه تستوجب العلم بأنساب العرب ، فتوفر على تأليف كتابين عظيمين فى هذا العلم أو الفرع من فروع العلم ، وهذان الكتابان هما :

١ — نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، وهو الكتاب الذى أهداه أبا الحسن يوسف الأموى .

٢ — قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان ، وهو الكتاب الذى أهداه أبا المحاسن محمد الجُهنى الشافعى المؤيدى صاحب ديوان الانشاء فى ذلك الوقت .

وذكر القلقشندى فى مقدمة هذا الكتاب الأخير ان القصد منه هو الاستدراك على الكتاب السابق ونعنى به نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، ولذا نراه فى قلائد الجمان حذف أشياء وأضاف أشياء وقام بتعديلات هامة .
وفرغ من تأليف قلائد الجمان فى الثالث عشر من شهر رجب سنة تسع عشرة وثمانمائة للهجرة — أعنى قبل وفاته بعامين فقط .

يقول الأستاذ الابيارى :

« لقد وضع أبو العباس (نهاية الأرب) بعد (الصبح) ما فى ذلك شك ، فقد أحال على الصبح فى موضعين من كتابه نهاية الأرب :

أما أولهما — فعند الكلام على آل عيسى الذين هم بطن من آل فضل من عرب الشام ، وذلك حيث يقول فى آخر الحديث عنهم :

« فى كلام آخر يطول ذكره استوفيته فى كتاب صبح الأعشى فى كتابة الانشا على هؤلاء العرب » .

وأما ثانيهما — فعند الكلام على بنى جذيمة الذين هم بطن من النخع ، وذلك حيث يذكر الأشتر النخعى وعهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب له فيقول : « هو من أبلغ العهود ولقد أوردته فى كتابى صبح الأعشى فى كتابة الانشا فى الكلام على عهود الخلفاء والملوك » (١) .

ولا نعلم بالضبط هل كتب القلقشندى كتابيه الأخيرين (نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب) و (قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان) وهو مشغول بوظيفته فى ديوان الانشاء ، أو أنه كتب هذين الكتابين وهو خارج هذه الوظيفة ؟ هذا ما لا نستطيع الحكم فيه ما دامت المراجع كلها لم تشر الى شىء منه .

ولحسن الحظ أن قام الأستاذ ابراهيم الابيارى منذ عامين بتحقيق كتاب نهاية الأرب ، فأثبت أولا ان الكتاب للقلقشندى لا لسواه ، كما أثبت ثانيا انه لا يحتمل مطلقا

---

(١) انظر نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب لأبى العباس القلقشندى : تحقيق ابراهيم الابيارى صفحة ع .

أن يكون هناك كتابان بهذا الاسم ؛ أحدهما للقلقشندى والثانى لولده محمد .

والذى أثار هذا الشك فى ذهن المحقق أنه وجد نسخا لهذا الكتاب ذكر فى بعضها اسم المهدى اليه على أنه « أبو المحاسن يوسف الأموى » الذى نص عليه أبو العباس القلقشندى ، وذكر فى بعضها الآخر اسم المهدى اليه على أنه « الأمير أبو الجود » الذى نص عليه محمد النجم بن أبى العباس القلقشندى .

وهنا يقول الأستاذ الابيارى : « أكاد أجزم بأن الابن أهدى مؤلف أبيه بعد وفاته الى أبى الجود هذا ، وانه أمضى — أى وقع على هذا الاهداء — باسمه ، ولعله نسخ منه نسخة فرغ منها فى سنة ٨٤٦ هـ — وهى النسخة الأم لهذا الكتاب فعنها نقلت النسخ الأخرى .

وقد رتب القلقشندى كتابه نهاية الأرب على حروف المعجم وجعله على مقدمة ومقصد وخاتمة :

ففى (المقدمة) ذكر الأمور التى يحتاج اليها فى علم الأنساب ومعرفة القبائل وبها خمسة فصول :

الأول — فى علم الأنساب وفائدته وبيان الحاجة اليه .

الثانى — فى بيان من يقع عليه اسم العرب وذكر أنواعهم .

الثالث — فى معرفة طبقات الأنساب

الرابع — فى ذكر مساكن العرب القديمة التى منها درجوا الى سائر الأقطار .

الخامس — فى ذكر أمور يحتاج اليها الناظر فى علم الأنساب .

وأما (المقصد) ففيه فصلان :

الأول — فى ذكر عمور النسب النبوى وما يتفرع عنه من الأنساب .

والثانى — فى ذكر تفاصيل القبائل مرتبة على حروف المعجم .

وأما (الخاتمة) فخمسة فصول :

الأول — فى ديانات العرب قبل الاسلام .

الثانى — فى المفاخرات الواقعة بين قبائلهم .

الثالث — فى الحروب الواقعة بين العرب فى الجاهلية وأوائل الاسلام .

الرابع — فى نيران العرب فى الجاهلية .

الخامس — فى أسواق العرب المعروفة قبل الاسلام .

* * *

هذه أطراف يسيرة من حياة رجل من رجالات مصر فى العصور الوسطى توفر على خدمة العلم والأدب بكل ما يملك من فطنة وغيرة وقوة .

وان نظرة واحدة الى جهــود الرجل العلمية والأدبية لتدلنا بجلاء على أن أهم الكتب التى خلفها كتابان هما :

نهاية الأرب الذى أشرنا اليه وقلنا ان الله وفق زميلا من الزملاء هو الأستاذ ابراهيم الابيارى الى تحقيقه ونشره بطريقة علمية صحيحة .

وأما الثانى فكتاب صبح الأعشى .

غير ان الذي لا شك فيه أن (صبح الأعشى) أهم بكثير من (نهاية الأرب) . بل انه لولا (الصبح) لما ظهر كتاب (النهاية) . وقد صرح القلقشندى بأنه انما وضع كتابه نهاية الأرب لا لشيء الا لأن كتابة الانشاء تستلزم العلم بقبائل العرب ثم وجدنا أبا العباس — رغبة منه فى تعميم الفائدة وتقريبها الى أكبر عدد من القراء — يختصر هذه الموسوعة الكبيرة المسماة (صبح الأعشى) ويطلق على هذا المختصر الأخير اسما جديدا هو : (ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر) — علما منه بأن من القراء من يحتاج الى قراءة الموسوعة ويصبر على قراءتها ، وأن من القراء من لا يقوى على قراءة الموسوعة ولا يصبر على هـذه القراءة ، والرأى عنده دائما أن يعمل العالم حسابه لهاتين الطائفتين من القراء فى وقت معا .

أجل — لا يشك أحد فى أن كتاب صبح الأعشى هو أخطر كتب القلقشندى على الاطلاق ، وهو الكتاب الذى يعرف به هذا الرجل عبر العصور ، ويذكر به دائما بين المؤلفين فى سائر الدهور ، فلا يمر اسم القلقشندى فى مجال من مجالات العلم والأدب الا على أنه (مؤلف صبح

الأعشى) وكفى . وقل من المثقفين بالثقافة العربية من يعرف أنه مؤلف نهاية الأرب ، أو قلائد الجمان ، أو شارح كذا وكذا من كتب الفقه ونحو ذلك .

وفى أوائل القرن العشرين طالعتنا دار الكتب المصرية بأول جزء من هذا الكتاب الكبير والموسوعة العظيمة ، فهال الناس جميعا ما اشتمل عليه هذا الجزء من العلم ومن الفائدة وشجع ذلك دار الكتب على المضى فى نشره بالطرق العلمية السليمة الى آخره .

وهكذا استطاعت دار الكتب المصرية بهذا الصنيع أن تسدى للثقافة العربية عن طريق نشر هذه الموسوعة العلمية الأدبية يدا لا يمكن أن تنسى .

واذ قد تمت مهمة نشر الكتاب على هذا الوجه فقد أصبح على الأجيال اللاحقة — كما قلنا ذلك فى التقديم — أن يعمد الغيورون منهم على العلم الى تعريف جمهور المثقفين بهذه الموسوعة الخطيرة . وقد كان لى شرف هذه المهمة الأخيرة ومن ثم قصرنا جهودنا فى هذا البحث الذى بين يديك على عرض هذه الموسوعة ، وتحليلها تحليلا كاملا ، وبيان الأهداف التى تهدف اليها ، والأغراض التى كتبت من أجلها .

وقد أشرت فى تقديمى لهذه الموسوعة الكبيرة الى القراء للجهود العنيفة التى بذلها القلقشندى فى كتابتها . كما أشرت فى بعض الفصول التى تلت ذلك الى الأجواء العلمية

التى ظهر فيها كتاب (صبح الأعشى) وكان فيها هذا الكتاب نوعا من الاستجابة لهذه الأجواء المشبعة بالعلم والأدب والمعرفة .

مصـــادر الكتاب :

والآن — وقبل أن آخـذ فى عرض الكتاب وتحليله للقراء — أرى أن أشير هنا الى بعض المصادر التى اعتمد عليها القلقشندى فى تأليف هذه الموسوعة .

والحق — اننى وجدت القلقشندى قد رجع فى كتابه الى طائفة كبيرة جدا من المصادر التى يصعب احصاؤها أو المام بها . ولا تقل هذه المصادر فى مجموعها عن مائة مصدر . وقد تزيد على هـذا العدد ، ومنها على سبيل المثال — لا على سبيل الحصر — ما يلى :

ذخيرة الكتاب لابن حاجب النعمان .

حسن التوسل فى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبى .

المثل السائر لابن الأثير .

كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى .

التذكرة لأبى الفضل الصولى .

كتاب الأم للشافعى .

العلم والدواة لمحمد بن على .

الملل والنحل للشهرستانى .

كتاب قوانين الدواوين لابن مماتى .

العقد الفريد لابن عبد ربه .
حياة الحيوان للدميرى .
أدب الكاتب لابن قتيبة .
صناعة الكتابة لأبى جعفر النحاس .
كنز الكتاب لكشاجم .
البيان والتبيين للجاحظ .
الأوائل لأبى هلال العسكرى .
الأحكام السلطانية للماوردى .
تشريف الأيام بسيرة الامام الملك المنصور — لمحيى الدين بن عبد الظاهر .
تقويم البلدان لصاحب حماه .
المسالك والممالك لابن فضل الله العمرى .
عجائب المخلوقات لابن الأثير .
فضائل العرب لابن أبى عبيدة .
نزهة المشتاق للأدريسى .
معالم الكتابة لابن شيث .

وذلك كله فضلا عن كتب أخرى كان لا يذكر القلقشندى مؤلفيها . مثل : الروض المعطار ، ومواد البيان ، والقانون ، وتاريخ النيل ، وكتاب الأطوال ، ورسم المعمورة ، وتاريخ صفد ، والهناء الدائم بمولد أبى القاسم ، والدر الملتقط ، وغير ذلك من الكتب التى كان يحتاج اليها المؤلف فى كل

علم من العلوم التى عرض لها فى كتابه كعلم الجغرافيا والتاريخ والأنساب والأدب والكتابة ونحو ذلك .

* * *

(وبعد) — فهذا كل ما أمكن أن توحى به المصادر التى أشارت الى أبى العباس القلقشندى ، وهذه المعلومات التى نقدمها على قلتها قد تمد القارىء بصورة من حياة هذا الرجل الذى وقف حياته على العلم والأدب ، لم تشغله أعباء الوظائف الحكومية عن السير فى هذا الطريق بخطى ثابتة يكمل بعضها بعضا ، وتؤدى فى نهايتها الى هذه الكنوز العظيمة التى تركها لنا ، وهى الكنوز التى كان خليقا من أجلها أن يخلد فى التاريخ كما خلد الكثيرون من أمثاله .

غير أن ما قصرت فيه العصور السابقة استطاعت أن تنهض به العصور اللاحقة ، فها نحن فى هذا العصر الحديث — وفى النصف الثانى من القرن العشرين — نصلح ما أفسدته القرون الغابرة ، وتنهض بما لم تنهض به الأزمان القديمة ، فنرد الأمر الى نصابه ، ونعطى الحقوق لمستحقيها . ونحمد الله الذى جلت قدرته على أن وفقنا نحن المحدثين الى عمل كان من أوجب الواجبات على السابقين الأولين .

مقدمة صُبح الأعشى

الفصل الثالث

من وحى المقدمة

« كنا حين نؤرخ للكتابة العربية منذ العصور الاسلامية الأولى ، ونحاول أن نلتمس الأسباب التى من أجلها نهض هذا الفن لا نجد أقوى من هذا السبب الذى نرجع اليه قوة الكتابة العربية ، ونرد اليه نهضتها . ونعنى به ديوان الانشاء .

والحق ان هذا الديوان هو الذى شحذ أقلام الكتاب من عهد عبد الحميد الكاتب فى عصر بنى أمية الى عهد سهل بن هارون ومن اليه من الكتاب فى العصر العباسى الأول ، الى عهد ابن العميد والصاحب بن عباد فى العصر العباسى الثانى ، الى عهد القاضى الفاضل ومحيى الدين بن عبد الظاهر فى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية .

« واذا كان ديوان الانشاء من أقوى أسباب نهضة الكتابة خلال العصور الاسلامية التى أشرنا اليها فان شيئا آخر أصبح سببا فى نهضة الكتابة العربية فى مصر والشرق العربى فى عصرنا هذا . وهذا الشىء هو الصحافة .

« من أجل ذلك ننظر الى ديوان الانشاء فى أكثره على أنه أداة رسمية ، كما ننظر الى الصحافة فى أكثرها على أنها أداة شعبية ، وشتان بين الأداتين :

« أما الأولى — وهى ديوان الانشاء — فقد صعدت بالكتابة العربية الى عليا درجات الجمال والزينة . وأما الثانية — وهى الصحافة — فقد وصلت بالنثر الحديث الى آخر درجات البساطة والرشاقة والوضوح والألفة والايناس والواقعية » [1] .

وكما نعنى نحن الآن بتاريخ الكتابة الصحفية منذ نشأتها وبالاشارة الى أصول هذا الفن الحديث ، وهو فن التحرير الصحفى . وكما نعنى كذلك بوصف الثقافات التى يجب أن يحصل عليها المشتغلون بالصحافة وبنوع الأخلاق والآداب التى تجب مراعاتها من جانب المتمرسين بهذه المهنة الشريفة فكذلك عنى القدماء بصناعة الانشاء . وان كان من الحق أن نقول فى صراحة وجلاء ان عنايتهم بصناعة الكتابة الديوانية ما زالت أقوى من عنايتنا نحن بتحرير الفنون الصحفية .

كانت هذه (أولى الأفكار) التى أوحت بها قراءتى لمقدمة (صبح الأعشى) . وهى مقدمة رائعة شغلت من الجزء الأول نحوا من مائة وأربعين صفحة !!

---

(١) عبد اللطيف حمزه : أدب المقالة الصحفية فى مصر . الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ص ٨٧ .

بدأها المؤلف بقوله : لما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها ، وأربح البضائع وأنفعها .. لا سيما كتابة الانشاء التى لا يلتفت الملوك الا اليهـا ، ولا تعول فى المهمـات الا عليها ، يعظمون أصحابها ، ويقربون كتابها .. وكانت الديار المصرية .. أعز الله حماها ، وضاعف علاها .. لم يزل يعلو قدرها ، ويسمو ذكرها الى أن صارت دار الخلافة العباسية ، وقرار المملكة الاسلامية .. وحظيت من فضلاء الكتاب بما لم تحظ به مملكة من الممالك ولا مصر من الأمصار ، وحوت من أهل الفضل والأدب بما لم يحو قطر من الأقطار .. استخرت الله فى كتابة هذا التاريخ الخ » .

* * *

أما (الفكرة الثانية) التى أوحت بها قراءة المقدمة فهى الفكرة الخاصة :

بطريقة التأليف

أشار المؤلف فى مقدمته الى الذين سبقوه تأليفا فى موضوع كتابه هذا . فقال ان هؤلاء المؤلفين فرق مختلفة :

١ — فرقة عنيت بأصول هذه الصناعة التى هى صناعة الانشاء .

٢ — وفرقة جنحت الى ذكر المصطلحات التى أتفق عليها أهل هذه الصناعة وبيان الغرض منها .

٣ — وفرقة قصرت عنايتها على عرض النماذج الانشائية

ليقتبس منها من يطالعها ويتخرج عليها من يمعن النظر فيها ، ثم قال انه لم يظفر بكتاب يجمع كل هذه الأغراض .

والحق ان هذه طرق ثلاث هى كل ما يستطيع المؤلف أن يسلكها فى تأليف مثل هذه الكتب . وفى وسعه — لو أراد ذلك — أن يجمع بينهـا . وهـذا ما فعله أبو العبـاس القلقشندى !

• على ان فن الانشاء من الفنون الوثيقة الصلة جدا بفن القول أو « البلاغة » . ونحن نعلم « ان درس البلاغة العربية منذ ظهورها كان على مذهبين :

أولهما — البلاغة على طريقة العجم وأهل الفلسفة .

والثانية — طريقة العرب الذين لا حظ لهم من الفلسفة .

كان القدماء يدركون هذين المذهبين . وينقسمون فى درس البـلاغة العربية هذين القسمين « وافتخر أحدهم — وهو السيوطى — بأنه انما درس البلاغة على المذهب الثانى ، فقال عن نفسه : ورثت التبحر فى سبعة علوم هى : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى ، والبديع — وذلك على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة » .

ومعنى ذلك أن الطريقة الأولى — وهى طريقة العجم على حد قولهم — كانت تفهم البلاغة فهما أدنى الى العلم ، وكانت تعنى بالمصطلحات البلاغية ، وتشرح الغرض منها وتفلسف هذا الشرح .

أما الطريقة الثانية — وهى طريقة العرب — فكانت تفهم البلاغة فهما أدنى الى الأدب المحض ، وكانت تعنى بالشواهد والنماذج بقصد تربية الذوق . ومن ثم كانت تجنح هذه الطريقة الى الاقلال من الأصول ومن القواعد ومن ذكر المصطلحات البلاغية والاكثار بدلا من ذلك من ذكر الشواهد والأمثلة .

وقد لاحظ التاريخ ان الطريقة الأولى قد امتاز بها نفر من الكتاب والبلغاء الأوائل ممن كانوا يحذقون الثقافة اليونانية ويعيشون فى بيئة من بيئات الشرق البعيد كايران وفارس وسمرقند والعراق .

كما لاحظ التاريخ ان الطريقة الثانية انما امتاز بها نفر من الكتاب والبلغاء الذين عاشوا فى بيئات من الشرق القريب كمصر والشام مضافا اليهما بلاد المغرب والأندلس .

والذى رأيناه عند أبى العباس القلقشندى أنه جمع بين هاتين الطريقتين معا ، وان كانت عنايته بالطريقة الثانية من الوضوح بحيث لا ندع مجالا للشك فى مصريته وعروبته وجنوحه الى طريقة العرب .

وتلك هى الفكرة الثانية التى أوحت بها قراءة المقدمة .

* * *

أما (الفكرة الثالثة) التى أوحت بها قراءة المقدمة فانها تتصل بتقسيم الكتاب وتبويبه وتنسيقه بطريقة خاصة . فقد جعل الكتاب على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة ، وفكرة

التقسيم فى ذاتها تدل على عقلية مصرية خالصة اشتهر بها كتابنا المصريون منذ القدم ، فرأيناهم يعتمدون فى تصنيف كتبهم على طريقة التقسيم والتبويب والمبالغة فى هذا التقسيم والتبويب ، وذلك بخلاف غيرهم من كتاب الشرق البعيد مما يصرفهم التعمق فى الفكرة أحيانا عن النظر فى تنسيق مؤلفاتهم على هذا النحو .

وبنفس هذه الطريقة وجدنا العلماء الذين ينسبون الى عصر القلقشندى يؤلفون الكتب أو الموسوعات التى خدموا بها الثقافة ، ومن هؤلاء : النويرى (أحمد بن عبد الوهاب) صاحب كتاب نهاية الأرب فى ثلاثين جزءا ، وابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس) صاحب مسالك الأبصار فى أربعة عشر جزءا . وحذا حذو هؤلاء فى التأليف بعد القلقشندى كل من المقريزى والسيوطى وغيرهما من كتاب الموسوعات التى تحدثنا عنها فى أول الكتاب .

نعم — جرى أبو العباس على خطة دقيقة كل الدقة فى تقسيم كتابه ، وذلك نظرا لضخامة هذا الكتاب الذى كان طليقا باسم « موسوعة » ، واذا جاءت الموسوعة على هذا التقسيم الدقيق أمكن الانتفاع بها والرجوع إليها عند الحاجة .

وسنضرب لهذا مثلا واحدا يغنى عن أمثلة كثيرة :

(فى المقالة الأولى) تحدث القلقشندى عما يحتاج اليه الكاتب من المواد فجعلها فى بابين كبيرين .

أولهما — ما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العلمية ..
وثانيهما — ما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العملية ..
ثم عمد الى الباب الأول فقسمه الى ثلاثة فصول :
١ — ما يحتاج الكاتب الى معرفته على وجه الاجمال .
« وصاحب هذه الصناعة كما يقول ابن الأثير يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون حتى انه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس والى ما يقوله المنادى فى السوق على السلعة . فما ظنك بما فوق هذا وذاك ؟
٢ — ما يحتاج اليه الكاتب من الأدوات . وقد ذكر المؤلف منها تسعة عشر نوعا هى جماع الثقافة العربية وعناصرها المختلفة كالشعر ، والقرآن ، والحديث ، والحكم ، والأمثال ، وكلام الخطباء ، ورسائل البلغاء ، الى آخر ذلك مما سيأتى ذكره .
٣ — ما يحتاج اليه الكاتب من معرفة الأزمنة والأيام والشهور والسنوات والمواسم والأعياد .
وانتقل أبو العباس بعد ذلك الى الباب الثانى — وموضوعه الأمور العملية — فقسمه الى أربعة فصول :
١ — فى ذكر آلات الخط ومبادئه وصوره وأشكاله .
٢ — فى الكلام عن الخط نفسه .
٣ — فيما يتصل بالخط من النقط والضبط والشكل .
٤ — فى مصطلح الخط . وهكذا .

وتحت كل فصل من هذه الفصول السابقة كلها يأتى القلقشندى بالأنواع فيقول النوع الأول ، والنـــوع الثانى وهكذا وتحت كل نوع منها يأتى بالجمل فيقول الجمـــلة الأولى والجملة الثانية وهكذا .

أليست هذه هى نفس الطريقة المتبعة فى معاجم اللغة العربية (كالمحيط) للفيروزبادى و (كاللسان) لابن منظور . وأنت تعلم أن كلا منهما قسم المادة التى تشتمل عليها اللغة العربية إلى أبواب حسب أواخر الكلمات ، ثم قسم كل باب الى فصول بحسب أوائلها ؟

الفصل الرابع

آداب مهنة الكتابة

تحدثت اليك أيها القارىء عن طائفة من الأفكار التى استوحيتها من قراءة المقدمة ، وهى أفكار دعتنى الى تقدير القلقشندى والنظر اليه على أنه واحد من أولئك الرواد الذين اشتركوا فى بناء الثقافة الاسلامية ، وهى ثقافة عربية كان « فن الكتابة والتحرير » من أقوى أعمدتها وأمضى أسلحتها . وكان هذا الفن أكبر برهان على أنها ثقافة خليقة بالاعجاب والخلود .

والآن أريد أن أحدثك أيها القارىء بعد ذلك فيما اشتملت عليه المقدمة نفسها وقد جعلها المؤلف خمسة أبواب :

الأول — فى فضل الكتابة ومدح أفاضل الكتاب .

والثانى — فى ذكر مدلول الكتابة وبيان معنى الانشاء وترجيح النثر على الشعر .

والثالث — فى بيان آداب الكتابة وصفات الكاتب .

والرابع — فى تاريخ ديوان الانشاء منذ نشأته الى زمان المؤلف .

وهكذا عالج القلقشندى فى مقدمته أمورا كثيرة أعطى كل واحد منها ما يستحقه من البحث والعناية ، وسمى كل ذلك (مقدمة) مع انها خليقة باسم (كتاب) فلها فى الواقع جميع سماته ومميزاته وما يعرفه الناس من مقوماته .

وقد لا يعنينا فى زماننا هذا من الأبواب الخمسة المتقدمة غير بابين :

أولهما : الباب الذى يتحدث فيه المؤلف عن آداب الكتابة .

وثانيهما : الباب الذى يشير فيه الى تاريخ ديوان الانشاء .

ولنبدأ بالأول :

صفات الكاتب وآداب مهنة الكتابة :

ذكر لنا القلقشندى رأى من قال ان الكتابة صناعة روحية لا تتم الا بآلة مادية لتدل على معنى من المعانى امتلأ به ذهن الكاتب . والمقصود (بالروحية) هو الألفاظ التى يتخيلها الكاتب فى وهمه ، ويضم بعضها الى بعض فى ذهنه ليؤلف منها صورة باطنة تقوم فى نفسه . والمقصود (بالمادية) هو الخط الذى يخطه الكاتب بقلمه ، ويعيد به الصورة القائمة فى ذهنه حتى تصبح صورة محسوسة ظاهرة بعد أن كانت صورة باطنة .

وفى رأى القلقشندى ان الكتابة وان كثرت أنواعها وتعددت أشكالها لا تخرج عن أصلين هما : كتابة الانشاء

وكتابة الأموال ، الا أن العرف جرى على تفضيل الأولى على الثانية وذلك لما تحتاج اليه الأولى من زيادة العلم والثقافة وغزارة الأدب والفضيلة ، وذكاء العقل والقريحة ، وذلك فضلا عن جودة الرواية والقدرة على التصرف والتنوع فى التعبير واختراع المعانى .

صفات الكاتب :

وتحدث القلقشندى بعد ذلك عن صفات خاصة فى الكاتب ، وعدّ من هذه الصفات عشرا هى :

صفة الاسلام (وان كان قد عدل عنها بعد ذلك حين رأى كاتبا كالصابى من الصابئة فى العصر العباسى ، وآخر كأبى مقصور بن سوردين النصرانى كاتب العزيز بالله الفاطمى وغيرهما) .

وصفة الذكورة ، وصفة الحرية (بمعنى أن يكون الكاتب حرا لا مملوكا لغيره) .

وصفة التكليف (بمعنى أن يكون رجلا لا قاصرا ولا صبيا) .

وصفة الاستقامة ، وصفة البلاغة ، وصفة العقل ، وصفة الهمة وشرف النفس ، وصفة العلم ، وصفة الكفاءة ، لأن غير الكفاء من الرجال يضر بالمملكة ويوهن قوى الدولة .

هذا كله فضلا عن صفات أخرى ، منها أن يكون الكاتب قوى النفس ، حاضر البديهة ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، جرىء الجنان ، ظاهر الأمانة ، عظيم النزاهة ، كريم

الخلق ، مأمون الغائلة ، مؤدب الخدم ، مليح الزى ، عطر الرائحة ، تظهر عليه النعمة ، ويصدق فيه وفى أخواته قول الشاعر يصف الخمر :

وشـمول كأنما اعتصروها
من معانى شـمائل الكتاب

آداب الكتابة :

وأفاض القلقشندى بعد ذلك فى ذكر آداب الكتابة فقال انها على ضربين :

الأول — حسن السيرة .

الثانى — حسن المعاشرة .

وتحت (حسن السيرة) نجد مجموعة من الأخلاق الكريمة ، وعلى رأسها تقوى الله فى السر والعلن ، وقصد الآخرة فى كل ما يصدر عن الكاتب من رأى وعمل ، ثم البعد عن مواطن الشبهات والريب ، ولزوم العفة فى كل ما يتصل بالأمير من أشغال ومهام ، والاعتدال فى طلب اللذة والاكتفاء منها بما يقيم المروءة ، وذلك بالطرق المحمودة لا الطرق المذمومة ، فان هذه الأخيرة لا تناسب قدر الكاتب ولا تنفق ومنزلته من السلطان أو منزلته من الرعية .

ومن هنا أوجب المؤلف على الكاتب أن يتحلى بصفات جليلة منها ما يأتى :

(صفة الاخلاص) فان من صحب السلطان بقصيدة

مدخولة فى ولايته مشوبة فى محبته لم ينتظم له ولا للسلطان أمر .

(صفة النصيحة) لأن السلطان ائتمنه على نفسه وملكه ، فلا ينبغى أن يستر عنه دقيقا ولا جليلا من أحوال الرعية ، ومنها :

(كتمان السر) وهو من أفضل الآداب فى صحبة السلطان ورجال الديوان ، ولا يدخل الضرر أو الخلل على أمة من الأمم ، أو حكومة من الحكومات الا بتفريط بطانتها فى أسرارها واذاعة أمورها . ومنها :

(صفة الشكر) لأن المرء قد يقوى على مكافأة صاحبه أو قريبه ولكنه لا يقوى على مكافأة أميره أو سلطانه ، وانما طريق هذه المكافأة واحد فقط هو الشكر لنعمته والمحافظة على حقوق خدمته ، غير ان الاكثار من الشكر يدخل فى حكم الملق . فليظهر شكر المرءوس لرئيسه عن طريق الأفعال لا الأقوال . ومنها :

(صفة الوفاء) وهو رأس مال الكاتب ، وضمان تقدمه فى عمله ، وكما يظهر وفاء الكاتب فى حال صعود السلطان ومهادنة الزمان فكذلك يظهر وفاؤه فى حال سقوطه وانصراف الدولة عنه . ومنها :

(عدم الادلال على السلطان بخدمة أداها له الكاتب) اذ الدالة على السلطان أو الرئيس من أعظم مصارع التلف . وبسببها هلك من هلك من بطانة السلطان ووزرائه وأعوانه وخاصته . ومنها :

(حسن اختيار الوقت الذى يصلح للعرض أو الطلب)

ويتبع ذلك بطبيعة الحال أنه يجرى الكاتب مجرى رئيسه أو سلطانه فى الحالة التى يراه عليها ، فان مال الى الانبساط أطلق عنانه فيه . وان أظهر الانقباض ذهب مذهبه أيضا .

ويختم القلقشندى حديثه عن هــذه الآداب بصفة من الصفات الهامة فى نظره وهى صفة :

(حسن الوساطة) فيقول ما معناه : ينبغى للكاتب أن يتوسط لمرءوسيه عند أميرهم أو سلطانهم ، وعليه أن يتجنب القدح فى أكفائه ونظرائه ليكون ذلك داعيــا الى محبته والوثوق به وامساك الألسنة عن الطعن فيه .

* * *

وتحت العنــوان الثانى وهو (حسن المعاشرة) قال المؤلف انها على خمسة أضرب :

أولها — معاشرة الملوك والعظماء .

ثانيها — معاشرة الأكفاء والنظراء .

ثالثها — معاشرة الأتباع والمرءوسين .

رابعها — معاشرة الرعية على وجه العموم .

خامسها — معاشرة من يمت للكاتب بصلة أو بحرمة مهما كان نوعها .

أما معاشرة الملوك والعظماء :

فانها معاشرة محفوفة بالخطر دائما ، ذلك ان صاحب السلطان كراكب الأسد يهابه الناس وهو لمركبه أهيب [1] . والزمان — وان عمّ بنوائبه ومصائبه — فانه يخص السلطان منها بما يزيد على نصيب سواه .

وأما معاشرة الأكفاء والنظراء :

فيكفى أن يقال منها (الكتابة نسب) ولله در الشاعر الذى قال فى هذا المعنى :

ألا يكن نسب يؤلف بيننا
أدب أقمناه مقام الوالد [2]

قال المؤلف : واذا كنا نحفظ من متّ الينا بالأنساب الجسمانية التى لا تعارف بينها فأولى أن نحفظ من متّ الينا بالأنساب النفسانية التى يصح منها التعارف ، ولذا قال الحسن بن وهب : « الكتابة نفس واحدة تجزأت فى أبدان متفرقة » .

وأما معاشرة الأتباع :

فانها لاحقة بمعاشرة الأكفاء والنظراء ، وأتباع الكاتب وان كانوا أصحابه ومرءوسيه الا أن اسم الكتابة يجمع بينهم ، فينبغى أن يخصهم بالقسم الأكبر من اكرامه

---

(١) هذه العبارة لابن المقفع ، ولم ترد فى كلام المؤلف فى هذا الموضع .

(٢) هذا البيت لأبى تمام ، ولم يرد فى كلام القلقشندى .

والنصيب الأوفر من اهتمامه حتى يجعل خدمتهم له خدمة ود ومحبة لا خدمة خوف ورهبة . ولهؤلاء الأتباع على رئيسهم حقوق ثلاثة هى : حق الترقية كلما وجد الرئيس اليها سبيلا ، وحق الراحة التى تصفو بها أذهانهم ويزول بها عناؤهم ، وحق المساعدة التى تجذب نفوسهم لأن القلوب مجبولة على حب من أحسن اليها .

وأما معاشرة الرعية :

فهو أمر على جانب كبير من الخطورة ، اذ لا يطيب لأحد عيش مع بغض الرعية له ونفورهم منه ، وأن علت عند السلطان رتبته وارتفعت طبقته وظن بنفسه الاستغناء عنهم .

وأما معاشرة من يمت للكاتب بحرمة :

كحرمة الجوار وحرمة المعرفة ، وحرمة الصداقة ، وحرمة الغرابة ، وحرمة المطاعمة ، فعلى الكاتب أن يوفيهم حقوقهم ، ويعينهم على نوائب زمانهم ، ويساعدهم فى بلوغ مطالبهم من سلطانهم .

قال المؤلف : ومن تمام آداب الكاتب وكمالها أن يعرف حقوق أساتذته فى صناعة الكتابة ، ومشايخه الذين فتحوا له أبوابها وذللوا له سبلها ، فمن آفات صناعة الكتابة ان القاصر فيها لا يمتنع من ادعاء منزلته المتقدم فيها ، بل لا يعفيه من ادعاء التقدم فى الفضل على هذا الأستاذ الذى ميزه الله بالسبق (والله يعلم المصلح من المفسد) .

* * *

هكذا تحدث القلقشندى عن أخلاق الكاتب وآداب الكتابة معتمدا فى هذا الحديث على أقوال الذين سبقوه الى الكلام فى هذا الموضــوع الجليل كابن حاجب النعمان ، وكصاحب مواد البيان ، وكشهاب الدين الحلبى ، وكصاحب المثل السائر ، وكأبى هلال العسكرى ، وكابن مماتى ، وكرجل يقال له ابن خلف — ولا نعرف نحن عن هــذا الأخير شيئا .

ولكن كم كان القلقشندى بارعا وأمينا فى نفس الوقت حين أشار الى الأســتاذ الأول لفن الكتابة العربية وهو عبد الحميد الكاتب — فذكر أنه وضــع الأساس الأول لآداب هذه الكتابة فى رسالته التى عنوانها « الى الكتّاب » والتى أولها :

« أما بعد — حفظكم الله يا أهــل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشــدكم فان الله عــز وجل جعــل الناس — بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وبعد الملوك المكرمين — أصنافا ، وان كانوا فى الحقيقة سواء .. فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهــل الأدب والمروءة والعلم والرواية .. فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بهــا يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطشون . فليس أحد أحوج الى اجتماع خلال الخــير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها

الكتاب .. فتناقشوا معشر الكتاب فى صنوف الآداب ، وتفقهوا فى الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، ثم بالعربية فانها ثقات ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وأرووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تصبو اليه هممكم . وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم وتواصوا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم .. الخ .

ورسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب جميلة ومعروفة وهى من عيون النثر العربى الى يومنا هذا . ثم هى جماع الأخلاق والفضائل التى يجب أن يتحلى بها الكتاب قديما وحديثا . وقد أفرد لها القلقشندى نحوا من خمس صفحات من كتابه لأنه حرص على أن ينقلها للقارىء كاملة غير منقوصة .

* * *

والآن وقد انتهينا من آداب الكتابة وجب أن ننتقل منها الى تاريخ ديوان الانشاء .

الفصل الخامس

التعريف بديوان الإنشاء

اتفق الباحثون الى زمان القلقشندى على أن «ديوان» لفظ فارسى معرب . وحكى الماوردى فى كتابه (الأحكام السلطانية) فى تفسير هذا اللفظ وجهين نذكرهما من قبيل التفكه :

الأول — ان كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فى مكان لهم وهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أى مجانين فسمى موضعهم بهذا الاسم من حينئذ .

والثانى — ان « الديوان » بالفارسية اسم للشياطين وسمى الكتاب بذلك لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجلى منها والخفى .

أما « الانشاء » فمصدر أنشأ الشيء ينشئه اذا ابتدأه واخترعه .

وكان ديوان الانشاء فى الزمن المتقدم يعبر عنه « بديوان الرسائل » ثم عبر عنه بعد ذلك « بديوان المكاتبات » . ثم غلب عليه آخر الأمر اسم « ديوان الانشاء » وبقى على ذلك .

* * *

وأول كتب وضعت فى الاسلام كتب النبى صلى الله عليه وسلم الى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام . ومنهم النجاشى ملك الحبشة ، وكسرى ابرويز ملك الفرس ، وهرقل ملك الروم ، والمقوقس صاحب مصر وغيرهم .

وأما (ديوان الجيش) فأول من رتبه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . والثابت فى التاريخ انه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم نيف وثلاثون كاتبا منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ثم كان لكل واحد من الخلفاء الأربعة الراشدين كتاب أيضا ، ثم كانت دولة بنى أمية فأصبح أمر ديوان الانشاء فى زمن كل خليفة من الخلفاء الى واحد من أفاضل الناس يعينه الخليفة . واستمر الحال على ذلك الى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . وكان يكتب له عبد الحميد بن يحيى الكاتب .

وحين بزغت شمس الخلافة العباسية فى العراق استوزر أبو العباس السفاح أبا سلمة الخلاّل فكان أول من لقب بالوزارة فى الاسلام كله .

وأما مصر فلديوان الانشاء بها خمس مراحل :

الأولى — منذ الفتح الاسلامى الى بداية الدولة الطولونية .

الثانية — من بداية الدولة الطولونية الى نهاية الدولة الأخشيدية .

الثالثة — من بداية الدولة الفاطمية الى انقراض هذه الدولة .

الرابعة — من قيام الدولة الأيوبية الى نهايتها .

الخامسة — من قيام دولة المماليك الى زمان المؤلف .

« هؤلاء الوزراء — أو الكتاب — كان لهم من هذه الناحية التى تعنينا الآن وهى ناحية أنهم أرباب الأقلام — أعوان يسمّون الكتاب . فقد كان لكل وزير كاتب بل كتاب يعينونه . ولولاة الأقاليم ورجال الدولة كتاب كذلك وهكذا .

« .. وكانت هذه الطائفة — طائفة الكتاب — تؤلف وحدة على رأسها الوزير . ثم تتدرج فى الرقى الى الوزارة معتمدة على كفايتها وبلاغتها .

« وكان الكتاب (فى خلافة بنى العباس) فرسا يحتذون حذو أجدادهم من الفرس ، حتى فى مظاهرهم الخارجية . روى الجهشيارى ان الفضل بن سهل ذا الرياستين كان يجلس على كرسى مجنح ويحمل فيه اذا أراد الدخول على المأمون ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فاذا وقعت عليه وُضع الكرسى ونزل عنه الفضل ومشى وحُمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلم ذو الرياستين ويعود فيقعد عليه .

« بل أن تكوّن الكتاب كطبقة ليس الا تقليدا للنظام الفارسى . فالجهشيارى يقول : كان من رسم أن يلبس أهل

كل طبقة ممن فى خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد فى غير تلك الطبقة ، فاذا وصل الرجل الى الملك عرف بلبسته صناعته والطبقة التى هو منها [1] .

ثم فى مصر أصبح للكاتب الأول أو الوزير شأن جد خطير ، ويكفى أن نستحضر فى أذهاننا صورة رجل كالقاضى الفاضل وزير الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى كيف انتهت اليه رياسة الأدب والعلم والسياسة والكتابة فى زمانه ، وكيف كان شخصية ضخمة اتسعت للعصر الأيوبى كله وكانت أوضح مثل لحضارة ذلك العصر وثقافة الصفوة المهذبة من أهله .

أوضح لنا القلقشندى كل ذلك ونقل لنا من أقوال السابقين فى وصف المكانة التى يتمتع بها كاتب الديوان قول مؤلف « مواد البيان » :

« ليس فى منزلة خدم السلطان أخص من كاتب الرسائل ، فانه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته فى آرائه ، والافضاء اليه بمهماته ، وتقريبه من نفسه من آناء ليله وساعات نهاره ..

ألقاب صاحب الديوان :

أفاض القلقشندى بعد ذلك فى ألقاب صاحب الديوان منذ نشأته الى العصر المملوكى .

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام . الجزء الأول . ص ١٦٩.

كان فى الدولة الأموية يلقب (بالكاتب) . ثم جاءت الدولة العباسية فلقب (بالوزير) وترك اسم الكاتب . وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الرسائل كما كان ذلك فى الزمن الأول لقب (بصاحب ديوان الرسائل) أو (صاحب ديوان المكاتبات) . وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الانشاء — كما فى زمان المؤلف — لقب (بصاحب ديوان الانشاء) . قالوا : وكانوا يلقبونه فى الدولة الفاطمية « بكاتب الدست » وانتهى الأمر الى أوائل الدولة التركية ، فتارة يلقب « بكاتب الدست » وتارة يلقبونه « كاتب الدَّرْج » . وفى أيام المنصور قلاوون لقب « بكاتب السر » . والعامة يبدلون الباء من كاتب السر فيقولون (كاتم السر) .

اختصاصات كاتب الديوان :

يختص كاتب الديوان باثنى عشر أمرا وهى : التوقيع على الرسائل والشكاوى ، والنظر فى الكتب الواردة عليه واعداد الأجوبة عن هذه الكتب . والنظر فيما تتفاوت به الرتب فى الرسائل والمكاتبات من الافتتاح والدعاء والألقاب ونوع الورق وقطعه ونحو ذلك . والنظر فى كل ما يخرج من الديوان من مكاتبات وتصفحها قبل خروجها ، والنظر فى أمر الديوان وهو من أعظم مهمات السلطان . وأوثق روابط الملك (وسيأتى الكلام عن ذلك فيما بعد) ، والنظر فى أمر أبراج الحمام ، ولهذا الأمر أهمية خاصة بالنسبة

للعصور التى نتحدث عنها ومنها عصر المؤلف . والنظر فى أمر الطائفة المعروفة (بالاسماعيلية) وهم فرقة من الشيعة كانوا مصدر خطر كبير على الدولة منذ سقوط الفاطميين ومجىء صلاح الدين الأيوبى وأولاده من بعده ثم مجىء المماليك . والنظر فى أمور القصاد (وهم حملة الرسائل السلطانية أو السعاة الذين يحملون هذه الرسائل) والنظر فى الأمور العامة فيما يعود نفعه على السلطان والمملكة حتى اذا انتهى الى صاحب الديوان خبر يتعلق بجلب منفعة الى المملكة أو دفع ضرر اطلع السلطان عليه فى أسرع وقت وأعجله قبل فوات الفرصة .

تحدث القلقشندى بعد ذلك عن نظام ديوان الانشاء فقال انه يتألف من صاحب هذا الديوان ومن سبعة كتاب يظهر انهم رؤساء أقلام أو كتاب آخرين من دونهم وهكذا :

وكاتب يكتب المكاتبات الخاصة بالولايات .

وكاتب يكتب للملوك والسلاطين .

وكاتب يكتب لأهل الدولة وكبرائها ووجوهها .

وكاتب يكتب المناشير .

وكاتب لتبييض ما ينشئه المنشئون فى الديوان .

وكاتب يراجع ما يخرج من الديوان من مكاتبات .

وكاتب خاص بالتذاكر والدفاتر المتعلقة بالديوان .

والى جانب هؤلاء الكتاب (أو قل هذه الأقلام) يوجد اثنان .

أحدهما — الخازن للمكاتبات أو المسجل لها مؤرخة بتواريخ صدورها أو ورودها .

وثانيهما — الحاجب الذى يقف بباب صاحب الديوان لا يمكن أحداً من سائر الناس من الدخول إليه إلا بإذن منه .

قال القلقشندى :

وأما ما استقر عليه الحال فى زماننا هذا فكتاب الديوان على طبقتين :

الأولى — كتاب الدست . وهم الذين يجلسون مع رئيس الديوان أو كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل على ترتيب منازلهم على حسب السبق [1] وهؤلاء أحق كتاب السلطان باسم الموقعين لتوقيعهم على القصص (أى الشكاوى التى ترد من الرعية) .

والثانية — طبقة كتاب الدَّرْج . وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست ، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والمراسيم والمناشير ، وسموا كتاب الدرج لكتابتهم فى دروج الورق ، والدرج هنا هو الورق المستطيل المركب من عدة أوصال متلاصقة تبلغ العشرين وصلا فى المعتاد.

قال القلقشندى : وكما زاد كتاب الدست حتى خرجوا عن الحد فكذلك زاد كتاب الدرج حتى وصلوا الى مائة وثلاثين كاتبا .

(١) الأقدمية بلغتنا الحاضرة .

المقالة الأولى

الفصل السادس

ثقافة كاتب الإنشاء

تحدث القلقشندى فى (المقالة الأولى) وجـزء من (المقالة الثانية) عن ثقافة كاتب الانشاء ، واستغرق هذا الحديث بعض المجلد الأول وكل المجلد الثانى وبعض المجلد الثالث — وذلك فى نحو اثنتين وستين وخمسمائة صفحة من صفحات موسوعة (صبح الأعشى) .

فما الأفكار التى اشتملت عليها كل هذه الصفحات ؟ وما العلوم التى أشار اليها ؟ وما الطريقة التى شرح بها المؤلف كل علم من هذه العلوم ؟ ان علينا أولا أن نعطى القارىء فكرة عامة عن ثقافة الكاتب كما رسمها مؤلف صبح الأعشى ، ولنا بعد ذلك أن ننتقل من العموم الى الخصوص فنقف وقفات طويلة عند المهم فقط من عناصر هـذه الثقـافة . وذلك بالقياس الى القـارىء الحديث لا القارىء القديم .

سبق أن أشرت الى أن كتاب الموسوعات كانوا يبنون موسوعاتهم على خطة التقسيم الدقيق الذى يعين القارىء

على الوصول الى ما يريد من المعلومات التى تشتمل عليها الموسوعة ، وذلك بنفس السهولة التى يصل بها القارىء الى معرفة ما يحتاج اليه من مواد اللغة عن طريق القواميس أو المعاجم . ومن هنا جاءت مبالغة أصحاب الموسوعات فى الأخـذ بنظام التقسيمات العامة تندرج تحتها تقسيمات أخص منها وهكذا .

ولقد نظر أبو العباس الى ثقافة الكاتب الديوانية على أنها قسمان كبيران هما :

١ — ما يحتاج اليه من الأمور العلمية .

٢ — ما يحتاج اليه من الأمور العملية .

فأما الثقافة العلمية :

فتتألف من عدة عناصر من أهمها ما يلى :

أولا — علوم العربية : كاللغة ، والنحو ، والصرف ، والمعانى ، والبيان ، والبديع ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وخطب الخطباء ، ورسائل البلغاء ، وقصائد الشعراء ، وأمثال الحكماء .

ثانيا — معرفة أنساب العرب والعجم ، أيام هؤلاء وهؤلاء ووقائعهم ومفاخرهم ، والوقوف على عادات العرب فى الجاهلية وما بقى من هذه العادات فى الاسلام .

ثالثا — تواريخ الأمة العربية وتواريخ الأمم الأخرى والاهتمام التام بتاريخ الخلافة الاسلامية ونظمها ووظائفها وأحكامها وأعيادها ومواسمها ، والدول التى اشتملت عليها

ودراسة كل دولة من هذه الدول على حدة مع العناية الخاصة بالديار المصرية والتاريخ لهذه الديار فى الجاهلية والاسلام ، وتتبع العصور الاسلامية التى تعاقبت عليها ابتداء من عصر الولاة فعصر بنى طولون ، وعصر الأخشيديين فالفاطميين فبنى أيوب فعصر المماليك .

رابعا — الثقافة الجغرافية — أو علم (المسالك والممالك) كما سماها علماء ذلك العصر بهذا الاسم .

خامسا — الالمام باللغات الأعجمية كالفارسية والرومية (اليونانية) والسريانية والعبرية وغيرها من لغات الأمم التى لها صلة ما بدول الاسلام .

سادسا — فن الوصف :

ونريد أن نشرح المراد هنا بهذا الفن شرحا لا نحتاج بعده الى الرجوع اليه . والمقصود بهذا الفن كل ما يحتاج اليه الكاتب من أوصاف الرجال والنساء ، وما يشترك فيه الجنسان من الصفات ثم أوصاف الحيوان والدواب وخاصة الخيل بأنواعها الثلاثة المعروفة (العراب ، والعجميات ، والمولدة من هذه وتلك) . كما يتصل بهذا الفن معرفة عيوب الانسان والدواب وأوصاف الضوارى والوحوش ويدخل فى باب الوصف كذلك كل ما يتصل بالطير مثل العقاب والبازى والصقر والطيور التى يستعان بها فى الصيد ورماية البندق كالحمام الكركى والأوز واللفلغ والحبارى (بضم الحاء) والنعام والقطا والدرّاج والبلبل

والشحرور والسمانى ، والطاووس والببغاء والهدهد وأبى رزيق وأبى خطاف والحدأة والغراب والخفاش الخ .
أما الحمام فقد عنى به .

كما يحتاج الكاتب فى هذا الباب الى معرفة أوصاف الآلات على اختلافها ومنها الآلات التى يستخدمها الملوك فى مواكبهم كالخاتم والتخت والمظلة والفاشية (سرج الفرس مزركشة بالذهب) والأعلام والرايات والجفتأة (بكسر الجيم — وهما فرسان أشهبان يعلوهما مملوكان متشابهان على رأس كل منهما قبعة من زركش) وكالطبول والبوقات وما اليها .

ويحتاج الكاتب كذلك الى معرفة آلات الركوب مثل السرج واللجام والكنفوش (وهى ما يستر به مؤخر الفرس) والمهماز والرّحْل والزمام والركاب والسوط .

ويحتاج الكاتب الى معرفة آلات السفر كالخيام والمشاعِل والأثافى والحركاة (وهى بيت من خشب مغطى بالجوخ تحمل فى السفر مع الخيمة للمبيت) .

ويحتاج الكاتب أيضا الى معرفة آلات السلاح كالسيف والرمح والقوس والنشاب والكنانة والدبوس والعصا والمغفر والدرع وأوصاف كل آلة منها على حدة .

ولابد للكاتب من معرفة آلات الحصار كالمنجنيق ومكاحل البارود وآلات الوقاية وأوصاف هذه الآلات .

وهناك الموازين وأنواعها وأوصافها ..

وهناك آلات اللعب كالنرد والشطرنج ونحوها ..

وهناك آلات الطرب كالعود والرباب والدف والجنك والشبابة .

ثم لا غنى للكاتب فوق كل ذلك من معرفة الأحجار النفيسة كاللؤلؤ والياقوت والحجر المسمى بلخس (بفتح اللام وسكون الخاء) والماس والزمرد والفيزوزج والبللور والمرجان والعقيق . ومعرفة صفات كل حجر على حدة وخصائصه وميزاته ومواطن استخدامه والاتنقاع به .

لا غنى للكاتب أخيرا عن معرفة الطيب بجميع أنواعه كالمسك والعنبر والعود والصندل والوقوف على أوصاف هذه الأنواع والجهات التى ترد منها .

* * *

تلك عناصر الثقافة العلمية التى لابد لكاتب الانشاء أن يلم بها وأن يعرف كيف يستخدمها فى الوقت المناسب . فلننتقل من ذلك الى :

الثقافة العملية :

فقوامها أشياء من أهمها ما يلى :

أولا — معرفة فن الخط ، وهو من ألزم الفنون لكاتب الانشاء فى عصر لم يكن يعرف الطباعة الحديثة ، وعصر كان الاعتماد فيه على فن الخط . فلا غرابة بعد ذلك أن نرى أبا العباس القلقشندى يعنى عناية تامة بهذا الفن . ويكتب فيه نحوا من ثلثمائة صفحة من صفحات هـذه

الموسوعة يتناول فيها هذا الفن من جميع وجوهه ، ويصف لنا جميع أدواته وصوره وأشكاله . وبحسبنا هنا أن نشير الى بعض عنوانات الفصول التى كتبها أبو العباس فى هذا الموضوع الجليل :

فصيلة الخط : تاريخ الخط العربى . تحسين الخط . هندسة الحروف . تنقيط الحروف . هيئة امساك القلم . كيفية استخدام الدواة . وضع القلم على الدرج (يريد الورق) . كيفية حركة اليد بالقلم فى الكتابة . تناسب الحروف ومقاديرها فى كل قلم . الترويس (أى كتابة رءوس الموضوعات) . أنواع الأقلام المستعملة فى ديوان الانشاء . الصورة التى يختص بها كل حرف من حروف المعجم . ضبط الكلمات بالشكل . الحروف المفردة . الحروف الموصولة بغيرها . صورة كل حرف من هذه وتلك على حدة .

نظن أن القارى الحديث يريد أن نعفيه من الاسترسال مع المؤلف فى هذا الفن الذى كان الكتاب فى زمانه يتنافسون فيه تنافسهم فى ميدان البلاغة وميدان الأدب وميدان التاريخ ونحو ذلك .

ومعلوم انه فى العصور الحديثة ظهرت المطبعة وقلت العناية منذ ذلك الوقت بفن الخط الذى هو من أجمل فنون العرب ولم يزل الى يومنا هذا من أجملها فى الحقيقة . غير أن العناية به أصبحت محصورة بين (الخطاطين) الذين

تعتمد عليهم الصحف الى اليوم ، والفنانين الذين يحدثون من الخط العربى بأنواعه الكثيرة فنونا تشكيلية كثيرة تحلّى بها المساجد ونحوها من الأبنية ذات الطراز العربى المعروف .

الفصل السابع

ثقافة الكاتب

اليك أيها القارىء صورة موجزة من علوم العربية التى تلزم الكاتب كما تصورها أبو العباس القلقشندى . تحدث الرجل عن خصائص اللغة العربية وهى لغة القرآن من حيث انها لغة تامة الحروف ، تامة الألفاظ لا تكاد تجاريها لغة من اللغات القديمة فى هاتين الميزتين ؛ وكخاصة الايجاز ، وكخاصة الأخذ من اللغات الأخرى أخذا يعود عليها بالقوة والنماء . وكخاصة الأعراب لأواخر الكلمات . وقل أن توجد هذه الأخيرة فى غيرها من اللغات . وحسب اللغة العربية انها اتسعت لكتاب الله ، وان جميع اللغات الأخرى عجزت عن ترجمته ، وفى هذا ما يدل دلالة قاطعة على كمال القرآن وكمال اللغة التى اتسعت للقرآن .

١ ــ فأما اللغة : ــ

ثم انتقل أبو العباس القلقشندى بعد ذلك الى الحديث عن المواطن التى تظهر فيها حاجة الكاتب الى اللغة والى توسعه فيها الى الحد الكافى . قال انها خمسة مواطن :

— أولها : معرفة الغريب من الألفاظ أو الكاتب فى حاجة الى استخراج المعانى من القرآن والحديث ومن الشعر الجاهلى وهذه الأصول الثلاثة للغة تشتمل على الغريب من الألفاظ . والغريب وان لم ينفق منه الكاتب الا أنه لا غنى له عن معرفته . ونقل لنا المؤلف خبرا أورده ابن قتيبة فى كتاب أدب الكاتب قال : وأى مقام أخزى لصاحبه من رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء وارتضاه لسره . فقرأ عليه يوما كتابا فيه : وأمطرنا مطرا كثر عنه الكلأ . فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكلأ ؟ فتردد الكاتب فى الجواب وتعثر لسانه ثم قال : لا أدرى . فقال له الخليفة : سل عنه .

وهذا الخليفة هو المعتصم . والكاتب هو أحمد بن عمار . وكان المعتصم ضعيف البصر بالعربية . فلما قرأ عليه أحمد بن عمار الكتاب وسأله عن الكلأ فلم يعرفه قال : انا لله وانا اليه راجعون . قال خليفة أمىّ وكاتب عامىّ ! ثم قال من يقرب منا من كتاب الدار ؟ قالوا : محمد بن عبد الملك الزيات . فأمر باشخاصه . فلما مثل بين يديه قال له : ما الكلأ ؟ قال : النبات رطبه ويابسه . فان كان رطبا قيل له خَلاً ، وان كان يابسا قيل له حشيش . وأخذ فى ذكر النبات من ابتدائه الى اكتماله . فقال المعتصم : فليتقلدنّ هذا العرض علينا ! ثم خصّ به حتى استوزره » .

والطريف فى طريقة أبى العباس انه كان اذا تحدث عن

موطن من المواطن التى يحتاج فيها الى اللغة أشار الى مصدر من أكمل المصادر التى عنيت بهذا الموطن أو ذاك من تلك المواطن . وقصده من ذلك أن يدل كاتب الانشاء على المعين الذى يستقى منه ما يحتاج اليه من أغراض اللغة .

وتطبيقا منه لهذه القاعدة فقد أشار فى معرفة الغريب فى اللغة الى كتب الصحاح للجوهرى ، والمحكم لابن سيدة : والمجمل لابن فارس . ثم حكم للصحاح بأنه أقربها مأخذا ، وللمحكم بأنه أمثلها طريقة .

— ثانيها : أى ثانى المواطن التى يحتاج فيها الى التبحر فى اللغة معرفة الألفاظ اللغوية وانها بمعرفة (المتباين) من الألفاظ كالسواد والبياض والطول والعرض ومعرفة (المترادف) منها كالأسد والسبع للحيوان المفترس ومعرفة (الحقيقة والمجاز) كالأسد للحيوان المفترس والحمار للحيوان المعروف . والأسد للرجل الشجاع والحمار للرجل البليد . ومعرفة (الألفاظ المتضادة) كالأمانة والخيانة والفتق والرتق ، والنقض والابرام .

(وتسمية المتضادين باسم واحد) كالجوْن للأسود والأبيض ، والصريم لليل والنهار . وفى (أدب الكاتب) جملة صالحة من كل ذلك . ومعرفة (المقصور والممدود) كالندى للجود والسماء للفلك .

وما يجوز فيه المد والقصر كالشراء ونحو ذلك . ومعرفة (المذكر والمؤنث) وخاصة ما يعتمد منه على السماع

كالسماء والأرض والقوس والحرب ، وما يجوز فيه (التذكير والتأنيث) كالطريق والسبيل والموسى واللسان . (وما يشترك فيه المؤنث والمذكر) كصيغة فعيل بمعنى مفعول . ومنه قتيل بمعنى مقتول وخصيب بمعنى مخصوب . وصيغة فعول بمعنى فاعل . ومنه صبور للرجل والمرأة وشكور لهما كذلك . وصيغة فاعل مما لا يكون وصفا لمذكر . ومنه امِرأة حامل وطالق .

وفى كتاب (أدب الكاتب).و (فصيح ثعلب) جملة من ذلك .

ويجب على الكاتب أن يعرف من ألفاظ العرب (ما ورد مزدوجا) كقولهم : الحجر والمدر (فالحجر معروف والمدر التراب الندى) . و (ما ورد من كلامهم مثنى على سبيل التغليب) كقولهم : الأبوان ، والقمران ، والعُمران ، أو (على سبيل الحقيقة) كقولهم : الجديدان بمعنى الليل والنهار والأطيبان بمعنى الأكل والزواج . (وما ورد من كلام العرب مرتبا) كقولهم النعاس فالوسن فالكرى فالغمض . ثم (ما تختلف أسماؤه باختلاف أحواله) كالكاس لا يقال فيه كأس الا اذا كان فيه شراب . والا فهو قدح . و (المائدة) لا يقال كذلك الا اذا كان عليها طعام ، والا فهى خوان بكسر الخاء .

ومن الألفاظ التى يجب معرفتها كذلك ما تعددت لغاته بتعدد اللغات التى أخذت عنه فى الأصل كقولهم (رطل)

بكسر الراء وفتحها . (وسم) بكسر السين وضمها ومن . ذلك ما فيه أربع لغات مثل (نطع) بكسر النون وفتحها ، وسكون الطاء ، وفتح النون والطاء . ومنه ما فيه خمس لغات مثل : ريح الشمال بفتح الشين من غير همزة ، وفتحها بالهمزة فتقول (الشمأل) ، والشامل بفتح الميم وبغير همزة . والشمل بفتح الميم . والشمل بسكونها . ومنه ما فيه ست لغات كفسطاط وهكذا ..

— الثالث : من مواطن الحاجة الى اللغة معرفة الفصيح منها . والفصيح هو ما نطقت به قبائل لم تختلط بالعجم . مثل قريش وهذيل وكنانة وبعض من قيس عيلان وتميم وعرب الحجاز ووسط نجد . وهنا أطال المؤلف الحديث عن لهجات العرب وضرب الأمثلة على هذا الاختلاف .

— الرابع : ما تلحن فيه العامة وتغيره عن موضعه . كقولهم فى جفن بفتح الجيم جفن بكسرها . وقولهم فى القبول بفتح القاف القبول بضمها وأمثال هذا كثير يصعب أن نحصره .

— الخامس : معرفة الألفاظ التى اختص بها الكتاب أو الألفاظ الكتابية كما سماها المؤلف نفسه . وهى ألفاظ انتخبها الكتاب وانتقوها من اللغة استحسانا لها . قال الجاحظ : ما رأيت مثل طريقة هؤلاء الكتاب فانهم التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا حوشيا ، ولا ساقطا سوقيا » . وذكر ابن الأثير فى المثل السائر ان الكتاب غربلوا اللغة

واتتقوا منها ألفاظا رائعة استعملوها . وهذه الألفـاظ أسماء وأفعال . والأسماء كقولك فى المدح : فلان غرّة القبيلة ، وسنامها ، وذؤابتها ، وذروتها . وهو نبعة أرومته ، وأبلق كتيبته ، ومدرة عشيرته الخ .. والأفعال كقولك : فى اصلاح الفاسد : اصلح الفاسد ولمّ الشعث ، ورأب الصدع ، وجمع الشتات ، وجبر الكسر ، وآسى الكلم ، ورقع الخرق ، ورتق الفتق .

وفى كتاب (الألفاظ) لعبد الرحمن بن عيسى الكاتب كفاية من ذلك .

هذا كله من حيث الألفاظ اللغوية ذاتها . أما من حيث تصرف الكاتب فى هذه المادة اللغوية وكيفية تصريفها فى وجوه الكلام فقد أحالنا المؤلف الى كتاب « كنز الكتاب » لكشاجم . ونقل منه أمثلة رائعة من رسائل الكتاب فى أغراض كثيرة ليقيس عليها الكتّاب فى زمانه ويستضيئوا بها على حد قوله .

٢ ـ أما النحو : ـ

فانه ميزان العربية والقـانون الذى تحكم به فى كل صورة من صورها . كما ان اللغة نفسها — ونعنى بهـا الألفاظ التى تتألف منها — هى رأس مال الكاتب الذى منه ينفق دائما وعليه يعتمد فى جميع الظروف والأحوال .

ولقد كتب عمر بن الخطاب الى عامله باذربيجان كتابا يقول فيه : « تعلموا العربية فانها تثبت الفعل وتزيد فى

المروءة » وروى أن اعرابيا سمع قارئا يقرأ « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بجر اللام فى رسوله . فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأمر ألا يقرأ القرآن الا من يحسن العربية .

وأشار القلقشندى الى الأمور التى يصعب على بعض الكتاب حفظها أو تطبيقها من النحو قال :

وقد كان الكتاب فيما مضى أرغب الناس فى علم النحو حتى دخل فيهم من لا يستحق هذا الاسم فصعب عليه أبواب منها (باب العدد) .

على أن القلقشندى لم يكن من أولئك الذين طالبوا الكتاب بالتعمق فى النحو بل ذهب الى أن التعمق فى النحو والمبالغة فيه أمر مستكره كالتعمق فى الغريب والمبالغة فيه . ذلك ان الجهل بالنحو — كما قال ابن الأثير — لا يقدح فى فصاحة ولا بلاغة ، ولكنه يقدح فى الجهل به نفسه ، لأنه رسوم قوم تواضعوا عليه . وهم الناطقون به فوجب اتباعهم فى ذلك .

ثم أشار القلقشندى على عادته الى المراجع التى يرجع اليها الكاتب فى النحو فقال :

ومن الكتب المعتمدة فى زماننا عند أبناء المشرق (المفصّل) للزمخشرى ، و (الكافية) لابن الحاجب . وعند المصريين كتب ابن مالك (كالتسهيل) و (الكافية الشافية) و (الألفية) وغير ذلك .

على أن للاعراب مواضع وللحن مواضع ، وقد نبه عليها الجاحظ حيث نقل عنه القلقشندى ما نصه :

« ان سمعت — حفظك الله — نادرة من كلام الأعراب فاياك أن تحكيها الا مع اعرابها ومخارج ألفاظها . فانك ان غيّرتها بأن لحنت فى اعرابها أو أخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك وزر كبير . وان سمعت نادرة من نوادر العوام وملحة من ملحهم فاياك أن تستعمل الاعراب أو تتخير لها لفظا حسنا فان ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها التى وضعت لها ، وتذهب استطابة الناس اياها » . يقول الشاعر يصف جارية :

وحديث ألذه هـو ممـا
تشتهيه الأسماع يوزن وزنا
منطق ضائب وتلحن أحيـا
نا وخير الحديث ما كان لحنا

وأما طريقة انتفاع الكاتب بالنحو فتظهر فى موضعين فقط :

أولهما : الاعراب على نحو ما تقدم .

وثانيهما : استخدام المصطلحات النحوية وأسماء النحاة فى بعض الرسائل الديوانية على سبيل التورية .

كتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى رسالة : حرس الله نعمة مولاى — ولا زال كلم السعد من اسمه ، اسمه وفعله . ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون

ومعدود ، ومن فضله كل مقصور وممدود . ولا خاطبت الأيام ملتمسة الا بلام التأكيد ، ولا عدّوه الا بلام الجحود الخ » .

٣ ــ وأما الصرف والتصريف :

فهو المقياس الذى يعرف به الكاتب أصل الكلمة وما فيها من حروف مزيدة فيمكن أن يتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة ونحو ذلك .

وضرب القلقشندى على ذلك مثلا مما وقع (لنافع بن أبى نعيم) وهو من أكبر القراء السبعة قدرا ، وأعظمهم شأنا . قال المؤلف عن هذا العالم من علماء القراءة انه (قال فى معايش معائش بالهمزة بدلا من الياء) . ومن جملة من عابه فى ذلك أبو عثمان المازنى فقال فى كتابه (التصريف) : ان نافعا لم يدر ما العربية [١] .

وحكى عن بعض الكتاب انه قال :

« وكانت رسومهم تدفع مسانأة (أى فى كل سنة) ثم صارت تدفع مشاهرة ثم صارت مياومة ثم صارت مساعاة » فأخطأ وكان يجب أن يقول (مساوعة) . ومثل

---

(١) قال علماء التعريف فى ذلك : ان الأصل فى (معيشة) هو (معيشة) على وزن مفعله • ومن يعيش تبنى صيغة مفعول فتقول (معيوش) • ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال (معيش) • ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير (معيشة) وجمعها (معايش) بالياء لا بالهمزة •

هذا كثير فى كلام الشعراء والكتاب . يقول ابن الأثير « وكثيرا ما يقع أهل العلم فى مثل هذه المواقع فكيف بالجهال الذين لا معرفة لهم بها الخ » .

٤ ـ واما علوم المعاني والبيان والبديع :

فالمتفق عليه أن هـذه العلوم بالنسبة للآثار الأدبية البلاغية كالمنطق بالنسبة للعلوم الفلسفية . وأى قيمة لكاتب لا يعرف كيف يفرق بين كلام جيد وآخر ردىء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، مع ما فى هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة الى فهم كلام الله وحديث رسول الله اللذين منهما يستمد الكاتب شريف المعانى ، وفصيح الألفاظ . وقبيح بالكاتب المشار اليه فى حسن الكتابة ألا يدرك اعجاز القرآن الا من الجهة التى يدرك بها الزنجى أو النبطى ، وأن يستدل عليه بما يستدل الجاهل الغبى .

على أن البلاد انقسمت فى التعرف الى البلاغة بعلومها الثلاثة المذكورة قسمين كما سبق أن أشرنا الى ذلك من قبل : فهناك الديار المصرية التى لم يحتج أهلها الى هـذه العلوم . لأنهم يدرونها بطبعهم ، ويعرفونها بذوقهم فهم يدركون بطابعهم ما أفنت فيه العلماء زهرة أعمارهم .

وأما أهل بلاد الشرق فلهم يد طولى فى هذه العلوم . ومنهم الرمانى والجرجانى . ولكن أكثر اعتماد أهل زماننا على (تلخيص المفتاح) للقاضى جلال الدين القزوينى .

وأما انتفاع الكاتب بهذه العلوم فيأتى كذلك من وجهين .

أولهما — ان من فاتته هـذه العلوم وكان ناقصا فيها نقصت صناعته بقدر ما ينقص من ذلك .

وثانيها — استخدام المصطلحات الخاصة بهذه العلوم الثلاثة على سبيل التورية على طريقة الكتاب فى التورية بمصطلحات النحو وغيره من العلوم .

٥ ـ واما القرآن والحديث :

فهما المعين الذى يستقى منه الكاتب معانيه وألفاظه . واذا وضعت الآيات فى أماكنها اللائقة بها من الرسالة التى يكتبها الكاتب صار الكلام من الفخامة والرونق ما شبهه فيه.

وللانتفاع بالقرآن والحديث فى ذلك طريقان :

أولهما : الاستشهاد وأين قول العرب (القتل أنفى للقتل) — لمن أراد الاستشهاد فى هذا المعنى — من قوله تعالى « ولكم فى الحياة قصاص » .

ثانيهما : التضمين والاقتباس — وقد سار (الصابى) على هذا الأسلوب من الاعتماد على آى القرآن فى خـلال كلامه دون الاشارة الى ذلك . والاقتصار على اقتباس معناه.

وهنا أتى القلقشندى بعشرات النماذج مما أنشـأ الكتاب السابقون ، وقاله الخطباء المفوهون ومما قام هو بانشائه كذلك — وكل هذا على طريقة المصريين التى أشرنا اليها مرارا — وهى الاعتماد فى فهم البلاغة وتذوقها على الاكثار من الشواهد بدلا من الاكثار من الأصول والقواعد .

* * *

وكنا نود من القلقشندى عند الحديث عن هذا النوع من أنواع البلاغة — وهو تضمين القرآن والحديث أن يشير الى الكتاب الذين مهدوا الطريق الى هـذا النوع البلاغى — ومن أهمهم ابن العميد — والى الكتاب الذين بلغوا فيه العنـاية التى ما بعـدها عناية — ومن أهمهم عبد الرحيم البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل . ان كلا من ابن العميد والقاضى الفاضل قد أفلح فى هذا النوع البديعى المعروف (بنثر القرآن والحديث) — وهو أن يأتى الكاتب فى ثنايا رسالته بألفاظ من القرآن أو الحديث يدخلها فى كلامه وكأنها من انشائه .

جاء فى رسالة اخوانية للقاضى الفاضل قوله : « أهلا بطلعته فانها فى غربنا مشرقة ، وبخواطره فانها لا تدخل من باب واحد ولكن تدخل من أبواب متفرقة » ومثل هذا كثير فى أسلوب هذين الرجلين ، وان كان الأخير قد أكثر منه حتى عرف به .

* * *

وكعادة القلقشندى أشار الى الكتب التى يجمل بالكاتب أن يحفظها بعـد ذلك . وهى كتاب الشهاب فى المواعظ والآداب (للقضاعى) ، وان كان العمدة فى ذلك بلا منازع هو ضياء الدين بن الأثير فى كتابة المثل السائر ..

ثم قال المؤلف : وكنت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر تدخل كلها فى استعمال

الكاتب . وما زلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين حتى دار على خاطرى أكثر من خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ عنى منه شيء .

٦ ـ واما خطب الخطباء ورسائل البلغاء :

فانها مستودعات البلاغة ومجامع الحكم . قال أبو هلال العسكرى « والرسائل والخطب متشابهان » فى السهولة والعذوبة ، متشابهان كذلك فى الفواصل ، وتستطيع أن تجعل من الرسالة خطبة ومن الخطبة رسالة وذلك فى أيسر كلفة » .

ثم نصح المؤلف جمهرة الكتاب أن يحفظوا خطب الخطباء فى الجاهلية وخطب رسول الله والخلفاء الراشدين فى الاسلام . ثم خطب الحسن بن على وعتبة بن أبى سفيان وزياد بن أبيه وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفى وقطرى بن الفجاءة . وأتى بنماذج كثيرة من خطب هؤلاء جميعا .

ثم أتى القلقشندى بطائفة أخرى من رسائل الصدر الأول ومكاتباتهم وأحاديثهم ومنها ما موضوعه المحاورة . كالذى دار بين على وبين معاوية ، وكالذى دار بين جعفر المنصور ومحمد بن عبد الله بن الحسن ، وكالذى دار كذلك بين أرسطو والاسكندر ، وكالذى كتب به أبرويز من ملوك الفرس الى ابنه شيرويه .

ومن تلك الأحاديث ما موضوعه المرافعة كالحديث الذى

أثر عن عائشة أم المؤمنين انتصارا لأبيها حين بلغها أن قوما قد تناولوه . وهو الحديث الذى أوله : أبى ! وما أبيّه !

ومن هـذا الضرب الأخـير حديث (أمّ الخـير) و (الزرقاء) يوم صفين انتصارا منهما لعلى بن أبى طالب . والحديثان من أبلغ ما عرفه العرب من كلام .

ان حفظ الكاتب لطرف من أحاديث الخطباء ورسائل البلغاء يجعل له رصيدا ضخما من الألفاظ والمعانى يأخذ منه متى شاء ويعبر به عن المعنى الواحد بطرق كثيرة من طرق الابانة . وهذا المنهج هو أحد أنواع الاعجاز فى القرآن . فان القصة الواحدة تتكرر فيه مرارا فى سـور متعددة . ترد فى كل سورة بلفظ وتركيب غير الذى وردت به فى سورة أخرى مع استبقاء حد البلاغة ونهاية أمـد الفصاحة .

وكعادة القلقشندى كذلك أشار الى بعض الكتب التى يرجع اليها . ومنها كتاب (الاقتداء بالأفاضل) لعلى بن حمزة بن طلحة .

٧ ـ واما الشـعر :

فقد أجمع النقاد وأهل البصر بالكلام على أن كلا من (الحماسة) و (المفضليات) و (الأصمعيات) و (ديوان هذيل)ثم ديوان (جـرير) و (الفرزدق) و (الأخطل) و (أبى تمام) و (مسـلم بن الوليد) و (البحـترى) و (ابن الرومى) و (المتنبى) ليس بعدها شىء فى عالم

الشعر . فمن حفظها أو أكثر من النظر فيها فانه يفيد منها فى الكتابة فائدة ليس الى انكارها من سبيل .

وقد كان الصدر الأول من بلغاء العربية يعنون بالشعر عناية لا تدانيها عناية . منهم عمر بن الخطاب وأبو بكر وعثمان وعلى . وكان الامام الشافعى يحفظ ديوان هذيل كله . وكان غيره من الأئمة يحفظ أكثر من ديوان . وقد أتى القلقشندى باخبارهم جميعا .

أما وجه الانتفاع بالشعر فى الكتابة فيكون على ثلاث حالات :

الأولى — الاستشهاد .

الثانية — التضمين .

الثالثة — الحل : وهو أن يعمد الكاتب الى الأبيات من الشعر فيحلها من عقال الشعر ، ويسبكها فى كلامه المنثور بألفاظ تشابه أو تخالف ألفاظ الشاعر .

ولقد أتى المؤلف بجميع الطرق المعروفة فى حل الشعر . واعتمد فى ذلك على المثل السائر لابن الأثير . ولعل من أصعب الطرق التى نبه اليها هذا الأخير تلك الطريقة التى يأخذ فيها الكاتب المعنى الشعرى فيكسوه ألفاظا من عنده ويصوغه بلفظ غير لفظه كما فى قول المتنبى :

ان القتيل مضرجا بدموعه

مثل القتيل مضرّجا بدمائه

نثره ابن الأثير فقال :

« والقتيل بسيف العيون كالقتيل بسيف المنون . غير ان ذلك لا يجرد من غمده ، ولا يقاد صاحبه بغمده » .

ثم عاد ابن الأثير فنثره بطريقة أخرى قائلا :

« دم المحب ودم القتيل متفقان فى التشبيه والتمثيل . ولا نجد بينهما بونا سوى انهما مختلفان لونا » .

(وأما التضمين) فامام الكتاب فى هـذا النوع من أنواع البديع هو وحده القاضى الفاضل . ومن أجل ذلك أكثر القلقشندى من ايراد النماذج الفاضلية التى ضمّن فيها الكاتب البيت الكامل من الشعر ، والنماذج التى ضمّن فيها نصف بيت فقط وهكذا .

وللقاضى الفاضل رسائل كاملة على النحو الآتى :

وصل من الحضرة الفلانية :

كتاب به ماء الحياة ونفعه

حيا كأنى اذ ظفرت به الخضر

فوقفت منه على :

عقود هى الدر الذى أتت بحره

وذلك مالا يدعى مثـله البحـر

وجدّد لنا أشواقا :

يمرّ بها ثوب الجديدين [1] دائما

فيبلى ولا تبلى وان بلى الدهر

وهكذا الى آخر الرسالة .

---

(١) الجديدين الليل والنهار .

ولهذا الكاتب — وهو القاضى الفاضل — رسائل كاملة على النحو الآتى :

وصل كتاب مولاى بعدما (أجاب المنادى للصلاة فأعتما)

فلما استقر لدىّ (تجلى الذى من جانب البدر أظلما)

فقرأته (بعين اذا ما استمطرت أمطرت دما)

وساءلته (فساءلت مصروفا عن النطق أعجما)

ولم يرد جوابا (وماذا عليه لو أجاب المتيما)

وهكذا الى آخر الرسالة .

٨ ـ واما الحكمة والمثل :

فانهما من المواد الأصيلة فى اللغة . وهما يمتان الى عدة مصادر . منها القرآن الكريم ، ومنها الشعر القديم . ومنها الحكم التى وضعت على ألسنة الحيوان . ومن هذه الأخيرة قول على بن أبى طالب حين رأى خلاف أصحابه وتخاذلهم «انما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » .

يريد : انما خذلت أنا يوم خذل عثمان بن عفان .

وأما حكاية هذا المثل فهى كما يلى :

اصطحب أسد وثور أحمر وثور أبيض وثور أسود فى غابة . فقال الأسد للثورين الأحمر والأسود : هذا الأبيض يفضحنا بلونه ويطمع فينا من يقصدنا ، فلو تركتمانى آكله آمنّا فضيحة لونه . فأذنا له فى ذلك فأكله . ثم قال الأسد للثور الأحمر : هذا الأسود يخالف لونى ولونك .

ولو بقيت أنا وأنت ظنك من يراك أسدا مثلى . فدعنى آكله . فسكت عنه فأكله . ثم قال الأسد للثور الأحمر : لم يبق الا أنا وأنت وأريد أن آكلك . فقال له : ان كنت فاعلا ولابد فدعنى أصعد تلك الهضبة وأصيح ثلاثة أصوات : فقال الأسد : افعل ما تريد ، فصعد وصاح ثلاثة أصوات :

« ألا أنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » .

فصارت مثلا ، وأمثال هذه الحكاية على ألسنة الحيوان كثيرة فى الأدب العربى . وطرق الانتفاع بهذه المادة من مواد العربية معروفة . وقد أكثر القلقشندى من الاتيان بنماذج منها تعليما للكاتب وتزويدا له بالمادة التى تعين على الكتابة .

٩ ـ واما عادات العرب :

فقد كان للعرب عادات فى الجاهلية وبقى من هذه العادات شىء فى الاسلام وقد جرى أبو العباس على تسمية عادات العرب فى الجاهلية باسم

الأوابد :

وهى طائفة من العادات أو الخرافات كان العرب يعتقدون فيها فى الجاهلية ثم أتى الاسلام فنهاهم عنها . وقد عدّ أبو العباس من هذه الأوابد أكثر من ثلاثة وثلاثين نوعا نذكر منها على سبيل المثال :

١ — الكهانة ، والزجر ، والطيرة ، والميسر ، والانصاب والازلام ، والمقصود بالأخيرة ان العرب كانوا اذا أرادوا

فعل أمر من الأمور أخذوا أقداحا مكتوبا على بعضها : افعل ، وعلى بعضها الآخر : لا تفعل أو على بعضها : نعم ، وعلى بعضها الآخر : لا ، ثم يضربون تلك الأقداح فما خرج لهم عملوا به) .

٢ — ثم من تلك العادات القديمة فى الجاهلية : البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

فالبحيرة (ومعناها ان العرب كانوا يعتقدون ان الناقة اذا أنتجت خمسة أبطن فعليهم أن يعمدوا الى الخامس منها فيشقوا أذنها ويتركوها فلا يجزّ لها دبر ولا يحمل عليها شيء ولا ينتفع بها الا الرجال دون النساء) .

والسائبة (ومعناها أن الرجل منهم كان يسيب البهيمة فتكون حراما طول الدهر) .

والوصيلة (فقد كانت الشاة اذا ولدت سبعة أبطن عمدوا الى السابع منها فان كان ذكرا ذبح ، وان كانت أنثى تركت فى الغنم . وان كانت توأما من ذكر وأنثى معا قيل : وصلت أخاها فحرما جميعا واقتصرت منافعهما على الرجال دون النساء) .

والحام (أى ان الفحل اذا صار من أولاده عشرة أبطن قالوا : حمى ظهره فيترك ولا يحمل عليه شيء ولا يركب ولا يمنع ماء ولا مرعى) .

ولما جاء الاسلام حرم كل ذلك حيث جاء فى القرآن

(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) الآية .

٣ — ومن تلك العادات القديمة عادة وأد البنات وقتل الأولاد خشية الاملاق . وقد نهى القرآن عن كل ذلك .

٤ — ثم من تلك العادات كذلك تعليق سن الثعلب وسن المهرة اذا خيف على الصبى من نظرة أو خطفة . وتعليق كعب الأرنب خوف الحسد ، وتعليق الحلىّ على المصاب بلدغ العقرب . ومنها مسح المطارف عين المطروف وذهاب الخدر من الرجل بذكر أحب الناس اليه . ومنها شق الرداء عند المصيبة ، ورمى سن الضبى اذا أثغر فى عين الشمس ، ومنها جز رأس الأسير ، وخضاب نحر الفرس ، ومنها وطء القتلى (بمعنى ان المرأة التى لا يعيش لها ولد اذا وطئت قتيلا شريفا عاش لها ولدها) .

ومنها كذلك عادة تسمى الهامة : (زعمت العرب أن الانسان اذا قتل ولم يطلب بثأره خرج من رأسه طائر يسمى الهامة وصاح : اسقونى اسقونى . ولم يزل على ذلك حتى يؤخذ له بالثأر) .

وقد تسأل وما الفائدة التى تعود على كاتب الانشاء من الوقوف على هذه المعلومات ؟ والجواب عن ذلك ان له فوائد من أهمها فهم القرآن من جانب ، والشعر الجاهلى من جانب آخر . وأنت تعلم ان القرآن والنثر وصفا الحياة الجاهلية أدق وصف . فمن لم يكن له علم تام بهذه المعلومات

صعب عليه فهم القرآن أحياناً وفهم الشعر الجاهلى أحياناً أخرى :

خذ لذلك مثلا قول الشاعر العربى القديم :

يا عمرو ألا تدع شتمى ومنقصتى

أضربك حتى تقول الهامة : أسقونى !

فكيف يفهم كاتب الانشاء هذا البيت مالم يعرف ان العرب كانوا يعتقدون ان القتيل اذا لم يؤخذ بثأره خرج من رأسه طائر يسمى (الهامة) يقول : اسقونى اسقونى ! حتى يؤخذ له بهذا الثأر ؟

* * *

غير ان من عادات العرب فى الجاهلية ما أبقى عليه الاسلام ومن ذلك على سبيل المثال :

النيران :

وقد عدّ القلقشندى منها ثلاث عشرة نارا منها على سبيل المثال :

١ — نار المزدلفة : وهى من شعائر الحج . وأول من أوقدها قُصَىّ بن كلاب .

٢ — نار الحلف : كانوا اذا أرادوا عقد حلف أوقدوا النار وعقدوا الحلف عندها .

٣ — نار الحرب : كانوا اذا أرادوا حربا أو توقعوا قدوم جيش أوقدوا النار على أعلى الجبل ليعلم أصحابهم بذلك .

٤ — نار الصيد : وهى نار توقد للظباء لتغشاها اذا نظرت اليها .

٥ — نار الأسد : كانوا اذا خافوا الأسد أوقدوا نارا يعتقدون انه متى رآها رجع عن قصده .

٦ — نار القرى : وهى نار توقد ليلا ليراها الأضياف ويهتدوا اليها .

٧ — نار الفداء : كان الملوك منهم اذا أسروا نساء قبيلة من القبائل خرج اليهم سادة هـذه القبيلة ليـلا ليفتدوا نساءهم .

ثم من العادات العربية التى أبقى عليها الاسلام عادة :

الأســواق :

ومن أشهرها كما ذكر أبو العباس :

سوق دومة الجندل ، وسوق هجر ، وسوق عمان ، وسوق ارم ، وسوق حضرموت ، وسوق صنعاء ، وسوق عكاظ . وكانت هذه الأخيرة تقام فى الأشهر الحرم . وكانوا يتناشدون فيها الأشـعار . ومن له أسير سعى فى فدائه ، ومن له مظلمة رفعت الى من له الحكومة . وكانت الحكومة فى بنى تميم . حتى اذا فرغ العرب من كل ذلك وقفوا بعرفة وقضوا مناسك الحج ثم عادوا الى أوطانهم سالمين غانمين .

١٠ ـ واما أيام العرب ومفاخرهم وانسابهم ووقائعهم فى الجاهلية:

فبها تستكمل ثقافة الكاتب العربية . وعلم الأنساب من العلوم الانسانية الأصيلة التى تعنى بها الأمم العريقة . بل ان العلوم الحديثة المعروفة كعلم النفس وعلم الأجناس وعلم الاجتماع تؤيدها . وليس فى استطاعة أحد أن يدرس

الشعر الجاهلى والتاريخ العربى الاسلامى مالم يكن عارفا بعلم الأنساب معرفة جيدة .

يقول الأمير شكيب أرسلان : « وكما أن العالم المتمدن يعنى بتدريس جغرافية البلاد من جهة أسمائها ومواقعها وحاصلاتها وعدد سكانها فانه يجب أن يعنى بمعرفة أنساب أولئك السكان وطبائعهم وعاداتهم وميزة كل جماعة فيهم اذ أن من الحقائق العلمية ان الأخلاق والميول والنزعات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية والدماء الجارية فى العروق .. وكل محاولة فى تنمية القرائح الطيبة والمواهب الالهيـــة لا يمكن أن يثمر ثمرة اذا جاء معاكسا للاستعداد الفطرى ، وهذا الاستعداد الفطرى هو أقوى دليل على اصالة علم الأنساب » . هذا ومن الثابت أن لهذا العلم فوائد دينية وسياسية واجتماعية وعلمية .

ثم ان المدار فى علم الأنساب على السماع . لأن العرب لم يكونوا يعرفون الكتـــابةِ والقـــرَاءة الا نادرا . وأول ما يحتاج الكاتب الى معرفته من ذلك (عمـــود النسب النبوى) من حيث أن سائر الأنساب تتعلق به وترجع اليه . ثم ينتقل من ذلك الى معرفة أنساب العرب عامة . وانقسام القبائل الى شعوب ، والشعوب الى عمائر ، والعمائر الى بطون ، والبطون الى أفخاذ ، والأفخاذ الى فصائل وهكذا .

وعلى الكاتب أن يعرف أن الرجل قد ينضم الى قبيلة غير قبيلته عن طريق الحلف أو الموالاة فينتسب اليهم . واذا

كان الرجل فى قبيلة ثم دخل فى قبيلة أخرى جاز أن ينسب اليهما معا .

ثم ان العرب ثلاثة أقسام : العرب البائدة ، والعرب العاربة والعرب المستعربة .

فمن البائدة عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، ومدين .

والعاربة أولاد يعرب بن قحطان وبنو جرهم بن قحطان .

والمستعربة بنو اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام . سموا بذلك لأن لسان اسمعيل كان العبرانية أو السريانية . فلما نزل جرهم من القحطانية بمكة المشرفة تزوج منهم . وتعلم هو وبنوه العربية من جرهم هذا ، فسموا لذلك المستعربة . وجميع المستعربة من ولد اسماعيل هم من ولد عدنان .

وهناك حزب رابع من العرب يقال لهم (البربر) . وقد اختلفت الناس فى نسبتهم اختلافا كبيرا : فمن قائل انهم من العرب ومن قائل انهم ليسوا من العرب . ومنهم ملوك المغرب والخلفاء الفاطميون .

ويطول بنا القول لو أردنا أن تتتبع هنا أنساب العرب فى أصولها وفروعها وفروع الفروع وهكذا .

والخلاصة فى ذلك ان قبائل العرب ترجع الى أصول ثلاثة وهى : العدنانية ، والقحطانية ، والقضاعية . ولا يوجد عربى الى يومنا هذا الا وينتسب الى احداها .

على أن من المؤرخين المحدثين — ومنهم الأستاذ جواد على فى كتابة تاريخ العرب قبل الاسلام — من ذهب الى

أن تقسيم العرب الى عدنانية وقحطانية لم يعرف الا بعد الاسلام . أما العصر الجاهلى فلم يعرف شيئا من ذلك . وقال ان لهذا التقسيم أسبابا سياسية وجدت فى العصر الاسلامى ، ومن هذه الأسباب بطبيعة الحال الصراع بين الأحزاب السياسية فى عصر الخلافة الأموية والخلافة العباسية ثم ظهور ما يسمى بالنزعة الشعوبية المعروفة فى التاريخ .

ولقد كانت أنساب العرب موضع عناية العلماء والمؤرخين منذ بداية العصر الاسلامى الى زمن المؤلف . ولا ننسى ان لأبى العباس القلقشندى كتابا كبيرا باسم (نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب) تولى تحقيقه فى أيامنا هذه الأستاذ الأبيارى .

وكذلك الشأن فى أنساب العجم — وهم الفرس والترك والروم وغيرهم فقد تتبعها أبو العباس فى موسوعته بالقدر الذى يعرفه من هذه الأنساب على اختلافها .

(وأما مفاخر العرب) فقد روى منها أبو العباس شيئا كثيرا . من ذلك ما جاء على لسان رؤساء الوفود التى وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة . ومنها وفد بنى تميم الذين طلبوا أن يفاخروا رسول الله بما لهم من مآثر فى الجاهلية فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن قال لحسان بن ثابت « قم فأجب » فأنشد

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم

اذا تفاوتت الأهواء والشيع

وحديث المفاخرات بين العرب حديث طويل تمتلىء به كل كتب الأدب المعروفة . والتاريخ يحدثنا عن هذه المفاخرات انها دامت بعد الاسلام مدة ليست باليسيرة مع الرغم من أن الاسلام هدم العصبيات . ومن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبة الوداع : « ليس لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود فضل الا بالتقوى . كلكم لآدم وآدم من تراب » .

أما (أيام العرب) فكاتب الانشاء بحاجة الى معرفة ذلك ومعرفة الأشعار التى قيلت فى كل يوم منها . والفوارس الذين اشتهروا بها . فقد ترد عليه رسالة فيها استشهاد ببعض هذه الأشعار ، أو فيها اشارة الى يوم من تلك الأيام وواقعة من تلك الوقائع واذ ذاك يستطيع الكاتب أن يجيب على هذه الرسالة .

قال أبو العباس ومن أشهر أيام العرب :

١ — يوم خزاز (اسم جبل بين مكة والبصرة) كانت الحرب فيه بين بنى ربيعة الفرس وقبائل اليمن ، وغلب بنو ربيعة ، وكان قائدهم كليب بين ربيعة ملك بنى وائل .

٢ — ويوم عين أُباغ (بضم الهمزة) وقعت الحرب فى هذا المكان بين غسان ولخم ، وكان قائد غسان الحارث الذى طلب دروع امرىء القيس وكان قائد لخم المنذر بن ماء السماء ، وانهزمت لخم فى هذه الموقعة وقتل المنذر .

٣ — ويوم مرج حليمة بين غسان ولخم أيضا وفيه عظم الغبار حتى احتجبت الشمس .

٤ — ويوم بين كنانة وسليم ، انتصرت فيه سليم على كنانة وقتل ربيعة بن مكدم فارس كنانة ومضرب الأمثال فى الشجاعة .

٥ — ويوم كلاب الأول (والكلاب بضم الكاف موضع بين البصرة والكوفة) ، كان بين الأخوين شراحيل وسلمة ابنى الحارث بن عمرو الكندى وانتصر فيه سلمة وهو الأصغر وانتصرت معه وائل على بكر وائل التى كانت معه شراحيل.

٦ — يوم كلاب الثانى : بين بكر ووائل .

٧ — ويوم أوراة بن المنذر بن امرىء القيس ملك الحيرة ومنذر وائل .

٨ — ويوم رحرحان (اسم جبل بالحجاز) بين الأحوص ابن جعفر بن كلاب وبين بنى دارم وبنى تميم هزم فيه بنو تميم .

٩ — ويوم (ذى قار) سنة أربعين من مولد رسول الله صلعم وقيل يوم بدر .

وكان من حديث ذلك اليوم أن كسرى ابرويز غضب على النعمان بن المنذر ملك الحيرة فحبسه فهلك فى الحبس . وكان النعمان قد أودع دروعه وسلاحه عند هانىء بن مسعود البكرى فأرسل ابرويز يطلبها من هانىء فقال هذه أمانة والحر لا يسلم الأمانة . وكان ابرويز لما أمسك

النعمان جعل مكانه فى ملك الحيرة اياس بن قبيصة الطائى .
فاستشار ابرويز اياسا فقال له اياس : المصلحة أن تتغافل عن هانيء حتى يطمئن وتتبعه فتدركه ، فقال ابرويز : انه من اخوانك لا تألوه نصحا . فقال اياس : رأى الملك أفضل، فبعث ابرويز بالمرزبان فى الفين من الأعاجم ومعهم ألف من بهراء . فلما بلغ بكر بن وائل خبرهم أتوا مكانا من بطن ذى قار . ووصـــل اليهم الأعاجم واقتتلوا ساعة فانهزم الأعاجم هزيمة قبيحة .

والذى لا شك فيه أن معرفة أيام العرب ووقائعهم تفيد الكاتب فى مهنة الشعر من جهة ، والرد على المكاتبات التى بها اشارة الى هذه الأيام من جهة ثانية . خذ لك مثلا قول أبى تمام الطائى :

اذا افتخرت يوما تميم بقوسـها
وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذى قار أحالت سيوفكم
عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

فكيف يدرك الكاتب لهذه الأبيات معنى مالم يكن عارفا بهذه المفخرة التى تشير اليها هذه الأبيات وخلاصتها ما يأتى :

« وفد حاجب بن زرارة التميمى على كسرى فى سنة جدب . فقال له حاجب كسرى : من أنت ؟ قال : رجل من العرب . فلما دخل على كسرى قال له : من أنت ؟ قال : سيد العرب ! فقال له كسرى : ألم تقل بالباب انك رجل

من العرب ؟ قال : كنت بالباب رجلا منهم . فلما حضرت بين يدى الملك سدتهم . فسرّ كسرى من اجابته وملا فمه درا . ثم شكا اليه الرجل جدب الحجاز وطلب منه حمل ألف بعير برا على أن يعيد قيمتها . فقال كسرى : وما ترهننى عن ذلك ؟ قال : قوسى . فاستعظم همته وقال له : قبلت . وأعطاه حمل ألف بعيرا برا . ومات حاجب فأحضر بنوه المال بعد موته وطلبوا منه قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك .

* * *

تلك هى الثقافة العربية بعناصرها العشرة من شعر ونثر وقرآن ونحو ذلك . وقد أوجب العلماء والنقاد على كاتب الديوان أن تكون له معرفة تامة بهذه الثقافة . بل ان ابن قتيبة ندد بالكتاب الذين أخذوا يستعيضون عن الثقافة العربية الخالصة بالثقافات الأجنبية التى كانت تؤلف عنصرا هاما مما سمي اذ ذاك « بالثقافة الاسلامية » . وهذه العناصر الأجنبية هى الثقافة الفارسية من جانب والثقافة اليونانية من جانب آخر . وما زال العلماء والنقاد يولون الثقافة العربية الخالصة هذه العناية حتى كان عصر أبى العباس القلقشندى فرأيناه أشد تشيعا للثقافة العربية الأصيلة من جميع من سبقوه . وبهذا الصنيع حمي أبو العباس وغيره من كتاب الموسوعات ظهر الثقافة العربية التى تعرضت للضياع لولا ان الله قيض لها أناسا منهم صاحب هذه الموسوعة المسماة « صبح الأعشى » .

المقالة الثانيَة

الفصل الثامن

ثقافة الكاتب الجغرافية والتاريخية

قصر أبو العباس مقالته الثانية على الكلام عن الثقافتين الجغرافية والتاريخية اللتين يحتاج اليهما كاتب الانشاء . واستغرق الحديث عن ذلك بعض المجلد الثالث وجميع المجلد الرابع وطرفا من المجلد الخامس — ووقع هذا كله فى أكثر من ألف ومائتى صفحة من صفحات موسوعته صبح الأعشى .

تحدث المؤلف حديثا غير طويل عن المعلومات الجغرافية اللازمة لكاتب الانشاء وذلك تحت هذا العنوان الذى عرفت به الجغرافيا فى ذلك الزمان ، وهو « المسالك والممالك » . بل ان مؤلف الموسوعة جعل للمقالة الثانية كلها هذا العنوان وهو « المسالك والممالك » . بالرغم من أن هذا الحديث الجغرافى لم يشغل حيزا يذكر من هذه المقالة التى قسمها الى أبواب على النحو الآتى :

الباب الأول : فى وصف الأرض وكيفية استخراج البلدان ونحو ذلك .

الباب الثانى — فى طبقات الخلفاء ابتداء من الخلفاء الراشدين ، فخلفاء بنى أمية ، فخلفاء بنى العبـاس ، ثم الخلفاء الذين ظهروا بمصر من الفاطميين والعباسيين .

الباب الثالث وبه خمسة فصول :

أولها — عن الديار المصرية منذ الفتح الاسلامى الى زمن المؤلف .

وثانيها — عن الديار الشامية .

وثالثها — عن البلاد الحجازية .

ورابعها — عن الممالك المحيطة بالديار المصرية من كل الجهات . فمن الشرق ومن الشمال مملكة ايران ومملكة طوران مما يقع تحت يد أولاد جانكيز خان . ثم بلاد اليمن وبلاد البحرين وبلاد اليمامة ومملكة الهند والسند .

ومن الجنوب بلاد السودان والنوبة وبلاد الحبشة .

ومن الغرب مملكة تونس والمغـرب الأقصى ومملكة قشتالة والبرتغال وبرشلونة ومملكة بيزة مما يلى قشالة .

وخامسها — عن الممالك التى بأيدى المسلمين من بلاد الروم والممالك التى بأيدى النصارى من هـذه البلاد . فأما ما بأيدى المسلمين فبلاد الروم ما بين الخليج القسطنطينى وبلاد أرمينية . وأما ما بأيدى النصارى قسطنطين ومملكة الألمان ومملكة البنادقة ومملكة الجنويين ومملكة روما ، ومملكة الفونج القـديمة ، ومملكة الجـلالقة ، ومملكة اللومبارد .

وصف أبو العباس جميع هذه الممالك والأقطار . وأمدّ كاتب الانشاء بكل ما يلزمه من المعلومات التاريخية الخاصة بكل مملكة منها على حدة .

* * *

ولنا أن نتبع المؤلف فى رحلته هذه على النحو الآتى : ففى (الباب الأول) من هذه الأبواب قصر الكلام على ما سماه (وصف الأرض) وفيه تحدث عن الأرض فقال انها كروية الشكل والماء محيط بها من جميع النواحى . ثم تحدث عن جهات الأرض الأربع وهى الشمال والجنوب والشرق والغرب . ثم ذكر أن خط الإستواء يقسم الأرض الى شمال وجنوب . وعند خط الاستواء يستوى النهار والليل فى جميع فصول السنة وهناك خط آخر يقسم الأرض الى شرق وغرب ، وتصير الأرض بهذين الخطين المتقدمين أربعة أرباع ثم ذكر كذلك ان كلا من هذين الخطين منقسم الى مائة وثمانين درجة . ومقدار درجة واحدة لمقدار ما بين الفسطاط ودمياط .

ووصف المؤلف كل واحد من هذه الأرباع الأربعة المتقدمة واستطاع التمييز بين المعمور منها وغير المعمور ، وحدد ذلك بالدرجات الطولية والعرضية .

ثم انتقل المؤلف من ذلك الى ما اصطلح الناس عليه فى زمانه من تقسيم الكرة الأرضية الى سبعة أقاليم . وأخذ يحدد كل اقليم منها بدرجات طولية وأخرى عرضية .

ودخل بعد ذلك فى الحديث عن البحار فذكر منها ما يلى :

البحر المحيط — ويسمى بحر الأوقيانوس (يقصد المحيط الأطلسى أو جزءا منه على الأقل .

بحر الروم — وهو ما نطلق عليه فى الوقت الحاضر اسم البحر الأبيض المتوسط .

بحر القرم — ومن أسمائه كذلك (بحر بنطش) و (البحر الأسود) و (البحر الأرمنى) وهو متصل بحر الروم من شماليه . وأوله الخليج القسطنطينى (يريد خليج البسفور) .

البحر الهندى — (يريد المحيط الهندى) .

بحر القلزم — (وهو المعروف فى أيامنا هـذه بالبحر الأحمـر) .

وهنا يذكر المؤلف ان بعض الملوك فكر فى أن يصل بحر الروم ببحر القلزم فلم يتيسر له ذلك لارتفاع القلزم وانخفاض الروم . ثم جاء الخليفة العباسى الرشيد ففكر فى أن يصل البحرين فثبطه يحيى بن خالد وقال له : ان عمر بن الخطاب منع عمرو بن العاص من تحقيق ذلك .

ثم من البحار المنتشرة فى أرجاء الأرض ما لا يتصل بالمحيط . ومنها على سبيل المثال :

بحر الخزر — (ويريد بحر قزوين) وعلى ساحله الجنوبى تقع بلاد الجبل والديلم وعلى ساحله الشرقى بلاد جرجان وخوارزم وعلى ساحله الشمالى بلاد الترك والخزر .

واتنقل المؤلف من ذلك الى بيان الطريقة التى تتبع فى استخراج جهات البلدان قال :

اذا كنت فى بلد وأردت أن تعرف جهة بلد آخر فعليك أن تعرف طول البلد الذى أنت فيه وعرضه وطول البلد الآخر وعرضه . وتقابل بين الطولين وبين العرضين . فان كان ذلك البلد من بلدك مع مساواة له فى الطول فهو عنك من جهة الجنوب . وان كان أطول من بلدك مع مساواته لك فى العرض فهو عنك فى جهة الشرق وهكذا .

* * *

و (الباب الثانى من المقالة الثانية)

تحدث المؤلف عن طبقات الخلفاء على النحو المعروف فى كتب التاريخ .

ثم فى (الباب الثالث من المقالة الثانية)

تحدث المؤلف عن :

نظم الادارة فى مصر

وهى نظم معقدة فى مجموعها ومنها :

١ — (نظام أمراء الجيوش) وهم مراتب ثلاث : مرتبة الأمراء المطوقين الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب فى أعناقهم. ومرتبة أرباب القصب — وهم الذين يركبون فى المواكب بالقضب الفضية تكون بأيديهم . ومرتبة الأمراء العاديين ممن لم يؤهلوا لحمل أطواق أو لحمل قضب .

٢ — (نظام خواص الخليفة) : وهم أنواع ثلاثة :

الأول — الأستاذون وأجلهم المحنكون لأن عمائمهم كانت الى احناكهم ، وكان منهم أرباب الوظائف الخاصة بشخص الخليفة . الثانى : صبيان الخاص وعددهم خمسمائة . الثالث : صبيان الحجر (جمع حجرة) وعدتهم خمسة آلاف لكل واحد منهم حجرة خاصة ومتى طلبوا لمهم لم يجدوا عائقا .

٣ — (نظام طوائف الجند) وهم عدة كثيرة تنسب كل طائفة منهم الى خليفة من الخلفاء ، فهناك الحافظين نسبة الى الخليفة الحافظ ، والآمرين نسبة الى الخليفة الآمر ، والأفضلية نسبة الى الوزير الأفضل وهكذا .

٤ — (نظام أرباب السيوف فى الخلافة الفاطمية) . ولهم تسع وظائف وهى :

وظيفة الوزارة — وهى الوظيفة العليا فى الدولة . وهى اما وزارة تفويض ، واما وزارة وساطة أو تنفيذ . والأولى هى الأهم . وأول من خوطب باسم الوزارة يعقوب بن كلس وزير العزيز وبدر الجمالى وزير المستنصر .

وظيفة صاحب الباب — وهى تلى الوزارة ويقال لها الوزارة الصغرى ، وهو الذى ينظر فى المظالم اذا كان الوزير صاحب قلم . أما اذا كان الوزير صاحب سيف كان هو الذى ينظر فى المظالم .

وظيفة الاسفهسلارية — وصاحبها اليه أمر الاجناد والتحدث فيهم وفى خدمته وخدمة صاحب الباب يقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم .

وظيفة حامل المظلة — وهو أمير جليل وله عندهم التقدم والرفعة .

حامل سيف الخليفة — وهو كسابقه .

حامل رمح الخليفة — يحمل رمحا صغيرا مع الخليفة فى المواكب كما يفعل كل من حامل المظلة وحامل السيف .

حملة السلاح — وتزيد عدتهم على ألفى رجل لهم اثنا عشر مقدما ، والأكابر منهم يندبون للأعمال السلطانية .

والى القاهرة — وله رتبة جليلة وحرمة موفورة ومكان فى موكب الخليفة .

ولاية مصر — (يريد الفسطاط) وهى دون ولاية القاهرة .

٥ — (نظام أرباب الأقلام فى الخلافة الفاطمية) وهى ثلاث مجموعات : —

المجموعة الأولى — أرباب الوظائف الدينية وهم :

قاضي القضاة — وله النظر فى الأحكام الشرعية ، وقد يجمع بين قضاء مصر والشام والمغرب . واذا كان الوزير صاحب سيف كان تقليده من قبله ، ويقف ببابه خمسة حجاب ولا يقوم لأحد وهو بمجلس الحكم مهما كان قدره.

داعى الدعاة — ويلى قاضي القضاة فى الرتبة . ووظيفته عندهم أنه يقرأ عليهم مذهب آل البيت بدار يقال لها (دار العلم) . ويأخذ العهد على من يعتنق هذا المذهب .

المحتسب — واذا صدر الأمر بتعيينه قرىء سجله على

المنبر ويده مطلقة فى الأمر بالمعــروف والنهى عن المنكر ، يشرف على الأسواق ويراقب الأخلاق العامة ، ولا يحال بينه وبين مصلحة يراها ويقيم عنه النواب بالقاهرة ومصر .

وكيل بيت المال — يفوض الخليفة الى صاحبها بيع ما يرى بيعه من كل صنف ويجيز له عتق المماليك وتزويج الاماء واعفاء الضمانات وانشاء ما يرى انشــاءه من البناء والمراكب .

النائب — وهو هنا نائب صاحب الباب الذى تقــدم ذكره لأنه ينوب عنه فى تلقى الرسل الواردين على الخليفة ، وينزل كلا منهم فى المكان اللائق به ويرتب لهم ما يحتاجون اليه ويستأذن لهم على الخليفة ، وليس له أن يأخذ من أحد من الرسل هدية ولا طرفة الا باذن .

القراء — وهم قراء الحضرة يزيدون على عشرة يأتون فى المجالس والمواكب بآيات مناسبة .

المجموعة الثانية — من أرباب الأقلام أصحاب الوظائف الديوانية وهم :

الوزير : اذا كان صاحب قلم ، كالوزير يعقوب بن كلس والحسن اليازورى وأبى سعيد التسترى وغيرهم .

صاحب ديوان الانشاء : وكان يشترط فيه أن يكون رجلا معروفا بالبلاغة وكان يلقب (بالأجل) ويقال له (كاتب الدست) ويستشيره الخليفة فى أكثر أموره وله حاجب من الأمراء الشيوخ .

صاحب التوقيع بالقلم الدقيق : ويلى صاحب ديوان الانشاء فى الرتبة . واذا جلس الوزير صاحب السيف للمظالم كان الى جانبه يوقع بما يأمر به فى المظالم ، وهو جليس الخليفة فى أكثر أيام الأسبوع يخلو به ويذكره ما يحتاج اليه من كتاب الله وأخبار السلف الصالح .

صاحب التوقيع بالقلم الجليل : وعمله تقييد ما يوقع به صاحب القلم الدقيق . فاذا رفعت الشكاوى والمظالم حملت الى صاحب القلم الرقيق فيوقع عليها بما يقتضيه أمر الخليفة أو الوزير . ثم ترفع الى صاحب القلم الجليل فيبسط ما أوجزه صاحب القلم الدقيق . ثم ترفع للخليفة ليوقع عليها .

المجموعة الثالثة : من أرباب الأقلام هم المشتغلون بديوان الجيش والرواتب وهم :

صاحب ديوان الجيش : ولا يكون الا مسلما . وبين يديه نقباء الأمراء يعرفون أحوال الجند : من الحياة والموت والحضور والغياب وغير ذلك . ومن هذا الديوان تخرج أوراق أرباب الجرايات .

صاحب ديوان الرواتب : وعنده أسماء أصحاب هذه الرواتب وأصحاب الجرايات ، وكذلك أخبار هؤلاء والأحوال التى هم عليها وبهذا الديوان أكثر من عشرة كتاب .

صاحب ديوان الاقطاع : وهو خاص باقطاعات الجند :

صاحب ديوان التحقيق : وعمل هذا الديوان المقابلة على الدواوين ومراجعة حساباتها .

صاحب ديوان المجلس : وهو المتحدث فى الاقطاعات . وهو يخرج المقررات من الضحايا وما ينفق فى عيد الفطر وفتح الخليج وفى الأسمطة فى رمضان وما يطلق من الغلال ويطلق من مرتبات أولاد الخليفة وما يبعث به الخليفة من الهدايا الى الملوك .

ثم أشار المؤلف بعد ذلك الى كل من :

صاحب ديوان الكسوة وصاحب ديوان الصعيد

وصاحب ديوان الطراز

وصاحب ديوان أسفل الأرض (يريد الوجه البحرى)

وصاحب ديوان الأحباس وصاحب ديوان الثغور

وصاحب ديوان الجهاد الخ ..

ثم اختتم حديثه عن وظائف الخلافة الفاطمية بالاشارة الى وظيفة (الطبيب) ووظيفة (الشاعر) ووقف عند هذا الحـد .

وأما وظائف الولاة أو عمال الخليفة فقد كان مجموعهم أربعا فقط وأولهم — والى قوص . وثانيهـم — والى الشرقية . وثالثهم — والى الغربيـة . ورابعهم — والى الاسكندرية .

وصف مصر

انتقل أبو العباس القلقشندى من ذلك الى موضوع من أهم الموضوعات التى عنى بها الكتاب والمؤرخون فى عصره وقبل عصره . وهذا الموضوع هو « وصف مصر » . فبدأ بذكر محاسنها التى امتازت بها عن سائر بلاد العالم . وكأن هذا الحديث نوع من تعريف الشباب المصرى ببلاده حتى يزداد حبا وتقديرا وعطفا على بلاده .

يقول علماء النفس فى وقتنا هذا ان تربية النزعة الوطنية فى الأمة لا تكون الا بتربية (الادراك) و (الوجدان) و (النزوع) فى نهاية الأمر .

فلكى يحب المصرى مصر ولكى يحب العراقى العراق ولكى يحب الفلسطينى فلسطين يجب عليه أن يعرف الكثير عن بلده وما لها من محاسن تمتاز بها عن سواها من البلاد . فاذا نمت له مرحلة الادراك على هذا النحو انتقل من ذلك الى مرحلة (الوجدان) أو الشعور بالعاطفة التى تربطه بهذا البلد بنوع خاص . فاذا تضافر الادراك والوجدان على هذا النحو كمل الشعور بحب الوطن الذى ينسب اليه الانسان . وكان من مظاهر كماله ونموه نزوع هذا المواطن الى عمل كل ما من شأنه رفعة الوطن والدفاع عنه فى وقت الحرب ووقت السلم معا .

لعل هذه الفكرة هى التى كانت تدعو أسلافنا من الكتاب والمؤرخين فى تلك العصور الى التأليف فى موضوع « فضائل البلاد » . فهذا كتاب فى فضائل مصر . وهذا كتاب فى فضائل الفرس . وهذا كتاب فى فضائل الشام وهكذا . ولقد كثر هذا النوع من الكتب فى العصرين الأيوبى والمملوكى وهما العصران اللذان لهما الفضل كل الفضل على بقية العصور التاريخية التى مرت على مصر . ففى العصر الأيوبى طرد الصليبيون من البلاد العربية الى غير رجعة . وفى العصر المملوكى أجهز السلاطين على آخر صليبى فى البلاد — هذا من جهة — واستطاعوا أن يردوا غارة التتار وأن يحموا البلاد الاسلامية من شرهم المحدق بهم — وهذا من جهة ثانية .

من أجل ذلك لا يدهشك أيها القارىء الحديث أن نرى الحديث عن فضائل مصر فى أكثر الكتب التى ترجع الى هذا العصر . سواء كانت هذه الكتب أدبية أم تاريخية أم كتبا موضوعها (الخطط) كما هو الشأن عند المقريزى .

وأما طريقة القوم فى التنبيه الى محاسن مصر فانها تبدأ بذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى قيلت فى مدح هذه البلاد . وسواء كانت هذه الأحاديث النبوية صحيحة أم غير صحيحة فانها أفلحت فى أن تترك آثارها العميقة فى نفوس الشباب المصرى وأن تخلق منهم مواطنين مخلصين لوطنهم مصر مستعدين من أجلها لكل بذل .

وينتقل المؤلفـون من ذلك الى ذكر محاسن مصر ، ويأتون فى ذلك بالأحاديث الشائقة والعبارات الرائقة ومنها على سبيل المثال فى وصف هذه البلاد : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكه سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء . لو ضرب بينها وبين غيرها من البلاد سور لغنى أهلها بها عما سواها .

جاء فى القرآن الكريم على لسان فرعون « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار — تجرى من تحتى أفلا تبصرون ».

ثم ينتقل المؤلفـون من ذلك الى ذكر الآثار المصرية القديمة . وذكر نيلها العظيم وما له من عجائب وفضائل . ولهم فى وصف منابع النيل أحاديث وأساطير يطول بنا القول لو أردنا أن نطرف القارىء بها ونسليه بسردها .

وأما زيادة النيل فحولها أحاديث كثيرة أيضا ، منها أن معاوية بن أبى سفيان قال يوما لكعب الأحبـار : أسألك بالله هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله عز وجل خبرا ؟ قال : أى والله — ان الله عز وجل يوحى اليه فى كل عام مرتين : يوحى اليه عند خروجه فيقول : ان الله يأمرك أن تجرى فيجرى ما كتب الله له .. ثم يوحى اليه بعد ذلك فيقول : أن الله يأمرك أن تنزل فينزل .

ومن ثم لم يأخذ المسلمون أنفسهم فى مصر بما أخـذ الأقباط به أنفسهم قبل الاسلام من القاء عروس فى النيل يزعمون أن النيل لا يحدث له فيضان بدونها .

ذكر عبد الرحمن بن عبد الحكم وغيره أنه لما فتح المسلمون مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين رحل شهر بؤونة : أيها الأمير أن لنيلنا هذا سنة لا يجرى بدونها . وهو أنه اذا كان اثنا عشر من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من أبويها فأرضيناهما فيها وزيناها بأفضل زينة وألقيناها فيه . فقال عمرو : هذا مما لا يكون فى الاسلام . فأقاموا شهرى أبيب ومسرى وهو لا يزيد كثيرا ولا قليلا . فلما رأى عمرو ذلك كتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعرفه ذلك . فكتب اليه : لقد أصبت . وكتب رقعة الى النيل فيها :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر :

أما بعد فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر . وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك ».

فألقاها عمرو بن العاص فى النيل وقد تهيأ أهل مصر للخروج عنها . فأصبحوا يوم الصليب وقد بلغ فى ذلك اليوم ستة عشر ذراعا .

وأما نقص النيل فقد كانت له آثار سيئة على مصر والمصريين وتحدث عنها المؤرخون جميعا ومنهم أبو العباس القلقشندى . وقد تحدث كذلك عن مقاييس النيل وذكرها واحدا واحدا وأشار الى من بناه من الولاة والحكام فى عصر ما قبل الاسلام ثم فى عصر الاسلام نفسه بعد ذلك .

وينتقل المؤرخون من ذلك الى الحديث عن خلجان

مصر وهى ستة : خليج (المنهى) زعموا أن الذى حفره يوسف عليه السلام مخترقا اقليم الفيوم ، وخليج (القاهرة) الذى يكسر سده يوم وفاء النيل . وخليج (السردوس) زعموا أن هامان بناه لفرعون . وخليج (الاسكندرية) . وخليج (منجا) قيل حفره أحد ملوك مصر بعد الطوفان . وخليج (دمياط) . قال المؤلف — ولم أقف على تفاصيل أحواله .

وأما بحيرات مصر فأربع وهى : بحيرة (الفيوم) وبحيرة (بوقير) وبحيرة (نستروه) قرب البرلس . وبحيرة (تنيس) بكسر التاء بآخر الدقهلية . ويتصل بها من جهة الغرب بحيرة (دمياط) وهى فى الحقيقة كالبحيرة الواحدة .

ويكتنف مصر من ناحيتى الشرق والغرب جبلان . ولكل منهما أسماء مختلفة بحسب المواقع التى يطل عليها .

وأما زروع مصر ورياحينها وفواكهها فأصناف كثيرة منها القمح والذرة والشعير والأرز والعدس والبسلاء واللوبيا والسمسم والقرطم وقصب السكر والبطيخ والقثاء والملوخيا والقلقاس والباذنجان والقنبيط . ومن رياحينها الآس والورد والبنفسج والياسمين والنسرين والبان والريحان الفارسى على اختلاف ألوانه . ومن فاكهتها الرطب والعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصيا والبرقوق والتفاح والكمثرى والسفرجل والموز والنبق والتوت والنارنج والليمون .

ومن محاسن مصر أن فاكهتها لا تدوم طول السنة فيمله الناس . بل يأتى كل نوع منها فى وقت دون وقت .

القواعد المصرية :

بعد أن فرغ المؤلف من ذكر طيور مصر ولحومها وذكر حدودها وتخومها أرخ لابتداء عمارتها قبل الطوفان وبعده. وساق الروايات الكثيرة فى ذلك ثم ذكر قواعدها منذ القدم الى زمان المماليك وهى مدينة (أمسوس) قبل الطوفان . ومدينة (منف) بعد الطوفان . ثم مدينة (الاسكندرية) التى بناها الاسكندر الأكبر ، ومدينة (قصر الشمع) التى هى داخل الفسطاط .

أما قواعد مصر فى الاسلام فهى (الفسطاط) و (القاهرة) وَ (القلعة) .

وقد عنى أبو العباس على عادة المؤرخين فى زمانه بذكر ما يتصل بكل قاعدة من هذه القواعد الاسلامية الثلاث من خطط وطرق وأسواق وجوامع وبيمارستانات ومدارس وآثار وأديرة ومنتزهات وبوابات وحارات ودور وقصور وميادين وبساتين وبلغ من ذلك كله ما أراد .

الكور المصرية :

وانتقل أبو العباس من ذلك الى ذكر ما سماه (كور مصر) فأشار منها فى الاقليم الجنوبى أو الصعيد الى عشرين كورة منها : الفيوم ، ومنف ، وكورة وسيم ، وكورة دلاص ، وبوصير وأهناس ، والقيس (بسكون

الياء) وطحا ، وبُويْط ، والأشمونين ، وسيوط ، واخميم، وقنا ، وكورة قفط والأقصر ، وقوص ، وكورة اسنا وأرمنت ، وأسوان .

وأما أسفل الأرض (يريد الوجه البحرى) فيه ثلاث وثلاثون كورة من أهمها :

كورة عين شمس ، وبسطة ، وطرابيه ، وصان ، وكورة الفرما والعريش ، وكورة ببا وبوصير ، وسمنود ، وتوسا ، ودقهلية ، وكورة تنيس ودمياط ثم كورة رمسيس ومنوف، وطوه منوف ، وسخا ثم كورة صا ، وكورة شاس ، وكورة خربتا (بكسر الخاء والباء) وكورة اخنا ورشيد والبحيرة ، وكورة مريوط ، ثم كورة الطور ، وكورة القلزم ، وكورة ايله (بسكون الياء) ومدين الخ ..

وكعادة الأدباء فى زمان المؤلف جنح أبو العباس القلقشندى الى مزج العلم بالأدب . فكان يذكر محاسن هذه البلدان أو الكور ويقرن ذلك بذكر الأشعار فى وصفها ان وجدت . ومن ذلك على سبيل المثال :

لله يوم فى سيوط وليلة
عمْرُ الزمان بمثلها لا يغلط
بتنا بها والبدر فى غلَوائه
وله بجنح الليل فرع أسمطُ
والطير تقرأ والغدير صحيفة
والريح تكتب والغمام ينقّطُ

المعاملات فى مصر :

كان النـاس يتعاملون بالدنانير المسكوكة بديار مصر وهى من الذهب يكتب على أحد وجهيها اسم السلطان أو الخليفة وعلى الوجه الآخر كثيرا ما كان يكتب (محمد رسول الله) . وهناك الدنانير التى يؤتى بها من بلاد الروم أو الفرنج ترسم على أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمانه . وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين للمسيح عليه السلام . ثم هناك الدراهم النقرة ثلثاها من فضة وثلثها الأخير من نحاس . ثم يأتى بعد ذلك (الفلوس) . كل ثمانية وأربعين فلسا منها بدرهم من النقرة . وهى قسمان مطبوع وغير مطبوع . والأخير منها مصنوع من نحاس مكسو أحمر وأصفر .

قال المؤلف : ثم نفدت هذه الفلوس من ديار مصر لغلو النحاس .

الموازين والمكاييل والمقاييس :

وأما الموازين فأولها الرطل المصرى وزنته مائة وأربعة وأربعون درهما ومنه يتفرع القنطار المصرى وهو مائة رطل .

ومن المكاييل القدح — وهو مختلف من جهة الى أخرى . ولكن القدح المصرى تقديره بالوزن مائتان واثنان وثلاثون درهما . وكل ستة عشر قدحا تسمى ويبه . وكل ستة وتسعين قدما تسمى أردبا .

وأما المقاييس فصنفان : صنف للأراضى وصنف

للأقمشة فمقياس الأراضى يكون بقصبة تعرف (بالحاكمية) نسبة الى الحاكم بأمر الله الفاطمى . وطولها ثمانيـــة أذرع باليـــد .

وتقاس أرض البناء بالذراع ، وطـول الذراع ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل .

وأما الأقمشة فتقاس بذراع طوله كذراع اليد وأربع أصابع مطبوقة .

أما الأســـعار :

فأوسطها أن يكون الأردب القمح بخمسة عشر درهما . والشعير بعشرة وبقية البقول على هذا الانموذج .

والرطل من اللحم أقل سـعره نصف درهم . وغالبـا ما يكون أكثر من ذلك — وأما الدجاج فجيده بدرهمين الى ثلاثة ، والدون منه بدرهم واحد . والسكر رطله بدرهم ونصف . قال المؤلف : وقد بقيت هذه الأسعار الى ما بعد الثمانين والسبعمائة للهجرة .

وأما أموال الدولة :

فهى على ضربين شرعى وغير شرعى . فمن الأول الخراج، والمال الناجم من المعادن . والمال المتحصل من الزكاة ، والمال المسمى بالجوالى (وهو ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة عليهم فى كل سنة) . وما يؤخذ عن تجـار الكفار الواصلين فى البحر الى الديار المصرية . والمواريث الحشرية (والمقصود بها أحوال من يموت وليس له من وارث معين) ،

وما يحصل من دار الضرب أو السكه بالقاهرة من ذهب وفضة ونحاس ونحو ذلك .

ومن المال غير الشرعى الذى تحصل عليه الدولة المكوس والضرائب التى يقررها السلطان كما يشاء وفى أى وقت شاء .

* * *

مواكب الخليفة الفاطمى فى مصر :

لا يستطيع مؤرخ يكتب فى تاريخ الدولة الفاطمية أن يغفل الحديث أيضا عن مواكب الخليفة وما كان من هيئة فيها . والخليفة فى بعض هذه المواكب جالس . وفى بعضها راكب . فأما المواكب التى يجلس فيها فهى :

١ — جلوسه فى المجلس العام أمام المواكب — وذلك بقاعة الذهب فى قصر الخلافة .

وللمؤرخين كلام طويل فى وصف هيئة الخليفة فى هذا الجلوس ودخول الأمراء وأصحاب الوظائف الكبرى عليه كل حسب درجته ومثول الوزير بين يدى الخليفة يقبل يديه ورجليه ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع ويقف ساعة على هذا النحو ثم يؤمر بالجلوس بعد ذلك .

٢ — جلوسه للقاضى والشهود فى ليالى الوقود الأربع من كل سنة . وهى ليلة رجب وليلة نصفه وليلة شعبان وليلة نصفه . وفيها يجلس الخليفة بباب الزمرد من أبواب النصر . ويركب القاضى من داره بعد صلاة المغرب وبين يديه الشمع

المحمول اليه من خزانة الخليفة موفودا من كل جانب ثلاثون شمعة وبين الصفين مؤذنو الجوامع يرفعون أصواتهم بذكر الله تعالى . ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقرر محفوظ . هذا عدا النواب والحجاب والأمراء والقراء حتى اذا وصلوا ساحة القصر فتح الخليفة طاقة من طاقات المنظرة ظهر منها برأسه ووجهه .. ثم يتقدم خطيب الجامع الأنور فيخطب كما يخطب على المنبر خطبة فى فضائل هذا الشهر ويختم بالدعاء للخليفة .

٣ — جلوسه فى مولد النبى صلى الله عليه وسلم . وفيه يعمل عشرون قنطارا من السكر الفائق حلـوى من جميع الأصناف ، وتعبأ فى ثلثمائة صنية من النحاس ، وتوزع على قاضى القضاة وداعى الدعاة وعلى الخطباء والقراء . ويجلس الخليفة فى منظرته ويركب القاضى ومعه الشهود الى الجامع الأزهر .

ثم يستدعى القاضى ومن معه فيجتمعون تحت المنظرة . ثم تفتح احدى طاقات المنظرة ليظهر منها وجه الخليفة . ثم يشير أحد الأستاذين المحنكين بيده الى الجماهير صائحا أن أمير المؤمنين يرد عليكم السلام ثم ينصرف الناس .

وأما المواكب التى يركب فيها الخليفة فهى :

١ — ركوب أول العام .

٢ — وركوب أول شهر رمضان .

٣ — وركوب أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان .

٤ — وركوب عيد الفطر وعيد الأضحى .
٥ — وركوب المقياس يوم وفاء النيل .
٦ — وركوب فتح الخليج .

وللخليفة ووزرائه وأمرائه وكبار أخياره وموظفيه هيئة يطول شرحها ولا نستطيع الاسهاب فيها كما فعل القلقشندى ومعاصروه من المؤرخين ورجال الأدب .

وختم أبو العباس حديثه عن الدولة الفاطمية بأروع قصيدة قيلت فى رثاء هذه الدولة الفاطمية . ونعنى بها قصيدة الشاعر عمارة اليمنى وهى القصيدة التى أولها :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتها فى أكرم الدول...الخ

وهى قصيدة رائعة ذكر منها أبو العباس واحدا وأربعين بيتا وشهرتها عظيم فى كتب التاريخ .

فى مصر الأيوبية والمملوكية

بمثل ما تحدث المؤلف عن مصر الفاطمية أدار الحديث حول مصر الأيوبية مبتدئا بما سماه (رسوم الملك) وهى : (السرير) ويقال له التخت ، و (المقصورة) وهى خاصة بالسلطان يؤدى فيها الصلاة بجامعه فى قلعة الجبل ، و (نقش اسم السلطان) على كل ما ينسج أو يرقم من الكسوة والطرز ، و (القاشية) وهى سرج من اديم مخرز بالذهب، و (المظلة) وهى قبة حرير أصفر مزركش بالذهب بأعلاها طائر من فضة ، و (الرقبة) يلبسها الفرس فى العيدين ومصنوعة من أطلس مزركش بالذهب أيضا ، و (الأعلام) وهى عدة رايات كبيرة من حرير أصفر مطرز بالذهب عليها اسم السلطان وألقابه ورايات صغيرة صفراء تسمى السناجق ثم (الطبلخانة) و (الخيام) ، و (الكوسات) وهى قطع دقيقة من نحاس يدق باحداها على الآخر بايقاع مخصوص ، يدق بها مرتين بالقلعة فى كل ليلة وكذلك اذا كان السلطان فى سفر تدار بها حول خيامه .

ثم انتقل الى ذكر الأعيان وأرباب المناصب ومنهم :

أرباب السيوف :

وعدتهم خمسة وعشرون . فهم على سبيل المثال : (الأمراء) ويتصل بهؤلاء جند السلطان (أو المماليك) و (جند الخليفة) و (جند البحرية) ومنهم كذلك (النائب الكافل) وهو الذى يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ويوقع على المناشير ، وهو سلطان مختصر أو السلطان الثانى. ثم منهم (الاتابك) — أو اتابك العساكر ، وأصله (اطابك) ومعناه الولد الأمير . ومنهم (رأس النوبة) — وصاحبها حاكم على احدى المالك السلطانية ومنهم (أمير مجلس السلطان) و (أمير سلاح السلطان) و (أمير خيول السلطان) ، و (الدوادار) ووظيفته تبليغ الرسائل عن السلطان . و (حاجب الحجاب) وهو القائم مقام النائب فى كثير من الأمور . و (الجاندار) وهو الذى يستأذن على دخول الأمراء على السلطان ويدخل أمامهم الى الديوان . و (الاستدار) وهو المشرف العام على بيوت السلطان وعلى الحاشية والغلمان . ثم (الجاشنكير) وهو المشرف العام كذلك على السماط ويشترك مع الاستادار فى ترتيبه وتنظيمه . ثم (الخاندار) ووظيفته الاشراف على خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك . ثم (مقدم المماليك) وهو المتحدث بلسانهم . ثم (المهمندار) ووظيفته استقبال الرسل الواردين وأمراء العربان ممن يردون

على المملكة . ثم (ولاة الشرطة) وهم والى القاهرة ووالى الفسطاط ووالى القرافة ثم والى القلعة .

وأما (نواب السلطنة) فموزعون على نيابات ثلاث هى نيابة الاسكندرية ، ونيابة الوجه القبلى ، ونيابة الوجه البحرى وأما (ولاة الأقاليم) فموزعون على الأقاليم السبعة التى تنقسم اليها الديار المصرية وهما : البهنسة ، والأشمونين وقوص وأسوان وأسيوط (بالوجه القبلى) . ثم الشرقية ومنوف والغربية والبحيرة (بالوجه البحرى) .

اما أرباب الأقلام :

فمنهم أرباب الوظائف الديوانية وهم كثيرون لا سبيل الى استيفائهم (كالوزير) — وهو أعظم رجل فى الدولة لأنه يلى السلطان . (وكاتب السر) وهو الذى يقرأ الكتب الواردة على السلطان ويجيب عنها . ويقرأ القصص (أى الشكاوى) بدار العدل ويوقع عليها . (وناظر الخاصة) وقد استحدث هذه الوظيفة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حين أبطل الوزارة . وموضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان . وصاحبها يدير الأمور التى كان يتصرف فيها الوزير . وله موظفون كثيرون من دونه .

ثم (ناظر الجيش) و (ناظر البيوت والحاشية) و (ناظر بيت المال) و (ناظر دار الضيافة) و (ناظر الأملاك السلطانية) و (ناظر خزائن السلاح) . و (ناظر الطواحين

السلطانية) و (ناظر الحاصلات) و (ناظر المواريث الحشرية) وهى أموال من يموت ولا وارث له . الخ ..

وأما أصحاب الوظائف الدينية من أرباب الأقلام فمنهم :

قاضى القضاة — وهو رئيس القضاة الأربعة على المذاهب الأربعة : مذهب الشافعى ، ومالك ، وأبى حنيفة ، وأحمد بن حنبل . وقد جرى النظام على ذلك أيام الظاهر بيبرس . وأما فيما قبل ذلك فقد كان يكتفى بقاض واحد .

قاضى العسكر — وقد استحدثت هذه الوظيفة زمن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى .

مفتى دار العدل — وهو أقل من القضاة الأربعة الذين سبق ذكرهم .

وكيل بيت المال — ينوب عن السلطان فى مبيعات بيت المال ومشترياته من أرض وعقار وغير ذلك .

المحتسب — وهى وظيفة دينية جليلة الشأن أشرنا اليها من قبل .

نقيب الأشراف — يتحدث باسم هؤلاء ولكن ليس من حقه الجلوس الى السلطان كما يجلس أصحاب الوظائف السابقة .

شيخ الشيوخ — وهو الرئيس الأعلى للخانقاه التى أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون بسرياقوس من ضواحى القاهرة . وليس له أن يجلس كذلك الى السلطان .

ناظر الأموال المحبوسة — أى الموقوفة وصاحبها يرتب

أرزاق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس والخوانق ولا يجلس الى السلطان .

ناظر البيمارستان — والمراد به البيمارستان الذى بناه الملك المنصور قلاوون فى جهة بين القصرين .

الخطيب — وهو الذى يخطب الناس من أعلى المنابر فى الجمع والعيدين .

والمدرس — وهو الذى يتولى أمر التعليم فى المدارس باذن من السلطان وتعيين له .

وكما أعطانا القلقشندى صورة عن هيبة الخليفة فى جلوسه مجلسا عاما وفى ركوبه فى المواكب العامة فكذلك أعطانا صورة عن هيبة السلطان الأيوبى أو المملوكى فى كل ذلك . وهى لا تختلف فى مجموعها عن الصورة الأولى . فلا حاجة الى اعادة القول فى هذه الناحية .

الديار الشامية

وبالطريقة التى تحدث بها القلقشندى عن مصر تحدث كذلك عن الشام . فبدأ بذكر محاسن هذه البلاد ، وما ورد فى مدحها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كتب فى فضائلها من كتب .

وعجائبها كثيرة منها على سبيل المثال :

(عين صيرة) وهى عين ساخنة يقصدها الناس للاستشفاء .

(وقبة العقرب) بمدينة حمص ترابها يمنع دخول العقرب.

(وادى الثوار) بالقرب من حصن الأكراد فى طرابلس . به سرداب يفور مرة واحدة فى الأسبوع فيسقى الزرع والأرض ويجف بقية أيام الأسبوع .

(حمام القدموس) تخرج منه حيات كثيرة لا تضر أحدا مهما لدغته .

ومن أنهارها :

نهر الفرات وهو أجلها وأعظمها .

ونهر حماة ويسمى (العاص) — سمى كذلك لأنه لا يسقى الأرض الا بطريق السواقى ، ويسمى كذلك بالنهر

المقلوب لأنه يجرى من الجنوب الى الشمال ، وغالب الأنهر تجرى بالعكس .

نهر الأردن — وهو معروف .

ونهر العوجاء — ينبع من جبل الخليل ويجرى من الشرق الى الغرب ويصب فى بحر الروم عند ارسوف .

نهر جيحان ، ونهر سيحان — وهما معروفان .

نهر بردى — وهو الذى يسقى مدينة دمشق .

ومن بحيراتها :

بحيرة طبرية ، وبحيرة بانياس مقابل دمشق . وبحيرة البقاع غربى بعلبك . وبحيرة دمشق . وبحيرة قدس (بفتح القاف والدال) بقرب حمص . وبحيرة افامية بقرب مدينة أفامية يصب فيها نهر العاص . وبحيرة أنطاكية وفيها من الطير والسمك شيء كثير .

ومن جبالها :

جبل الثلج ويسمى الجانب المقابل منه لبعلبك جبل لبنان . وفى مقابل طرابلس يسمى جبل عكّار . وفى مقابل حماة يسمى جبل اللكام (بضم اللام) .

جبل عاملة — يمتد شرقى بحر الروم الى قرب صور .

جبل عوف — بالقرب من عجلون .

جبل الصلت — نسبة الى مدينة الصلت .

ومن زرعها وفاكهتها :

القمح والشعير والذرة والباقلاء والبسلة والجلبان - واللوبية والحلبة والسمسم والقرطم . ولا يوجد به الكتان.

ومن الفاكهة العنب والتين والرمان والقراصيا والبرقوق والمشمش والخوخ (ويسمى بالدّراقية) والبرقوق والتفاح والكمثرى والسفرجل وشيء من قصب السكر . وبها من المزروعات ما ليس بمصر من ذلك البندق والاجاص والزيتون (وهو كثير جدا) . ولا يوجد البلح والرطب أصلا .

ثم قال المؤلف وللناس فى الشام أقوال :

فمنهم من لا يجعله الا شاما واحدا .

ومنهم من يجعله شامات كثيرة . فشام (يقصد فلسطين الى الأردن) . وشام (يقصد به دمشق وما حولها) . وسوريا (ويقصد بها حمص وحماة وشيزروقنسرين) .

وأما عكا وطرابلس وكل ما هو على الساحل فكل ما قابل منه شيئا من الشامات السابقة حسب منه .

وقد أفاض المؤلف بعد ذلك فى وصف قواعد الشام الست وهى : دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد والكرك

اما دمشق :

فقيل ان الذى بناها هو الاسكندر ذو القرنين . ووكل لعمارتها غلاما له اسمه (دمشقش) فسميت باسمه . وهى مدينة عظيمة البناء ذات سور شاهق ولها سبعة أبواب : باب كيسان ، وباب شرقى ، وباب توما ، وباب الصغير ،

وباب الحيانية ، وباب القراديس ، والباب المسدود . وقد جعل كل باب من هذه الأبواب السبعة لكوكب من الكواكب السبعة وهى على الترتيب : زحل والشمس والزهرة والمشترى والمريخ وعطارد والقمر .

وأما قلعتها فناحية الغرب بناها الظاهر بيبرس وعلى مثالها بنى الناصر محمد بن قلاوون (القصر الأبلق) بقلعة الجبل بمصر .

و (جامع بنى أمية) بناه الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين للهجرة . وأنفق فى بنائه أموالا جمة .

وبهذه الطريقة تحدث القلقشندى عن العواصم الخمس الباقية .

ملوك الشام قديما وحديثا :

ملك الشام فى الجاهلية طبقات أربع من الملوك .

أولاها — ملوك من الكنعانيين .

والثانية — ملوك من بنى اسرائيل .

والثالثة — ملوك من الفرس .

والرابعة — ملوك من اليونان .

والخامسة — ملوك من الرومان .

وأما فى الاسلام فقد حكمها :

أولا — ولاة من الصحابة أولهم (أبو عبيدة بن الجراح) من قبل عمر رضى الله عنه .

ثانيا — ولاة من قبل بنى أمية .

ثالثا — ولاة من قبل بنى العباس .
ثم ملك الشام بعد ذلك :
أحمد بن طولون الذى أخذ دمشق سنة ٢٦٤ هـ
وذلك أول اجتماع لمصر والشام لملك واحد فى الاسلام .
ثم ملكها بعده خمارويه فهارون بن خمارويه .
ثم المكتفى بالله الخليفة العباسى سنة ٢٩١ هـ .
ثم الأخشيد بن طغج سنة ٣٢٣ هـ .
ثم وليها (أونوجور) ابنه وقام بتدبيره كافور الأخشيدى
ثم انتزعها منه سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب .
ثم استردها كافور .
ثم جاءت الدولة الفاطمية فملكها جوهر الصقلى قائد المعز .
ثم غلب عليها بنو سلجوق وملكوها سنة ٤٩١ هـ .
ثم انتزعها من أيدى السلجوقيين الأمير نور الدين محمود ابن زنكى . ومات فملكها من بعده الصالح اسماعيل . وبقى بها حتى انتزعها منه السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٠ هـ . وبقيت دمشق بأيدى أولاده من بعده حتى أخذها منهم عمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب ثم صارت بعد ذلك للملك الصالح نجم الدين أيوب وذلك فى سنة ٦٤٣ هـ.
ثم كانت دولة المماليك فملكها الملك المظفر قطز .
وتوالى عليها سلاطين المماليك حتى زمان المؤلف .
وبنفس هذه الطريقة بسط لنا القول فيمن ملكوا

الشامات الأخرى أو القواعد الأخرى كحلب وحماة وطرابلس .

وظائفها :

أرباب السيوف ومنهم .

١ — نائب السلطان : ويعبّر عنه (بكافل السلطنة الشريفة بالشام) .

٢ — نائب القلعة . وهو منفرد عن نائب السلطنة .

٣ — حاجب الحجاب — وعددهم ثلاثة .

٤ — نقيب القلعة .

٥ — ونقيب النقباء .

ثم الخازندار ، ونقيب الجيش ، وصاحب المهمات ، وصاحب الأوقاف ، وصاحب الزكاة ، (ويعبرون عن كل واحد من هؤلاء باسم شدّ) ثم أمير البريد .

الوظائف الديوانية :

وعددها عشر منها :

الوزارة — وكتابة السر — ونظر الجيوش — ونظارة المهمات — ونظارة الخزانة — ونظارة البيمارستان — ونظارة السلاح — ونظارة البيوت — ونظارة بيت المال — ونظارة الأسواق .

الوظائف الدينية :

وهى عدة وظائف منها :

قاضى القضاة — قاضى العسكر — مفتى دار العدل —

وكيل بيت المال — نقيب الأشراف — شـيخ الشيوخ — المحتسب — الخطيب — المدرس .

بطونها العربية :

أولاها — آل ربيعة من طيّ من كهلان من القحطانية — ظهروا فى أيام نور الدين محمود بن زنكى وعلا أمرهم منذ ذلك التاريخ .

والثانية — جرْم بسكون الراء ببلاد غزة والداروم مما يلى الساحل الى بلد الخليل عليه السلام .

والثالثة — ثعلبة من طيّ — وديارهم مما يلى مصر الى الخـروبة .

والرابعة — بنو مهـدى ومنازلهم من البلقـاء الى الصوان .

والخامسة — زبيد .

المملكة الحجازية

بدأ المؤلف كلامه عن الحجاز بذكر فضائله كالمعتـــاد . وحسبه فضلا على سائر البلاد أن يكون مهبــط الوحى ، ومولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومقر الكعبة ، ومقام ابراهيم عليه السلام .

وقد نزل الحجاز من عرب البادية فى أول نشأته عرب طسم وجديس ثم هلك هؤلاء . وعمر الحجاز من بعدهم (جرهم الثانية) — وهم الذين اتصلوا باسماعيل عليه السلام حين أسكنه أبوه ابراهيم بمكة ، وتزوج منهـــم . ثم أتت قريش فاستعمرت الأرض وبقيت بها الى ما شاء الله .

وأما تسميتها بالحجاز فلأنها حجزت بين نجد وتهامـــة وامتدت بينهما .

عيون الحجاز وجباله :

ليس بالحجاز أنهار ولكن به عيون كثيرة متفجرة من الجبال التى هى أكثر من أن تعد ومنها :

جبل قيقعان ، وجبل حراء ، وجبل ثور ، وجبل ثبير .

وأما زروعه ومواشيه :

فمنها القمح والذرة والشعير والسلنت ، وكلها تزرع على المطر أو على ماء العيون . ثم القثاء والثوم والبصـــل

والكرات . ثم العنب والموز والتفاح والسفرجل .

ومن المواشى : الابل ، والضأن ، والمعز ، والخيل ، والغزلان ، وحمر الوحش ، والذئاب ، والضباع ، والثعالب.

قواعد الحجاز ثلاثة هى :

مكة ، والمدينة ، والطائف .

اما مكة

فقد سميت كذلك لقلة مائها . ولها ستة عشر اسما ومنها : مكة ، بكة ، أم القرى ، أم رحم (بضم الراء) ، البلد الأمين ، الباسة ، الناسة ، النساسة ، الحاطمة ، القدس، القدوس ، المقدسة . وكثرة الأسماء عند العرب تدل على شرف المسمى .

وبها الكعبة وهى أول بناء تم فيها على يد : ابراهيم الخليل واسماعيل عليهما السلام . ولم يجعلا للكعبة سقفا وتهدمت الكعبة وبنيت مرات كثيرة . وكانت قريش هى التى بنتها فى آخر مرة . وكان عمر النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ خمسا وعشرين سنة . وأصبح للكعبة اذ ذاك سقف . وأصبح لها باب مرتفع فوق الأرض . ثم احترقت الكعبة حين حوصر ابن الزبير بمكة فهدمها ابن الزبير وأعاد بناءها وجعل لها بابين أحدهما شرقى والآخر غربى . وجعل على بابها مفتاح من الذهب . وبلغ بها فى العلو سبعا وعشرين ذراعا . فلما مات ابن الزبير كتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج يأمره باعادة بنائها على ما كانت عليه زمن النبى من بناء قريش .

قال المؤلف : ثم جدد المتوكل رخام الكعبة وأزرها بالفضة وألبس حيطانها وسقفها الذهب . وهو على ذلك الى الآن .

وللكعبة أربعة أركان : أولها — ركن الحجر الأسود ومنه يبتدىء الطواف . وثانيها — الركن الشامى ، وثالثها — الغربى ، ورابعها اليمانى .

أما (الحرم) فهو ما يحيط بمكة مما يحرم صيده وقطع شجره .

ملوك مكة قبل الاسلام وبعده :

قالوا ان أول من ملكها بعد الطوفان معاوية بن بكر بن عوْد (بسكون الواو) بن آدم بن سام بن نوح عليه السلام. ثم حكمها جرهم بن قحطان ، ثم حكمها عبد المدان (بفتح الميم) ، ثم ملكها ابن مضاص . وأما سدانة البيت ومفاتيحه فكانت فى يد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام وأيدى أولاده من بعده . ثم انتقلت سدانة البيت الى فزاعة بن الأزد من بنى كهلان ، وبقى بأيديهم حتى انتهت الى رجل منهم يقال له « أبو عنشان الخزاعى » ورئيس قريش يومئذقصى ابن كلاب . فلما سكر أبو غبشان اشترى قصى سدانة البيت منه بزق خمر وتسلم المفاتيح وأشهد عليه بذلك . ثم أرسل ابنه عبد الدار بالمفاتيح الى البيت فرفع صوته وقال : « يا معشر قريش : هذه المفاتيح مفاتيح بيت أبيكم اسماعيل قد ردها الله عليكم من غير غارة ولا غدر » . فتسلموها منه .

فلما صحا أبو غبشان ندم حيث له لا ينفعه الندم . قال الشاعر :

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت
بزق خمر فبئست صفقة البادى
باعت سداتها بالنزر وانصرفت
عن المقام وظل البيت والنــادى

ولما تم لقصّى ذلك بنى (دار الندوة) بمكة ، فكانت قريش تقضى فيها أمورها . ولم تزل الرياسة فى قصى هذا وفى بيته بعد ذلك . وأما بنوه فهم : عبد مناف ، وعبد الدار، وعبد العزى . واستقرت الرياسة العظمى لبنى عبد مناف . وكان له من الولد هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل. وكان هاشم أرفعهم قدرا واليه انتهت سيادة قومه ، وكانت قريش تجارا . وكانوا يرحلون فى الشتاء الى الشام وفى الصيف الى اليمن . ثم ولد لهاشم عبد المطلب وبقيت الرياسة فيه وكانت بئر زمزم قد انطمست فحفرها عبد المطلب .

وأما سدانة البيت ومفاتيحه فبقيت بيد بنى عبد الدار ابن قصى . وانتهت فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم الى عثمان بن حكم بن عبد الدار . فلما دخل النبى مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح اليه . فأتى على بن أبى طالب ولوى يده وأخذ منه المفتاح وفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة وصلى ركعتين ، فلما خرج سأله عمه العباس أن يعطيه المفتاح

ويجمع له السدانة والسقاية فنزل قوله تعالى « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » . فأمر النبى عليا برد المفتاح الى عثمان والاعتذار اليه . فقال عثمان : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق !! فقال له على : لقد أنزل الله تعالى فى شأنك قرآنا ، وقرأ عليه الآية . فقال عثمان : أشهد الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . وهبط جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم وأخبره أن السدانة فى ولد عثمان الى الأبد . فهى باقية الى الآن .

(أما كسوة الكعبة) فكانت فى الجاهلية من الحَبَر والبرود اليمنية . وكانت قريش تقسم هذه الكسوة على القبائل كل بحسب طاقتها واحتمالها حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم . وكان يتجر فى اليمن حتى أثرى فقال لقريش : أنا أكسو الكعبة وحدى سنة وجميع قريش سنة . فكان يفعل ذلك حتى مات .

وفى الاسلام كسا النبى صلى الله عليه وسلم الكعبة بالثياب اليمانية ، ثم كساها عمر وعثمان بالقباطى كان يأتى بها من مصر ، وقيل ان الزبير كان أول من كسا الكعبة بالديباج ، وكذلك فعل عبد الملك بن مروان . ولما حج المهدى سنة ٢٦٠ هـ شكا الناس اليه من أن ثياب الكعبة قد أثقلتها حتى ليخشى على جدرانها من هذا الثقل . فأمر بنزع هذه الثياب وكسا الكعبة من جديد خزا وديباجا وقباطى . ثم استغنى عن ذلك وعاد فكساها كسوتين خفيفتين رقيقتين.

ثم فى عهد المأمون كسيت الكعبة بالديباج الأبيض فقط .
واستمر الخلفاء العباسيون يعنون بالكعبة على هذا الوجه .
ثم فى أيام المماليك استقر الحال على أن تلبس الكعبة كسوة واحدة فى كل سنة .

المدينة المنورة :

واسمها القديم يثرب وسماها النبى طيبة (بفتح الطاء) وطابة ثم من أسمائها : الجابرة ، والمحبوبة ، والقاصمة ، والمجبورة ، والعذراء ، والمرحومة ، وغلبة (بضم الغين) لأن الأوس والخزرج غلبوا عليها اليهود . وسماها الله تعالى الدار بقوله « والذين تبوأوا الدار والأيمان من قبلهم » .

قيل أن أول من بناها تبع الأول من ملوك حمير . وزعم الناس أنه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وان لم يدركه . وحكوا فى ذلك الأقاصيص .

ويقع فى شماليها جبل (أحُد) . وفى جنوبيها جبل (عَيْر) . وبخارجها خندق محفور هو الذى حفره رسول الله فى يوم الأحزاب . وحولها سور عظيم بناه اسحق بن محمد الجعدى سنة ٢٣٠ هـ . وجدده عضد الدولة بن بويه سنة ٣٧٢ هـ .

وللمدينة أربعة أبواب . وفى وسطها مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان على عهده مبنيا باللبن ومسقوفا بالجريد . ولم يزد أبو بكر عليه شيئا وعنى به عمر ، ثم زاد فيه عثمان زيادة ظاهرة . وبنى جداره بالحجارة المنقوشة

وبالفضة . ووسعه المهدى سنة ١٦٦ هـ وزاد فيه المأمون زيادة كبيرة سنة ٢٠٢ هـ ولم تزل الملوك تتداوله بالعمارة الى زمان المؤلف . وبه الحجرة الشريفة التي بها قبر النبى صلى الله عليه وسلم . وبها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

واحترق المنبر سنة ٦٥٤ هـ أيام المستعصم بالله وشغل المستعصم عن عمارته بقتال التتار ، فصنع المظفر صاحب اليمن منبرا جديدا وبعث به الى المدينة سنة ٦٥٦ هـ . ثم أزيل هذا المنبر ووضع مكانه آخر بعث به الظاهر بيبرس صاحب مصر وهو الذى بقى الى زمان المؤلف .

ويقع البقيع فى خارجها من ناحية الباب الشرقى وهو مدفن أهل المدينة أو أكثرهم ، ومن بينهم ابراهيم بن النبى عليه السلام من مارية القبطية . وبه قبر الحسن بن على بن أبى طالب وقبر العباس . وقبر عثمان وقبر الامام مالك صاحب المذهب .

ومن قرى المدينة (قباء) وبها المسجد التقوى الذى ذكر فى القرآن (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه الخ) . وقرية (خيبر) ، وخيبر فى لغة اليهود معناها الحصن . وقرية (فدك) بفتح الدال ، وكان أهلها قد صالحوا النبى على النصف من ثمارها فى سنة أربع من الهجرة ، فكانت له صلوات الله عليه وسلامه خالصة . ثم (الصفراء) وقرية (ودّان) وقرية (الفرع) بضم الفاء ، وقرية (الجار) وهى بمثابة ميناء للمدينة لأن بينها وبين

الساحل ثلاث مراحل . وقرية (وادى القرى) وأكثر أهلها من ولد أبى طالب . ومن القدماء من عدوا (تيماء) من قرى المدينة . وبها الحصن المعروف بالأبلق المنسوب الى السموأل. وكذلك الشأن مع قرية يقال لها (دومة الجندل) وأخرى يقال لها (مدين) .

* * *

الى الآن تحدثنا عن ثلاثة فقط من الأبواب التى تنقسم اليها المقالة الثانية وعددها خمسة . قلنا أن الأخيرين منها يختصان بالممالك المحيطة بالديار المصرية من كل جهة . وعن الممالك التى بأيدى المسلمين من بلاد الروم ، والممالك التى بأيدى المسيحيين من تلك البلاد . فى هذين البابين الأخيرين من أبواب المقالة الثانية استطاع القلقشندى أن يمدّ كاتب الانشاء بجميع المعلومات التاريخية والجغرافيا الخاصة بكل من الممالك الآتية :

مملكة ايران : وما تشتمل عليه من البلاد التى تقع فى جنوبيها كالفرات ، والعراق ، وخوزستان ، والأهواز ، وفارس ، وكرمان ، وسجستان ، والبلاد التى تقع فى شماليها كأرمينية ، واذربيجان ، وبلاد الجبل ، وبلاد الديلم، وطبرستان ، ومازندان ، وقومس ، والغور . ثم بلاد ما وراء النهر ، وتركستان ، وطخارستان ، وبذخشان ، وخوارزم ، والقبجاق ، ومملكة القان الكبير .

مملكة اليمن : وبها التهائم واليمن المنجود .

بلاد البحرين : ...

بلاد اليمامة : ...

مملكة الهند والسند : ...

مملكة تونس : ويتصل بهذه الأخيرة ممالك تلمستان ، ودير العدوة ، وجبال البربر ، ومملكة قشتالة ، ومملكة نيره مما يلى قشتالة وبرشلونه .

بلاد السودان : وبها البجا ، والنوبة ، والكاثم .

ومملكة الحبشة : وبها بلاد اسلامية وأخرى نصرانية .

وبلاد الروم : وهى قسمان : أحدهما ما بيد المسلمين وما بأيدى الفرنج ومن الأخيرة :

مملكة القسطنطينية ...

ومملكة الألمان ...

ومملكة البنادقة ...

ومملكة الجنوبيين ...

ومملكة رومية (روما) ...

ومملكة الفرنج الصغيرة ...

ومملكة الجلالقة ...

ومملكة اللومبارد ...

وأنت معى أيها القارىء أننا لا نستطيع أن نتابع القلقشندى فى سرد المعلومات الجغرافية والتاريخية عن كل هذه الأقطار لأن مساحة هذا الكتاب الذى بين يديك لا تتسع

لذلك . وحسبك اذن أن تعرف أن المؤلف فصل صورة دقيقة عنها للقارىء العربى فى زمانه . وهى صورة تعرضت بعد ذلك لكثير من الأحداث التى عرضتها لكثير من التغييرات . وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت ولها صورة مخالفة تماما للصورة القديمة .

المقالة الثالثة

الفصل التاسع

الثقافة الديوانية

الى جانب الثقافة اللغوية الأدبية ، والثقافة الجغرافية التاريخية لابد لكاتب الانشاء فى نظر القلقشندى من أن تكون له ثقافة ديوانية — ان صح هذا التعبير . وفى هذه الثقافة الديوانية كتب القلقشندى مقالته الثالثة من موسوعته المشهورة صبح الأعشى فى صناعة الانشا . وتناول فى هذه المقالة أربعة أغراض :

الأول — الأسماء والكنى ونظام الألقاب فى الدولة .

الثانى — مقادير قطع الورق وما يناسب كل قطع منها من الأقلام .

الثالث — الطريقة التى تكتب بها ملخصات القصص والمظالم ونحو ذلك .

الرابع — الفواتح والخواتيم .

وقد اشتملت هذه المقالة عن ٣٧٥ صفحة من الموسوعة يمكن تلخيصها فيما يلى :

(الأسماء والكنى والألقاب)

عرفت اللغة العربية الاسم والكنية واللقب . فالاسم

ما دل على مسمى . والكنية ما صدرت بأب وأم . واللقب ما دل على صفة من صفات المدح أو الذم .

بدأ القلقشندى مقالته بالحديث عن الأسماء وفلسفة الأسماء عند العرب وغيرهم . فقال : ان أكثر الأسماء إنما تؤخذ من البيئة المحيطة غالبا . ومن عادة العرب أن يختاروا لأبنائهم من الأسماء ما فيه معنى البأس والقوة كمحارب ومزاحم ، ولمواليهم ما فيه معنى التفاؤل والسعادة كنجاح ومبارك . ومن أقوالهم فى ذلك « أسماء أبنائنا لأعدائنا وأسماء « موالينا لنا » . ومن عادة الترك أنهم يراعون فى أسمائهم معنى الجلادة والقوة أيضا فيتسمون باسم « بغا » ومعناه (الفحل) . وأما الأمم المتمدينة فتختار أسماء الأبناء والصحابة ومن اليهم .

وأما فى المكاتبات فتذكر الأسماء فى موضع الخضوع والتواضع كان تقول « من فلان الى فلان » . وأما المكتوب اليه فيحسن ترك التصريح باسمه فان فى ذلك تعظيما له . لذلك لم يخاطب الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى القرآن تشريفا لمقامه ، فلم يقل يا محمد أو يا أحمد كما قال يا آدم ، يا نوح ، يا ابراهيم ، يا موسى ، يا عيسى . بل قال (يأيها الرسول) ، (يأيها النبى) .

أما فى (الكنى) فالأمر على خلاف ذلك . فمن الأدب عند العرب أن يخاطب أهل الفضل ومن اليهم بالكنية حتى فى الخلفاء والملوك ، وبالغوا فى ذلك حتى كنوا من اسمه فى

الأصل كنية ، فقالوا فى (أبى بكر) (أبا المناقب) . وما زال التعظيم بالكنى فى الخلفاء والملوك الى زمان المؤلف .

وفى عامة الشعب العربى يكنى الرجل بولده أو بنته ولذا كنى النبى صلى الله عليه وسلم بأبى فاطمة وأبى الزهراء وأبى القاسم ، وكذلك الشأن فى النساء .

وأما الكنية فى المكاتبات فأول من اكتنى فى كنيته « الوليد بن عبد الملك » . والأدب ألا يذكر الرجل كنيته فى كتاب صدر عنه ما لم تكن أشهر من اسمه .

وأما الألقاب فقد استعملها الناس منذ القدم فلقب ابراهيم عليه السلام بالخليل ، وموسى بالكليم ، وعيسى بالمسيح ، ويونس بذى النون . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يلقب قبل البعثة بالأمين . ولقب أبو بكر بالصديق . ولقب عمر بالفاروق . ولقب حمزة بأسد الله . ولقب جعفر بن أبى طالب بعد استشهاده بذى الجناحين .

وأما الخلفاء من بنى أمية فلم يلقب أحد منهم بلقب ولكن خلفاء بنى العباس هم الذين حرصوا على أن يكون لكل منهم لقب . ومنهم السفاح والمنصور والهادى والمهدى والرشيد والأمين والمأمون الخ . ثم وقع اللقب كذلك لأرباب السيوف وقواد الجيش . فلقب أبو مسلم الخراسانى « بأمير آل محمد » . ولقب أبو بكر محمد بن طغج (بالأخشيد) . والأخشيد لقب على الملك بفرغانة .

ثم وقع التلقيب بعد ذلك بالاضافة الى الدولة فى أيام

المكتفى بالله . فقيل للمكتفى « ولى الدولة » وللمقتدر « عبد الدولة » . ثم أتت الدولة البويهية فسارت على هذه الخطة .

واستمر الحال على ذلك حتى أيام القادر بالله فأصبح التلقيب بالاضافة الى الدين بعد أن كان بالاضافة الى الدولة . وكان أول من لقب بهذه الطريقة « أبو نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه » فزيد على لقبه (نظام الدين) . وأفرط الناس فى ذلك افراطا شديداً الى زمان المؤلف . وكان الكتاب منذ أواخر الدولة الفاطمية الى أواخر الأيوبية يلقبون (بالفاضل) و (الرشيد) و (العماد) وما أشبه ذلك .

معانى الألقاب :

١ — الخليفة : من قوله تعالى (انى جاعل فى الأرض خليفة) . ولا يسمى أحد خليفة الله الا آدم عليه السلام ، وداود عليه السلام . فقوله تعالى (يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض) . وعليه خوطب أبو بكر بخليفة رسول الله ، وأبى أن يخاطب (يا خليفة الله) . وروى أن عمر بن الخطاب سأل طلحة والزبير وكعبا وسلمان عن الفرق بين الخليفة والملك — فقال طلحة والزبير : لا ندرى ، وقال سلمان : الخليفة الذى يعدل فى الرعية ويقسم بينهم بالسوية ، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ، والوالد على ولده ، ويقضى بينهم بكتاب الله تعالى . فقال كعب : ما كنت أحسب

أن فى هذا المجلس من يفرق بين الخليفة والملك ، ولكن الله ألهم سلمان حكما وعلما.

الملك — أو المليك أو الملك بسكون اللام ، وهو الزعيم الأعظم ممن لم يطلق عليه اسم الخلافة — هـذا وللملوك ألقاب كثيرة فى شتى الممالك ، فالتتابعة (ملوك اليمن) ، والأكاسرة (ملوك الفرس) ، والفراعنة (ملوك مصر) ، والقياصرة (ملوك الروم) ، والكنعانيين (ملوك الشام) ، والجلالقة (ملوك الفرنج) ، والأخشـيد (ملك فرغانة) والافشين (ملك اشروسنة) ، والفرنسيس (ملك فرنسا)، والدوك (ملك البندقية) ، والنجاشى أو الحطى بكسر الحاء (ملك الحبشة) .

السلطان : وأول من لقب به خالد بن برمك وزير الرشيد ثم انقطع التلقيب به الى أيام بنى بويه ، فتلقبوا به ثم تبعهم السلاجقة وما زال معروفا الى زمان المؤلف . ومعنى السلطان فى اللغة الحجة . قال تعالى : « وما كان له عليهم من سلطان». وسمى السلطان بذلك لأنه حجة على الرعية يجب الانقياد اليه . والفقهاء يطلقون السـلطان على أى حاكم حتى على القاضي ، فيقـولون فيما ليس لهـا ولى خاص : يزوجها السلطان أى يزوجها القاضى .

الوزير : وأول من لقب به فى الاسلام أبو سلمة بن الخلال وزير السفاح ، وهو اما (وزير تفويض) كما كان الوزراء بالديار المصرية من لدن بدر الجمالى الى حين انقراض

هذه الوظيفة . وأما (وزير تنفيذ) وهو مجرد وسيط بين الامام والرعيــة . ولذا كانت الوزارة يعبر عنها فى الدولة الفاطمية بالوساطة .

الأمير : وهو رئيس الجيش أو الناحية ونحو ذلك مما يوليه الامام .

الحاجب : وهو فى الأصل مبلغ الأخبار من الرعية الى الامام وهى وظيفة قديمة ابتدأت بابتداء الخلافة ، فكان حاجب أبى بكر مولاه (شديدا) ، وحاجب عمر مولاه (يرفأ) ، وحاجب عثمان « حمران » ، وحاجب علي مولاه (قنبرا) بضم القاف وهكذا .

ثم تصرف الناس فى هذا اللقب ووضعوه فى غير موضعه حتى كانت خلافة بنى أمية فى الأندلس فأطلق هــذا اللقب أحيانا على من قام مقام الخليفة فى الأمر .

أما فى الدولة الفــاطمية بمصر فكانوا يطلقــون عليه « صاحب الباب » . أما فى زمان المؤلف فهو رجل يقف بين يدى السلطان فى المواكب ليبلغه ضرورات الرعية ويركب أمامه بعصى فى يده .

صاحب الشرطة : وكان يعبر عنــه فى زمان المؤلف (بالوالى) .

وكل هذه الألقاب المتقدمة هي ألقاب أرباب السيوف .

أما ألقاب أرباب الأقلام فمنها :

القاضى : يفصل بين المتداعين فى الأحكام الشرعية .

والمعروف أن النبى صلى الله عليه وسلم ولى القضاء باليمن على بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبا موسى الأشعرى . وان أبا بكر ولى القضاء عمر بن الخطاب الخ ..

المحتسب : وهو القائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمتحدث فى أمر المكاييل والموازين ونحوهما . والمحتسب فى اللغة معناه المجتهد . وأول من قام بهذا العمل فى الاسلام عمر بن الخطاب . وصنع لذلك الدرّة التى كان يحملها فى يده ليضرب بها المسىء ويردع بها المخالف .

الكاتب : وكان يراد به فى الزمن الأول (كاتب الانشاء) ثم تغير الحال بعد ذلك ، إلى أن صار يطلق كذلك على كاتب المال . هذا — وهناك بعض ألقاب تلحق بها ياء النسب تعظيما وتفخيما على عادة العرب . فنقول : السلطانى ، والملكى ، والأميرى ، والعالمى ، والقضائى . والعرب اذا أرادوا المبالغة فى شىء أدخلوا عليه ياء النسب فى آخره . وهذا النوع الأخير من الألقاب موجود بكثرة فى كتب القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى . وأكثر كتاب الدولتين الأيوبية والمملوكية .

وهناك ألقاب كانت تستخدم فى الدولة الفاطمية ثم تركت ونسيت فيما بعد ذلك ومنها لقب صاحب المظالم ، وصاحب الصلاة ، وداعى الدعاة .

تلك هى الألقاب الاسلامية المعروفة . وهناك ألقاب محدثة بعضها عربى وبعضها تركى وبعضها فارسى . أما العربى فمنه ما يلى :

النائب : لقب للقائم بأمر السلطان فى عامة أموره أو أغلبها ، والنائب عن السلطان بالحضرة يقال له « النائب الكافل » ، وقد يسمى بكافل الممالك الاسلامية أو كافل السلطنة ونحو ذلك .

ملك الأمراء : وهو لقب لكافل المملكة أو نائب السلطنة.

رأس نوبة : لقب على الذى ينفذ أمره على مماليك السلطان .

أمير مجلس : لقب على من يتولى أمر مجلس السلطان .

أمير سلاح : لقب على الذى يتولى أمر سلاح السلطان.

مقدم المماليك : لقب على الذى يتولى أمر مماليك السلطان .

أمير علم : لقب على الذى يتولى أمر الأعلام السلطانية.

نقيب الجيش : لقب على من يتكفل باحضار من يطلبه السلطان من الأمراء والأجناد .

ومن الألقاب الأعجمية ما يلى :

١ الاستدار : بكسر الهمزة — لقب على من يتولى قبض مال السلطان وصرفه وتمثيل أوامره فى كل ذلك . وهو من كلمتين : استد (بمعنى الأخذ) ودار ومعناها (الممسك) .

الجوكاندار : مركب من الجوكان (وهو ما تضرب به الكرة) ودار بمعنى (صاحب) . فهو حامل هذه الأشياء للسلطان فى لعب الكرة .

الطبردار : مركب من طبَر بفتح الباء (الفاس) ودار بمعنى (ممسك) . فالمعنى ممسك الفاس .

السنجقدار : حامل السنجق ومعناه الرمح .

البندقدار : حامل البندق .

الجمدار : بفتح الجيم والميم . لقب من يتصدى لالباس السلطان أو الأمير ثيابه .

المهمندار : لقب من يتصدى لتلقى العربان والرسل الوافدين وينزلهم دار الضيافة .

الزنان دار : أو الزمام دار — لقب على من يقفون بستارة السلطان من الخصيان . مركب من لفظين أحدهما (زنان) بمعنى النساء .

الجاشنكير : لقب من يتصدى لذوقان المأكول والمشروب قبل السلطان خوفا من أن يدس عليه سم .

أمير اخور : وهو المسؤول عن اصطبلات السلطان من جميع الوجوه .

أمير جاندار : لقب من يستأذن للأمراء وغيرهم أمام المواكب عند جلوس السلطان فى دار العدل . مركب من ثلاثة ألفاظ : أمير ، وجان (بمعنى روح) ودار (بمعنى ممسك) — فتكون الترجمة (الأمير الممسك بالروح) .

أمير شكار : وهو لقب الأمير المسؤول عن جوارح الطير وغيرها من وسائل الصيد .

وكل هؤلاء فى خدمة السلطان مضافا اليهم (الساقى)

وهو خاص بمد الأسمطة . (والأوجاقى) وهو الرجل الذى يقوم بترويض خيول السلطان وتدريبها على العدو والقفز .

اما القاب أرباب الأقلام فمنها :

الخطيب ، والمقرىء ، والمحدث ، والمدرس ، والمعيد ، والأخير يلى المدرس فى الرتبة ووظيفته أنه يعيد للطلبة ما ألقاه المدرس بعد انصرافه ويساعدهم على فهمه .

واما ألقاب الكتاب فمنها :

كاتب السر (وهو صاحب ديوان الانشاء) . وكاتب الدست (وهو الذى يجلس مع كاتب السر بدار العدل أمام السلطان أو نائبه) . وكاتب الدّرج (وهو الذى يكتب المكاتبات والولايات) ويعبر عنه فى زمان المؤلف بالموقع .

وأما كتاب الأموال فمن ألقابهم :

الوزير (اذا كان من أرباب الأقلام) . والناظر (وهو من ينظر فى الأموال ويتصرف بشأنها ويرفع اليه حسابها) . ومنه ناظر الجيش ، وناظر الخاص ، وناظر الأوقاف ونحو ذلك . وصاحب الديوان (وهو يلى الناظر فى الرتبة) . والشاهد (وهو الذى يشهد بمتعلقات الديوان نفيا واثباتا). والمستوفى (وهو الذى يضبط الديوان وينبه على ما فيه مصلحة) . والعامل (وهو الذى ينظم الحسابات ويكتبها) . والماسح (وهو الذى يقيس الأراضى الصالحة للزرع) . والصيرفى (وهو الذى يتولى قبض الأموال وصرفها) .

واما القاب أرباب الصناعات فمنها :

مهندس العمائر . رئيس الأطباء . رئيس الكحالين . رئيس الجرائحية . رئيس الحرّاقة (أى السفن السلطانية) .

واما القاب النصارى فمنها :

البابا — وهو لقب على القائم بأمور دين النصارى بمدينة روما . البطرك . والمعروف أن كراسى البطركية عندهم أربعة : كرسي روما وهو مقر البابا ، وكرسي انطاكية ، وكرسى القدس ، وكرسى الاسكندرية ، ومقره الكنيسة المعلقة بالفسطاط .

الأسقف — وهو نائب البطرك .

المطران — وهو القاضى الذى يفصل فى الخصومات .

القسيس — وهو القارىء الذى يقرأ عليهم الانجيل .

الجاثليق — وهو عندهم صاحب الصلاة .

الشماس — وهو عندهم قيم الكنيسة .

الراهب — وهو من يحبس نفسه فى خلوة للعبادة .

واما ألقاب اليهود فمنها :

الرئيس — وهو القائم فيهم مقام البطرك فى النصارى .

الحزّان — وهو بمثابة الخطيب .

الشليمصتور — وهو الامام الذى يصلى بهم .

واما ما يقع من الالقاب فى المكاتبات والولايات :

فهناك ألقاب لابد من أن يذكرها الكاتب فى مكاتباته الرسمية وغير الرسمية ومنها :

الجانب — وهو من ألقاب ولاة العهد بالخلافة ، والجانب فى اللغة الناحية ، والمراد الناحية التى يوجد صاحب اللقب بها .

والجناب — وهو من ألقاب أرباب السيوف والأقلام جميعا . وهو أعلى ما يكتب للقضاة والعلماء من ألقاب . ويقال فيه (الجناب الشريف العالى) و (الجناب الكريم العالى) .

والمقام — وهو من الألقاب الخاصة بالملوك .

والمقر — ويختص بكبار الأمراء وأعيان الوزراء وكتاب السر ، وكتاب الدست ، وناظر الجيش وناظر الدولة الخ .

والمجلس — وهو من ألقاب أرباب السيوف والأقلام أيضا . على أنه كان فى الدولة الأيوبية لا يلقب به الا الملوك ومن فى معناهم ، بل كانوا لا يكتبون (المجلس) الا للسلطان خاصة . أما فى زمن المماليك فقد جعل (الجناب) و (المقر) فوقه .

ومجلس — مجردا من أل . كان يقال مجلس الأمير أو مجلس القاضى أو مجلس الشيخ أو مجلس الصدر .

والحضرة — أى حضرة صاحب اللقب — كالحضرة العالية ، والحضرة السامية ، وتستعمل فى المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية الى بعض الملوك . وتستعمل أيضا فى مكاتبة ملوك الكفر .

ثم هناك ألقاب تكون فى المكاتبات العادية ومنها :

الديوان — كأن يقال الديوان العزيز ويقصد به **الخليفة** .

والستارة — ويكنى عن المرأة الجليلة القدر .

والجهة — ويستعمل فى معنى الستارة على نحو ما تقدم.

والباب — وهو من الألقاب المختصة بالعنوان فى **المكاتبات الجليلة** . ومنه الباب العالى ، والباب الشريف **العالى وهكذا** .

* * *

لم يكتف القلقشندى بايراد الألقاب المتقدمة على كثرتها وتنوعها واستيفائها حتى عاد يحصى الألقاب الاسلامية وغير الاسلامية فى شبه قاموس مرتب على أحرف المعجم . وبدأ بالألقاب التى أولها الألف ثم التى أولها الباء وهكذا .

فمن ألقاب حرف الألف على سبيل المثال :

الاتابكى — وهو من ألقاب أمير الجيوش ومن فى معناه كالنائب الكافل ونحوه ، وهو مختص بالاتابك (ومعناه الأب الأمير) ومن ثم تكون النسبة هنا للمبالغة كما سبق ذكر ذلك .

والألفى — من ألقاب ملوك المغرب .

والأجل — وهو من ألقاب السلطان . وكان الفاطميون يقصرونه عليه .

والاسفهسلار — لقب صاحب السيف . وكان الفواطم

يلقبون به صاحب الوظيفة التى تلى وظيفة صاحب الباب . ومعناه (مقدم العساكر) . وبه لقب صلاح الدين الأيوبى حين كان فى خدمة العاضد .

والامام — وهو من ألقاب الخلفاء .

ومن ألقاب حرف الباء على سبيل المثال :

البارع والبليغ — وبهما يلقب أرباب الأقلام .

ومن ألقاب حرف التاء :

(التقى) وهو من ألقاب ملوك المغرب . وهكذا يمضى المؤلف الى حرف الياء فيذكر من ألقاب هذا الحرف (اليمينى) وهو من ألقاب الدوادر ، وكاتب السر ، والحاجب . نسبة الى اليمين كأنه يمين السلطان .

ومما لا شك فيه أن هذا المعجم الخاص بالألقاب كان ذا فائدة كبيرة للكتاب فى زمن المؤلف ، وكان يعصمهم من الخطأ فى المكاتبات فلا يضفى الكاتب على أحد من الناس لقبا ليس له ، ولا يحرمه فى الوقت نفسه من اللقب الذى له .

وكما فعل القلقشندى ذلك بالألقاب المفردة فكذلك فعل بالألقاب المركبة فقد جمعها ورتبها على شكل معجم . ثم لم يكتف القلقشندى بكل ذلك حتى صنع مثل ذلك تماما بالألقاب الخاصة بأهل الكفر — على حد قوله — وهى الألقاب التى ينبغى للكاتب مراعاتها عند الكتابة اليهم ومنها على سبيل المثال :

الأنجالوس — وهو لفظ يونانى معناه الملك واحد الملائكة .

والدوقس — وهو لقب على ملوكهم .

وبطل النصرانية — وهو صالح لكل واحد منهم .

وبقية الملوك الاغريقية — وهكذا .

* * *

وهناك نظام فى الألقاب كان متبعا كذلك فى العصور الاسلامية أشار اليه أبو العباس ، ونعنى به نظام الألقاب التوابع وهي التى تلى الألقاب الأصول ، كالمقام ، والمقر ، والجناب ، والمجلس . فيلى المقام لفظ الأشرف والشريف والعالى . ويلى المقر لفظ الأشرف والشريف والكريم والعالى . ويلى الجناب لفظ الكريم والعالى . ويلى المجلس لفظ العالى والسامى .

ثم عاد المؤلف بعد هذا كله الى الكلام فى الألقاب المركبة من الصفة مضافا اليها كلمة (الاسلام) أو (المسلمين) أو (المؤمنين) أو (الغزاة) أو (المجاهدين) أو (العلماء) أو (القضاة) أو (الصالحين) . وأفاض كثيرا فى هذه الألقاب وفى المواضع التى يجب أن تقال فيها . بحيث لا يخطىء كاتب فى أن يضع لقبا مكان آخر . وان كان اللقبان متشابهين فى رأيه تشابها تاما وفى ذلك يقول المؤلف :

أما كون (ركن الاسلام والمسلمين) أعلى من (عز الاسلام والمسلمين) فلأن ركن الشيء فى اللغة جانبه الأقوى ، وحينئذ فيكون ركن الشيء بعضا منه بخلاف العز فانه معنى من المعانى خارج عنه .

وأما (كون عز الاسلام والمسلمين) أعلى من (مجد الاسلام والمسلمين) فلأن العز أجدى فى النفع من المجد.

وأما كون (مجد الاسلام والمسلمين) أعلى من (مجد الاسلام) فقط فلأن الشىء كلما تعدى فعله الى غيره كان أرفع رتبة.

وأما كون (قسيم أمير المؤمنين) أعلى من (خليل أمير المؤمنين) فلأن القسيم بمعنى المقاسم ، والخليل بمعنى المصادق ، وفرق بين من يقاسم الخليفة ومن يصادقه.

وأما كون (سيف أمير المؤمنين) أعلى من (حسام أمير المؤمنين) فآت من أن الحسام للقطع والسيف للحسم. والقطع يقع فى بعض البدن مما لا يصل الى حد الاهلاك نفسه أحيانا.

على هذا النحو أخذ المؤلف فى متابعة حديثه عن الألقاب ومعانيها ومراتبها ومراميها. وكان يتناول كل لقب منها بالشرح والتفصيل ثم يجعل لهذا اللقب درجات مختلفة يلى بعضها بعضا. ثم يذكر أمام كل درجة منها اسم الوظيفة التى تلائم هذه الدرجة. ونحن على كل حال عاجزون عن متابعة القلقشندى فى كل ذلك. فلندع حديثه عن الألقاب الى حديثه عن الورق والأقلام.

وتحدث القلقشندى بعد ذلك فى الورق والأقلام وأنواعهما وما يحسن لكل نوع منها من المكاتبات الرسمية ونحو ذلك .

وبمثل هذه الطريقة تكلم القلقشندى عن مقادير الورق المستعملة بالديار الشامية .

الملخصات وكيفية كتابتها

لما كان صاحب ديوان الانشاء يضيق وقته من استيعاب الكتب الواردة الى المملكة لكثرتها وتعدد صورها وجد من الأنسب انه يتخذ كاتبا يتصفح الكتب الواردة ويفحص مقاصدها ، ثم يلخصها من غير اخلال بمعانيها مسقطا فضول القول وحشوه كالدعاء والتصدير والألفاظ المحفوظة .

والذى جرى عليه الأمر فى زمان المؤلف أن الكتب الواردة الى المملكة يتولاها أكبر (الدوادارية) . ثم يناولها للسلطان فيفضّ ختامه وكاتب السر جالس بين يديه ، فيدفعه السلطان اليه فيقرؤه عليه ويستصحبه معه الى الديوان . فان كان الكتاب عربيا دفعه كاتب السر الى نائبه ليلخص معناه .

والذين تكتب لهم الملخصات فى زمان المؤلف خمسة دواوين وهى : ديوان الانشاء ، وديوان الوزارة ، وديوان الجيش ، والديوان الخاص ، وديوان الاستادارية .

وفى كتابة الملخصات يترك فى رأس الصفحة قدر ثلاثة

أصابع بياضا . ثم قدر أصبعين بياضا عن جهة اليمين وقدر أصبعين عن جهة اليسار . ويكتب فى الصدر :

« ذكر فلان فى مكاتبته الواردة على يد فلان المؤرخة بكذا وكذا انه أتفق من الأمر ما هو كذا وكذا . وانه سأل فى كذا وكذا » . ثم يخلى بياضا قدره أربعة أصابع ويكتب فى وسط الصفحة « وذكر » ثم يكتب باقى الكلام . وفى آخره يكتب هذه العبارة «وقد عرض على المسامع الشريفة» أو «ومهما برزت به المراسيم الشريفة جرى العمل بمقتضاه».

الفواتح والخواتيم

يعنى ما تفتتح به المكاتبات وما تختتم بها . وزعم القلقشندى أن العرب فى الجاهلية كانت تبدأ كتبها هكذا « باسمك اللهم » . وبنى زعمه هذا على ما رواه المسعودى فى كتابه (مروج الذهب) من أن جماعة من الأخباريين المشهورين حكوا أن أمية بن أبى الصلت خرج الى الشام فى نفر من ثقيف وقريش ومعهم ابل ، فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا ليأكلوا فيه ، فأقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم ، فحصها بعضهم بحجر فرجعت ، فأكملوا طعامهم ، ثم قاموا فشدوا أبلهم وارتحلوا ، فلما خوجوا من المنزل أشرفت عليهم عجوز متوكئة على عصا ، فقالت : ما منعكم أن تطعموا رجيبة الجارية اليتيمة الصغيرة التى باتت لطعامكم عليلة ؟ » قالوا : وما أنت ؟ قالت : أم العوام ، أرملت منذ أعوام ، أما ورب العباد لتفرقن فى البلاد » ، ثم ضربت بعصاها الأرض ، وأثارت بها الرمل ، وقالت : أطيلى ايابهم ، وفرقى ركابهم ! فوثبت الابل كأن على ذروة كل منها شيطانا لا يملكون منها شيئا حتى افترقت فى الوادى ، ثم جمعوها من آخر النهار الى غدوة النهار التالى . فلما أناخوا الايل طلعت عليهم العجوز وفعلت كما فعلت أولا ، فخرجت الابل

كما خرجت فى اليوم الأول ، فجمعوها من غد . فلما أناخوها فعلت العجوز مثل فعلها فى اليومين السابقين . فنفرت الابل ويئسوا من رجوعها . فقالوا لأمية بن أبى الصلت : أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك وعلمك ؟ فقال : اذهبوا أنتم فى طلب الابل ودعونى وحدى . وتوجه الى كثيب الرمل الذى كانت تطلع فيه العجوز حتى هبط الى جانبه الآخر . ثم صعد كثيبا آخر حتى هبط منه كذلك . ثم ظهرت له كنيسة فيها قناديل ورجل مضطجع على الباب أبيض الرأس واللحية . قال أمية : فلما وقفت قال لى : انك لمتبوع ؟ قلت: أجـــل . قال : فمن أين يأتيــك صــاحبك ؟ قلت : من أذنى اليسرى . قال : فبــأى الثيــاب يأمـرك ؟ قلت : بالثياب السوداء . قال : هذا خطيب الجن . أما صاحب النبوة فيأتيه صاحبه من قبل أذنه اليمنى . ويأمره بلبس البياض . فما حاجتك ؟ فحدثته حديث العجوز . فقال : هى امرأة يهودية هلك زوجها منذ أعوام وانها لن تزال تفعل بكم ذلك حتى تهلككم ان استطاعت . قال أمية : فما الحيلة؟ قال : اجمعوا ابلكم فاذا جاءت وفعلت ما كانت تفعل فقولوا سبعا من فوق وسبعا من تحت « باسمك اللهم » فانها لن تضركم .

فرجع أمية الى أصحابه فأخبرهم بما قيل له . وجاءتهم العجوز ففعلت كما كانت تفعل . فقالوا سبعا من فوق وسبعا من أسفل : « باسمك اللهم ! » . فلم تضرهم ورأت العجوز

الابل لا تتحرك فقالت : قد علمكم صاحبكم فليبيض الله أعلاه وليسودنّ أسفله . وساروا فلما أدركهم الصبح نظروا الى أمية وقد أصابه برص فى جبهته ورقبته وصدره . وأما أسفل جسمه فقد أصبح أسود اللون . ودخلوا مكة ونشروا الحديث . فكتبت قريش فى أول كتبها « باسمك اللهم » . فكان أول ما كتبها أهل مكة . وجاء الاسلام والأمر على ذلك .

قالوا : ولم تزل الكتب تفتتح (باسمك اللهم) حتى نزل قوله تعالى « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » . فاستفتح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصارت سنة بعده .

وعلى ذلك جرى مصطلح كتاب الانشاء فى القديم والحديث الا أنهم اصطلحوا على حذفها من أوائل التواقيع والمراسيم الصغار بل انهم كتبوا (البسملة) كذلك على الشعر واستحسنوها . ومنهم من استهجن هذا الوضع وكلهم أوصى بضرورة تحسينها وتجويدها وأفرادها بسطر فى الكتابة .

وبعد البسملة يأتى « الحمد » . وقد تتكرر عبارات الحمد هذه سبع مرات فى الرسالة الواحدة . وقد تأتى بعد قولهم (أما بعد) وقد تسبقها .

ثم تأتى بعد ذلك الصلاة والتسليم على النبى ، وتكون أوجب فى العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم.

وكان الخلفاء الفاطميون بمصر يصلون فى كتبهم على النبى ويتبعون ذلك بالصلاة على أمير المؤمنين على بن أبى طالب على طريقة الشيعة .

ثم يلى ذلك تحية الكاتب « بالسلام » على من يكتب له . فيقول فى أول الكتاب « سلام عليك » . وقد يقول فى آخره « والسلام عليك » . الأول نكرة والثانية معرفة .

ويأتى بعد ذلك قولهم فى المكاتبات « أما بعد » وهى مركبة من لفظين أحدهما أما . والثانية بعد . أما حرف شرط تقع فى كلام العرب لتوكيد الخبر والفاء لازمة لها . وبعد ظرف زمان اذا أفرد بنى على الضم كما فى قوله تعالى « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

ويجوز أن تقول : أما بعد أطال الله بقاءك . وأما بعد فأطال الله بقاءك — وأجود من ذلك أن يقال : أما بعد فانى نظرت أطال الله بقاءك فى الأمر .. ومعنى (أما بعد) مهما يكن من شىء .

وبعد الفراغ من المكاتبة سواء كانت موضوعها ولاية أو غيرها يستحسن أن يكتب فى نهايتها « ان شاء الله تعالى » . قال تعالى « ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غـدا الا أن يشاء الله » وقوله تعالى « وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » .

وعبارة « ان شاء الله » تعتبر أول خاتمـة من خواتم الرسالة أو المكاتبة . فموضعها من الصفحة أسفل الكلام

المكتوب على أن يكون عن يمينها بياض وعن شمالها بياض. ولهم في كتابة خطها صور معروفة أشار القلقشندى الى بعضها وأهمل بعضها الآخر.

ثم تؤرخ المكاتبة بعد ذلك . ولا غنى لكاتب عن ذلك وخاصة اذا كانت المكاتبة صادرة عن خليفة أو ملك أو أمير أو نائب أو وزير أو قاض من القضاة ونحوهم .

وقد كانت الأمم السابقة تؤرخ بالحوادث العظام وبملك ملوكهم وهكذا . وأما بنو اسماعيل فأرخوا ببناء الكعبة . وقد أحصى القلقشندى تسعة عشر تاريخا على هذا النحو كان الثامن عشر منها (عام الفيل) ، والتاسع عشر (مبعث النبي) صلى الله عليه وسلم . وبينه وبين الهجرة ثلاث عشرة سنة وشهران وثمانية أيام .

ثم أرخ المسلمون بالهجرة . واختلف المؤرخون فى ذلك. فمن قائل أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى بدأ فى ذلك . ومن قائل ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الذى أشار به . والأخير هو الأصح . ويقع التاريخ فى المكاتبات عادة اما بالليالى واما بالأيام .

وقالوا ان كتب السلطان والكبراء تؤرخ بالليالى . والكتب الصادرة من الأدنى الى الأعلى تؤرخ بالأيام . وان حمل على الليالى دون الأيام لأن أول الشهر ليله . واستغنى بالليالى عن الأيام لأن مع كل ليلة يوما . فنقول فى التاريخ بالليالى : « كتب فى أول ليلة من شهر كذا » أو « كتب

لليلتين خلتا من شهر كذا » أو « لاحدى عشرة خلت من شهر كذا » أو « لنصف شهر كذا » أو « لعشرين ليلة خلت من شهر كذا » أو « لعشر بقين من شهر كذا » أو « لآخر ليلة من شهر كذا » وهكذا .

قال القلقشندى : أما التاريخ العجمى فمداره الأيام لا الليالى لأن السنة عندهم شمسية وعند العرب قمرية .

أما ذكر السنة فللكتاب فيها مصطلحان :

أن تكتب « سنة ست وثمانمائة » ونحو ذلك . وعلى هذا المصطلح كتاب مصر وبلاد الشرق .

أو يكتب عام ستة وثمانمائة . وعلى هذا المصطلح كتاب العرب فى غير مصر وبلاد الشرق — زعما منهم أن العام يختص بالخصب والسنة تختص بالجدب . وعم بين قولهم « واصابتهم السنون » كناية عن الجدب والجوع .

وعلى الكاتب أن يعرف الشهور العربية التى تبدأ بشهر ربيع الأول وتنتهى بذى القعدة ، وان يعرف الشهور الفارسية : افرودين ماه — ارديهشتما — حردد ماه — بتر ماه — ترد ماه — شهر بر ماه — مهر ماه — ابان ماه — ادر ماه — ذى ماه — بهمن ماه — اسفندار ماه . وعليه أن يعرف الشهور السوريانية وهى : تشرين الأول ، وتشرين الثانى ، وكانون الأول ، وكانون الثانى ، وشباط ، وآذار ، ونيسان ، وآيار ، وحزيران ، وتموز ، وآب ، وايلول .

وعلى الكاتب أيضا أن يعرف الشهور الرومية التى هى

يناير ، وفبراير ، ومارس ، وابريل ، الخ . وكذلك الشهور القبطية التى هى توت ، وبابة ، وهاتور ، وكيهك ، وطوبة ، وأمشـير ، وبرمهات ، وبرمودة ، وبشنس ، وبؤونة ، وأبيب ، ومسرى .

وأهم من كل ذلك أن يعرف كاتب الانشاء كيف يحول التاريخ العـربى الى سريانى أو الى رومى أو الى قبطى وهكذا . وقد شرح المؤلف هذه الطرق ثم قال : (١)

أما موضوع كتابة التاريخ ففى آخر المكاتبة . ولكن

---

(١) الطريقة المعروفة فى زماننا هذا لتحويل السنة الهجرية الى سنة ميلادية قريبة الشبه جدا من طريقة المؤلف وهى كالآتى :

أولا ــ يضاف الى السنة الهجرية عدد ٦ر٦٢١ .

ثانيا وثالثا ــ يطرح من المجموع حاصـل ضرب السـنة الهجرية فى ٣ مقسوما على ١٠٠ .

رابعا ــ يلاحظ ان زيادة الكسر العشرى عن ٢ر٠ يجبـر بواحد صحيح [illegible]يضاف هذا العدد الصحيح الى السنة .

مثال ذلك : اذا أردنا تحويل السنة الهجرية ١٣٧٩ الى سنة ميلادية كان علينا أن نسير كالآتى : ــ

أولا ــ ١٣٧٩ + ٦ر٦٢١ = ٦ر٢٠٠٠

ثانيا ــ ١٣٧٩ × ٣ = ٤١٣٧

ثالثا ــ ٤١٣٧ ÷ ١٠٠ = ٣٧ر٤١

رابعا ــ ٢٠٠٠ ــ ٣٧ر٤١ = ٢٣ر١٩٥٩

فتكون السنة الميلادية هى ١٩٦٠

يقع التاريخ فى أول المكاتبة اذا كان موضوعها أمرا تتشوق النفوس الى معرفة اليوم الذى وقع ذلك الأمر فيه .. ومهما يكن من شيء فقد اصطلحوا على كتابة التاريخ بعد قولهم « ان شاء الله تعالى » . فيكتبون « كتب فى كذا من شهر كذا » فى سطر . ثم يكتبون « من سـنة كذا » فى سطر تحته ...

المقالة الرابعة

الفصل العاشر

تحرير المكاتبات

تحدث القلقشندى فى مقالته الرابعة عن المكاتبات من حيث تاريخها ومن حيث فنها . فدخل بهذه المقالة الرابعة فى صميم الموضوع الذى من أجله كتب موسوعته الكبيرة (صبح الأعشى فى صناعة الانشا) . وذلك بالضبط كما نصنع نحن الآن فى فن النقد أو فن الصحافة أو فن الأدب . فاننا نشير دائما الى تاريخ هذا الفن ثم ننتقل من ذلك الى أصوله وقواعده .

وقد جعل المؤلف هذه المقالة الرابعة قسمين كبيرين : —

الأول — فى أمور كلية فى المكاتبات تحدث فيها عن مقدمات المكاتبات وما يتبع فيها من أصول وأساليب . كما تحدث فيها عن الأصول والقواعد التى ينبغى مراعاتها فى ترتيب المكاتبات ونظامها ولوازمها ونحو ذلك .

والثانى — فى مصطلحات الكتابة العربية ابتداء من الكتب التى صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فالخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين والملوك والسلاطين

ومن اليهم . وهى الكتب التى كتبوا بعضها الى أهل الاسلام وبعضها الآخر الى أهل الكفر على حد تعبير المؤلف .

وفى هذا القسم الثانى من المقالة الرابعة أفرد أبو العباس جزءا كبيرا من المقالة للحديث عن مصطلح الكتابة فى الديار المصرية ابتداء من الدولة التركية الى رأس المائة الثامنة للهجرة .

هذا هو موضوع المقالة الرابعة التى شغلت من موسوعة صبح الأعشى ما لا يقل عن خمس وستين وثلثمائة وألف صفحة !! وسنعطى القارىء صورة مقربة منها على الوجه التالى : —

الأصول العامة للكتابة

اتفق الكتاب على أن يتوفر فى المكاتبة أمور كثيرة منها :

١ — حسن الافتتاح . كأن تبدأ المكاتبة بحمد الله أو بالسلام . أو بتعظيم المكتوب اليه مع سهولة اللفظ ووضوح المعنى .

كتب ابن العميد على لسان ركن الدولة بن بويه الى عامل من عماله أظهر المعصية :

« كتابى اليك وأنا متردد بين طمع فيك ، ويأس منك ، واقبال عليك واعراض عنك . فانك تدلّ بسالف خدم أيسرها يوجب رعاية ويقتضى محافظة وعناية . ثم تتبعها بألف خلاف ومعصية أدناها يحبط أعمالك ، ويسقط كلّ ما يُرعى لك » .

٢ — أن تأتى فى أول المكاتبة بما يدل على عَجُزها على نحو ما يراعى مراعاة دقيقة فى الخطب .

٣ — أن تشتمل المقدمة على كلام مناسب لموضوع المكاتبة ويكون أساسا لها . ففى كتب الحث على الجهاد تشير المقدمة الى أنه فرض على الأمة واعزاز للدين والدولة .. وفى كتب الفتوح تشتمل المقدمة على انجاز وعد الله الذى وعد به المجاهدين المخلصين .

٤ — أن تخاطب الرسالة كلا بما يستحق . فلا تبدأ بخطاب رئيس لمرءوس وتكون خطابا فى الوقت نفسه لمرءوس من رئيس . فقولك (أصدرنا هذه المكاتبة) أعلى بالنسبة للمكتوب اليه من قولك (صدرت هذه المكاتبة) ، وقولك (نبدى لعلمه) أعلى من قولك (ووضح لعلمه) ، وقولك (اتصل بنا) أعلى من (أنهى الى علمنا) وهذه الأخيرة أعلى من (بلغنا) . (ووردت علينا مكاتبته) أعلى من (وردت مكاتبته) وهكذا .

٥ — أن يعرف الكاتب موضع الدعاء فى المكاتبة . ذلك أن (الدعاء باطالة البقاء) ، ارفع من (الدعاء باطالة العمر). وذلك أن البقاء لا يدل على مدة تنقضى . أما العمر فيدل على مدة تنقضى . ولذا يوصف الله تعالى بالبقاء ولا يوصف بالعمر . والدعاء بمضاعفة النعمة أعلى من الدعاء بدوام النعمة . والدعاء بعز الأنصار أرقى من الدعاء بالنصر . وعلى الكاتب أن يقلل من الدعاء على لسان الملوك . فقد قيل : ان الملوك تسمح ببدرات المال ولا تسمح بالدعوة الواحدة .

وهكذا قد جعل القلقشندى لكل مقام دعاء لا يكون لغيره . ولكل طبقة من الناس أو الحكام دعاء لا يكون لغيرها وأفاض فى كل ذلك .

ثم نبه القلقشندى الى المكروه من الأدعية كما فى قولهم: جعلنى الله فداك . وقدمنى الى السوء دونك . فان فى ذلك

ملقا وتكلفا لا فائدة منه . وكما فى قولهم « أمتعني الله بك » و « أمتع بك » ففى ذلك يقول الشاعر :

ان جفاء كتاب ذى مقه [1]

يكون فى صدره « وأمتع بك »

٦ — أن يعرف الكاتب كيف يستخدم فى مكاتباته المناسب من الألقاب التى تقدم ذكرها فى المقالة الثالثة .

٧ — أن يخاطب الكاتب كلا بما يناسبه كذلك من اللفظ . ومذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثر السهولة فى كتبه الى ملوك العجم . لأنه يعلم أن هذه الكتب ستترجم لهم . ومن هنا وجب على الكاتب أن يراعى الجهة التى يكتب اليها وأن يحسب حسابا لأحوال ساكنيها . فان كانوا من الأدباء اختار اللفظ الجزل وان كانوا من العوام اختار الكلام الخالى من الزينة . ومن هذا القبيل انهم لم يجيزوا التفاصح على الملوك والسلاطين . كما لم يجيزوا مخاطبتهم بلغة السوقة .

٨ — مراعاة المكتوب عنه سواء كان خليفة أو ملكا أو غير ذلك . فيقال « جرى أمر أمير المؤمنين بكذا » و « اقتضى أمر أمير المؤمنين كذا » . واذا كان المكتوب عنه ملكا قيل « فعلنا كذا » و « أمرنا بكذا » و « برزت مراسيمنا بكذا » . وفى طبقة الملوك فى كل ذلك الأمراء والوزراء والعلماء .

---

(١) المقه = المحبة والود .

٩ — مراعاة مواقع الآيات القرآنية والسجع فى المكاتبة.
فأما آيات القرآن فيذكرها الأدنى للأعلى فى معنى ما يكتب.
وأما السجع فلا يفرق فيه بين كتابة الأعلى للأدنى أو العكس.
وأما الشعر فيورد حيث يحسن ايراده ، ويمنع حيث يحسن منعه . وأما المكاتبات الصادرة عن الملوك والصادرة اليهم فلا يتمثل فيها بشيء من الشعر اجلالا لهم ، الا اذا كتب الملوك الى الملوك ومن فى مستواهم فانه لا بأس من الاستشهاد بالشعر .

ومع ذلك فمذاهب الناس فى التمثيل بالشعر فى المكاتبات السلطانية أو الملكية مختلفة . فقد أثر عن المتوكل أنه أمر ابنه أبا العباس فكتب الى أهل حمص كتابا ختمه بهذا البيت من الشعر :

أتاة فان لم تغن عقب بعدها
وعيدا فان لم نجد أجدت عزائمه!

والمعروف أن سلاطين بنى العرب كثيرا ما كتبوا رسائلهم بالشعر . ومن أشهرهم فى ذلك (الملك الأفضل) بن صلاح الدين الأيوبى .

وأما كتب الاخوانيات فانها تقبل التمثل بالشعر وتزدان به كما كان الشأن مع القاضى الفاضل . ومن الأبيات التى استشهد بها :

ومن عجب انى أحنّ اليهمو
وأسأل عنهم من أرى وهمو معى

وتطلبهم عينى وهم فى سـوادها

ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

١٠ — حسن الختـام بحيث يكون ملائما لموضـوع الرسالة كل الملاءمة .

كتب الصاحب بن عباد فى ختام رسالة قال :

« لئن حنثت فيما حلفت فلا حظوت لتحصيل مجـد ، ولا نهضت لاقتناء حمد ، ولا سعيت الى مقـام فخر ، ولا حرصت على علو ذكر » .

فهذه اليمين لو سمعها عامر بن الظّرب لقال : هى اليمين لغموس ، لا القسم باللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى !

هذا كله فضلا عن مراعـاة الأمور التى سـبق شرحها كمعرفة قطع الورق اللازم للرسالة ونوع القلم الذى تكتب به وسعة ما بين السطور والهوامش ونحو ذلك .

* * *

الايجاز والاطناب :

أما الايجاز فيحسن فى خمسة مواضع تكون فيها المكاتبة من السلطان فى أوقات الحروب ، أو تكون خبرا يراد ستره أو التورية عنه كما فى أخبار الهزيمة ، أو تكون المكاتبة أمرا أو نهيا ، أو تكون المكاتبة لاستخراج الخراج ونحو ذلك .

وأما البسط أو الاسهاب فيحسن فى موضعين فقط :

أولهما — أن يكون ما يكتب عن السلطان خبرا يراد

شرحه وتقرير صورته فى نفوس الرعية كما فى الفتوحات .

ثانيهما — أن يكون ما يكتب عن السلطان فى وقت تحرك العدو الى الثغور وما اليها .

الأجوبة عن الرسائل :

ذهب البلغاء الى أن الكتب الجوابية أصعب من الكتب الابتدائية وهى نوعان : مكاتبة فى الرد على أهل الاسلام . ومكاتبة فى الرد على أهل الكفر . أما الأولى فالمشهور استعماله منها فى دواوين الانشاء ما يلى :

أن تفتتح الكتب بلفظ « من فلان الى فلان » أو بلفظ « الى فلان من فلان » أو يفتتح الأسلوب بلفظ « أما بعد » . أو تفتتح المكاتبة « بحمد الله » وهو أفضل الافتتاحات ولو لم يقع الابتداء به فى صدر الاسلام . ويصح أن نبدأ المكاتبة بلفظ « كتابى اليك » أو يفتتح بلفظ « كتب » . ويصح أن يقع الافتتاح بالدعاء . كما فعل معاوية بن أبى سفيان من أنه بدأ كتابه الى على بن أبى طالب بقوله : أما بعد عافاك الله واياك من السوء . ثم زاد الناس فى الدعاء بعد ذلك . وقد يفتتح الكتاب بالسلام فتقول « سلام عليك . فانى أحمد اليك الله » . وقد يفتتح الكتاب « بتقبيل الأرض » . كما كان من شأن القاضى الفاضل فى مكاتباته . قال المؤلف : ولم أرها فيما قبله » .

وقال المؤلف : لما دخل الأعاجم فى الاسلام وغلبوا على الأقطار استصحبوا ما كان عليه الأمر فى الأمم الخالية وعبروا

عنه بتقبيل الأرض واستمر ذلك تحيـة الملوك الى الآن . فاستعار الكتاب ذلك ونقلوه من الفعل الى اللفظ . وكتقبيل الأرض فى افتتاح الرسائل يجىء تقبيل اليد . ولو أنه ليس بممنوع فى الشريعة . فقد ثبت فى حديث الافك أنه لما أنزل الله تعالى براءة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قال لها أبوها: « قومى الى النبى صلى الله عليه وسلم وقبلى يده » . ولم يكن الصديق رضى الله عنه ليأمرها بما تنتهى الشريعة عنه .

هذا — وقد تفتتح المكاتبة بلفظ « هذه المكاتبـة » أو تفتتح بالأعلام فيقول الكاتب «ليعلم فلان أن الأمر كذا».

وأما مكاتبة بقصد الجواب على أهل الكفر ، فلها حالتان هما أن تفتتح بلفـظ « من فلان الى فلان » . وان تفتتح بالدعاء بطول البقاء .

وقبل الامضاء على المكاتبات جرت العادة أحيانا بذكر كلمة « أخوه » أو « محل ولده » أو « الخادم » أو « الفقير الى الله » أو « الداعى لدولته » أو « المواظب على خدمته بالدعاء » ونحو ذلك . وقد بدأ العمل بهـذه الكلمات أو « الترجمات » منذ العصر الأيوبى .

هكذا تحدث القلقشندى عن كل ما يتصل بالمكاتبات لم يغفل شيئا حتى طريقة طى المكاتبة وطريقة ختمها وتجفيفها بالتراب وحملها وتأديتها وفضها وقراءتها ونحو ذلك .

الفصل الحادي عشر

مصطلحات الكتابة العربية

بدأ القلقشندى بالكتابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انها جرت على نوعين : كتبه الى أهل الاسلام . وكتبه الى أهل الكفر . أما الأولى فجرت على ثلاثة أساليب :

الأول — أن يفتتح الكتاب بلفظ من محمد رسول الله الى فلان . كما فى رسالته الى خالد بن الوليد :

من محمد رسول الله الى خالد بن الوليد :

سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو . أما بعد . فان كتابك جاءنى مع رسولك يخبرنى أن بنى الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا الى ما دعوتهم اليه من الاسلام وشهدوا ألا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . وانه قد هداهم الله بهداه . فبشرهم وأنذرهم . وأقبل وليقبل معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وقد جاء القلقشندى بعد ذلك بنماذج أخرى من كتبه صلى الله عليه وسلم ومنها كتابه الى المنذر بن ساوى ملك

البحرين . وكتابه الى فروة بن عمرو الجذامى ، وكتابه الى طهفة النهدي وقومه . وكتابه الى أكيدر ، وكتابه الى أهل حضرموت الخ .

الثانى — أن يفتتح الكتاب بلفظ « هذا كتاب » ثم يذكر الغرض منه بعد ذلك . وهو قليل الوقوع فى مكاتباته صلى الله عليه وسلم .

الثالث — أن يفتتح بلفظ « سلم أنت » . من ذلك ما كتبه الي المنذر بن ساوى .

« سلم أنت فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو . أما بعد . فان من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحنا ، فذلك المسلم . له ذمة الله وذمة الرسول . فمن أحب ذلك من المجوس فانه آمن . ومن أبى فان عليه الجزية » .

وأما كتبه صلى الله عليه وسلم الى أهل الكفر جرت كذلك على ثلاثة أساليب :

الأول — أن تفتتح بلفظ « من محمد رسول الله الى فلان » . ومن ذلك ما كتبه الى هرقل (أو قيصر ملك الروم) والى كسرى ابرويز ملك الفرس . وما كتبه الى المقوقس صاحب مصر ، والى النجاشى ملك الحبشة والى هوذه بن على (بفتح الهاء) صاحب اليمامة ، وما كتبه الى نصارى نجران ، والى جعفر وعبد انى ملكى عمان .

الثانى — أن يفتتح الكتاب بلفظ « أما بعد » . وهو

أقل وقوعا مما قبله . ومن ذلك ما كتبه الى أهل نجران وهم من النصارى .

الثالث — أن تفتتح بلفظ « هذا كتاب » مثل : « هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد . انى بعثته الى قومه عامة ومن دخل فيهم بدعوهم الى الله والى رسوله . فمن أقبل منهم ففى حزب الله وفى حزب رسوله ، ومن أدبر فله أمان شهرين » .

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح المكاتبات وهكذا كان يصرح فى الغالب باسم المكتوب اليه . وكان يعبر عن نفسه فى كتبه تعبير المفرد المتكلم . وقلما كان يأتى بلفظ الجمع كما فى قوله « جاءنا » و « بلغنا » . وكان يخاطب المكتوب اليه كذلك بلفظ الأفراد . وكان يأتى فى صدر كتبه بالسلام فيقول فى خطاب المسلم « سلام عليك » وفى خطاب الكافر « السلام على من اتبع الهدى » . وكان يأتى فى صدور كتبه بالتحميد بعد السلام . وكان يتخلص من صدر الكتاب الى جسده بلفظ « أما بعد » . وكان يختم الكتاب بالسلام وربما أسقطه فى مرات قليلة .

الكتابة على عهد الخلفاء من الصحابة :

كان أبو بكر رضى الله عنه يفتتح كتبه بلفظ « من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فلان » . ثم يسير على نهج الرسل من البدء بالسلام والإتيان بالتحميد والتخلص (بأما بعد) والاختتام بالسلام مع التحدث عن

نفسه بضمير الأفراد ومخاطبة المكتوب اليه بالكاف وهكذا .

وعلى هذا النحو جرى كتاب أبى بكر رضى الله عنه الى العامة والكافة فى بداية خلافته . وهوكتاب معروف فى التاريخ .

أما عمر رضى الله عنه فكان يكتب « من عمر بن الخطاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فلان » . فلما تلقب بأمير المؤمنين أصبح يكتب « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى فلان » . مثال ذلك :

« من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص : سلام عليك . أما بعد ، فقد بلغنى أنه فشت لك فاشية من خيل وابل وبقر وعبيد . وعهدى بك قبل ذلك ولا مال ملك ، فاكتب الىّ من أين أصل هذا المال. والسلام».

وأتى عثمان بن عفان فكان يكتب على طريقة سلفه . ولكن اكتفى أحيانا فى صدر كتبه بلفظ « أما بعد » . من ذلك ما كتبه الى على بن أبى طالب :

أما بعد . فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين وطمع فىّ كل من كان يضعف عن الذود عن نفسه ، ولم يغلبك مثل مغلّب ، فأقبل الىّ صديقا كنت أو عدوا .

فان كنت مأكولا فكن خير آكل

والا فأدركنى ولما أمزّق

ثم فى خلافة بنى أمية سارت الكتب على هذه الطريقة من التصدير والتعبير . وقد أتى القلقشندى بنماذج من هذه الكتب على عادته .

الكتابة على عهد بنى العباس :

فى عهد بنى العباس كان الخلفاء يفتتحون أكثر كتبهم بلفظ « من فلان الى فلان » ثم يأتون بقولهم « وأما بعد » . الا أنهم زادوا بعد اسم الخليفة لفظ « الامام الفلانى » . فلما صارت الخلافة الى الرشيد زاد بعد التحميد قوله « ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم » .

وقد اختلفوا فى تقديم الاسم والكنية واللقب . والذى أقره (صاحب صناعة الكتاب) تقديم الاسم على الكنية أو تقديم الكنية على اللقب . مثال ذلك : من عبد الله فلان أبى فلان الامام الفلانى أمير المؤمنين . سلام عليك . فان أمير المؤمنين يحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » . ثم يأتى بالمعنى . فاذا فرغ منه وأراد أن يأمر بأمر فصل ببياض يسير ثم كتب : « وقد أمر أمير المؤمنين بكذا » أو « رأى أن يكتب اليك بكذا » .

ولما تغلب بنو بويه على الخلفاء وعلت كلمتهم وتلقبوا (بفلان الدولة) و (فلان الملة) كان يكتب اليهم بذلك فى الكتب .

ثم لما كانت الدولة السلجوقية وأواخر الدولة العباسية ببغداد أكثروا من استخدام الألقاب . وقد أتى القلقشندى

على عادته بنماذج عديدة من مكاتبات أكابر الكتاب على ألسنة الخلفاء من بنى العباس .)

مهما يكن من شيء فان الافتتاح (بأما بعد) على نوعين:

أولهما — أن يأتى بعدها التحميد مطولا أو مختصرا . حسبما تقتضيه الحال .

وثانيهما — ألا يعقبها تحميد ما . مثال ذلك الرسالة التى كتبها أبو اسحق الصابى الى الخليفة الطائع لله وبدأها بقوله : « أما بعد فان أمير المؤمنين الذى حمّله الله من أعباء الإمامة ، وأهله من شرف الخلافة ، واستودعه من الأمانة فى حياطة المسلمين ، والاجتهاد لهم فى مصالح الدنيا والدين يرى كذا وكذا » الخ .

وعلى النحو المتقدم جرت المكاتبات التى كانت تصدر من الخلفاء الفاطميين بمصر مع بعض الفروق البسيطة . ومنها أن تبدأ المكاتبة بقولهم (من عبد الله ووليه) ثم تأتى باللقب ثم بالصفة . ثم بلفظ أمير المؤمنين . ثم لابد من الصلاة على النبى بطريقة أخرى فيقول : « ويسأله أن يصلى على جده محمد نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى الأئمة من عترته » الخ .

وعلى هذا النحو تحدث القلقشندى عن الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين بتونس وشمال افريقية وغيرهم ، وكان يشفع ذلك بالنماذج البليغة والرسائل المشهورة ، ويشرح ما غمض منها أن كان ثم غموض ونحو ذلك .

الكتب الصادرة من الملوك ومن فى معناهم الى الخلفاء :

كان قواد النبى صلى الله عليه وسلم يفتتحون المكاتبة اليه هكذا « لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد ابن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو . أما بعد يارسول الله صلى الله عليك فانك بعثتنى الى بنى الحارث بن كعب وأمرتنى اذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم الى الاسلام فان أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه . وان لم يسلموا قاتلتهم . وانى قدمت اليهم فدعوتهم الى الاسلام ثلاثة أيام كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعثت اليهم كتابا : يا بنى الحارث اسلموا تسلموا . فأسلموا ولم يقاتلوا . وأنا مقيم بين أظهرهم . آمرهم بما أمر الله وأنهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معانى الاسلام وسنة النبى حتى يكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

وكذلك فعل الملوك الذين عرض رسول الله عليهم الاسلام فكتب النجاشى « الى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة » . وكتب المقوقس « لمحمد رسول الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك » .

وفى خلافة بنى أمية بدئت الرسائل بلفظ (الى فلان من فلان) وتصدر بالسلام والتحميد وسؤال الصلاة على النبى

صلى الله عليه وسلم والتخلص بلفظ (أما بعد) . كما بدئت المكاتبة بلفظ « كتابى للخليفة والحال على كذا كذا » وفيها يدعى للخليفة بطـول البقاء فى أثنـاء ذلك . ويعبر الملك المكتوب عنه بلفظ الأفراد مع التصدير بالعبودية ويخاطب الخليفة بأمير المؤمنين ويختم بالدعاء مثل : كتابى — أطال الله بقاء أمير المؤمنين — وعبد أمير المؤمنين يستديم يشكر الله ، الخ . وقد يفتتح الكتاب بالدعاء لغير الديوان بما فيه تعظيم للخليفة . كما كتب القاضى الفاضل على لسان صلاح الدين الأيوبى الى ديوان الخليفة ببغداد .

« أسعد الله عظماء الأمـلاك بالانتساب الى الخـدمة الشريفة النبوية ، وأوزعهم ما أمرهم به من طاعتها ، وخلد ملك الديوان العزيز النبوى ما دامت الأفلاك قائمة والنجوم ناجمة .. المملوك — وان كان قد يسر الله له .. الخ .

وقد تفتتح المكاتبة كذلك بآية من القرآن الكريم . كما كتب القاضى الفاضل على لسان صلاح الدين الأيوبى الى الخليفة المستضىء يبشره بفتح بلاد النوبة .

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبـادىَ الصالحون » . « سلام قولا من رب رحيم » . « فروح وريحان وجنة نعيم » . وصلاة يتبعها تسليم وكأس يمزجها تسنيم . وذكر من الله سبحانه فى الملأ الأعلى ورحمة الله وبركاته على مولانا الامام المستضىء الخ .

وقد تفتتح المكاتبة أيضاً بالصلاة كما كتب القاضى الفاضل :

« صلوات الله التى أعدها لأوليائه وذخرها . وتحياته التى قذف بشهبها شياطين أعدائه ودحرها . وبركاته التى دعا بها كل موحد فأجاب ، وانقشع بها غمام الغم وظلام الظلم فانجاب . وزكاته التى هى للمؤمنين سكن . وسلامة الذى لا يعترى المؤمنين فى ترديده حَصر ولا لَكن على مولانا عاقد ألوية الايمان ، وساحب ذيل الاحسان ، وغالب حزب الشيطان الخ » .

وقد تفتتح المكاتبة بالسلام على طريقة القاضى الفاضل التى ذكرها فى ابتداء المكاتبة بالصلاة . وقد تفتتح كذلك بالتحميد الطويل على النحو الذى تفنن فيه السابقون وهكذا.

وعلى هذا النحو تقريبا كانت الرسائل التى ترد الى الخلفاء الفاطميين بمصر والأمويين بالأندلس مع فروق بسيطة تدعو اليها الحالة . كان يعبر عن الخليفة « بالمقام » أو يعبر عنه « بالحضرة الأمامية » أو يعبر عنه « بالحضرة » فقط وذلك عند الموحدين من الخلفاء فى شمال أفريقية .

المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية :

تتبع القلقشندى هذه المكاتبات ابتداء من الدولة الاخشيدية فالطولونية فدولة الفاطميين فالدولة الأيوبية فدولة المماليك . فأما المكاتبات فى الدولتين الأخشيدية والطولونية فقد كانت رسوم لا تخرج فى مجموعها عما كانت عليه هذه المكاتبات فى الخلافة العباسية . ومعنى ذلك أنها كانت تفتتح بلفظ من فلان الى فلان . كما كتب ابن عبد كان

عن أحمد بن طولون الى ابنه العباس حتى أظهر العصيان :

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين الى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، العادى طوره الجاهل بقدره ... سلام على كل منيب مستجيب ، نائب من قريب الخ » .

وكذلك كتب الاخشيد محمد بن طغج الى ارمانوس ملك الروم :

« محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين الى ارمانوس عظيم الروم ومن يليه . سلام بقدر ما أنتم له مستحقون » . كتب هذا الكتاب عبد الله النجيرمى (نسبة الى نجيرم محلة بالبصرة) وكان عالما بوجوه الكتابة .

وأما ما كان عليه الحال فى الدولة الأيوبية فقد كان الناس لا يكتبون « المجلس » الا للسلطان خاصة . ويكتبون لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم « الحضرة » . ثم أفردوا السلطان « بالمقام » و « المقر » . وصاروا يكتبون «المجلس» لمن دونه . واصطلحوا على الاختصار فى نعوت الملوك المكتوب اليهم والدعاء بخلاف من هو دون السلطان وتحت امرته فانه كلما كثرت النعوت وكثر الدعاء كان أبلغ . واذا كتب السلطان الى من هو دونه عبّر « بالمجلس السامى » ولا يزيد على ذلك . وقد يضاف فى نعت الأمير لفظ « عمدة الملوك والسلاطين عز الاسلام وفارس المسلمين » وما شابه ذلك .

وقد يكتب للأحرار الأعيان « حسام أمير المؤمنين »

و « سيف أمير المؤمنين » و « خاصة أمير المؤمنين » و « ثقة أمير المؤمنين » الخ كما اصطلحوا على أن السلطان لايبتدىء بالدعاء فى كتبه الى أحد الا أن يكون مماثلا له فى الملك . وان السلطان لا يكتب الى أحد ممن فى خدمته « لا زال » أو « لا برح » فى الدعاء . وانما يكتب بذلك الى من ماثله من الملوك . وان الدعاء للملوك يكون مثل « أدام الله أيامه » و « خلد سلطانه » و « ثبت دولته » . وان التحميد فى صدور الكتب لا يكون الا فى الكتب الصادرة عن السلطان. وأن يكتب فى الكتب السلطانية « صدرت » أو «أصدرناها» ولا يقال « كتبت » . وان السلطان يخاطب الخلافة بلفظ « المواقف المقدسة الشريفة » و « العتبات العالية » و « مقر الرحمة » و « محل الشرف » . وان السلطان يخاطب الملوك « بالمقر العالى » و « المقر الأشرف » . ولا يقال « المقام السامى » . وان السلطان يخاطب الوزراء « بالجناب العالى » و « المحل السامى » ومن دون ذلك « المجلس السامى » ومن دونه « مجلس الحضرة » ومن دونه « الحضرة » فقط . وأن الكتب الصادرة عن السلطان تكون طويلة الطرّة ، وتكون بقلم جليل وليس بدقيق ، وأن يوسع فيها بين السطور حتى يكون بين كل سطرين ثلاث أصابع أو أربع ، وانه لا يكثر النقط والشكل فى الكتب الصادرة عن السلطان لا سيما فى الألفاظ الظاهرة ، والا حرج على السلطان بأن يخاطب العلماء والقضاة بأخيه وولده .

ثم ان مكاتبات هؤلاء السلاطين جرت على أربعة أساليب :

أولها — أن تفتتح بالدعاء للمجلس أو الجناب .

ثانيها — أن تفتتح المكاتبة بلفظ الاصدار فيقال « أصدرنا هذه المكاتبة » .

ثالثها — أن تفتتح بلفظ « هذه المكاتبة للمجلس » .

رابعا — أن تفتتح بلفظ « كتابنا » .

وعلى هذه الطريقة عرض القلقشندى للمكاتبات التى تصدر عن ملوك المغرب ، وعن وزراء الخلفاء المنفذين أوامر الخلافة فى بغداد ومصر وبلاد المغرب أيضا .

أما المكاتبات الصادرة عن اتباع الملوك فى الشرق الى هؤلاء الملوك فأولها بلفظ « كتابى » — ثم يدعى للمكتوب اليه ، ويخاطب السلطان فى أثناء الكتابة « بمولانا » أو « مولانا الملك » . ويعبر الكاتب عن نفسه بلفظ الأفراد . ويختم المكاتبة بقوله « فان رأى أن يفعل كذا فعل ان شاء الله تعالى » .

وأما كتب الاتباع فى الديار المصرية فتفتتح بالدعاء بعز الانصار وأدامه السلطان ويخاطب السلطان فى هذه الكتب « بمولانا » . ويعبر الكاتب عن نفسه « بالمملوك » . ولا يخاطب السلطان بلفظ « سيدنا » لأنها لا تقال الا لأكابر العلماء .

وأما المكاتبات الصادرة من أتباع الملوك فى بلاد المغرب

فتبدأ « المقام » أو « الجناب » أو « بالحضرة » أو بلفظ « سيدى » أو « مولاى » .

وأما الأجوبة الصادرة عن ملوك الشرق فتفتتح بلفظ « كتابنا » و « وصل كتابك » .

وعلى نحو ذلك جرت الأجوبة الصادرة عن ملوك المغرب .

المكاتبات المصرية فى الدول التركية :

سبق أن قلنا أن المكاتبات التى ترسل الى خلفاء بنى العباس من سلاطين مصر تفتتح بآية من آيات القرآن الكريم ثم السلام . ومنها ما يفتتح بالسلام . ومنها ما يفتتح بالصلاة على الخليفة . ومنها ما يفتتح بالدعاء لديوان الخلافة . فيقال: أدام الله أيام الديوان العزيز المولوى السيدى الأمامى الفلانى ... الخادم ينتهب ثرى العتبات الشريفة بالتقبيل » الخ .

رتب المكاتبات ورتب أهلها :

الأولى — الدعاء للمقر « أعز الله أنصار المقر الكريم » الخ ..

الثانية — الدعاء للجناب الكريم .

الثالثة — الدعاء للجناب العالى بمضاعفة النعمة .

الرابعة — الدعاء للجناب العالى بدوام النعمة .

الخامسة — الدعاء للمجلس بدوام النعمة .

السادسة — ما بدايته « صدرت هذه المكاتبة للمجلس العالى » الخ ..

السابعة — ما بدايته « صدرت للمجلس السامى » الخ .

الثامنة — ما بدايته « يعلم مجلس الأمير الأجل الكبير » الخ .

أما الأدعية التى تتضمنها الكتب فأنواع كثيرة ومنها أدعية تصلح للنائب الكافل ، وأدعية تصلح لنائب الشام المحروس ، وأدعية تصلح لهذين معا ، وأدعية تصلح لنائب حلب المحروسة وأدعية تصلح لنائب السلطنة بطرابلس . وأدعية تصلح لنائب السلطنة بحماة ، ولنائب صفد ، ولنائب الكرك وهكذا .

وهناك مراتب المكتوب اليهم من أهل المملكة وهم أرباب السيوف (كالنائب الكافل) ، ونائب الاسكندرية والكشاف وولاة الوجهين البحرى والقبلى ومقدمو الألوف وغيرهم . ولكل درجة من هذه الدرجات مصطلحها فى الكتابة اليها والكتابة منها . ومصطلحها كذلك فى الأدعية ونحو ذلك وكذلك الشأن بالقياس الى أرباب الأقلام وقد تقدم القول فى درجاتهم ورتبهم . وقد كان لكل درجة مصطلحها فى البدء ومصطلحها فى الدعاء ومصطلحها فى العرض ونحو ذلك .

تحدث القلقشندى عن كل هذه الرتب ومصطلحها فى كل من مصر والشام وطرابلس وحماة وحلب وصفد وغيرها من النيابات المعروفة اذ ذاك . حتى العربان هنا وهناك كان

للكتابة اليهم مصطلح لابد أن يعرفه كاتب الديوان وقد شرحه القلقشندى كذلك وضرب عليه الأمثلة .

أوراق الجواز وبطائق الحمام فى المكاتبات :

ويعبر عنها فى زمان المؤلف بأوراق الطريق . وورقة الطريق فى ثلاثة أوصال فى قطع العادة . يكتب فى أعلاها سطر واحد صورته هكذا « ورقة طريق على يد فلان بن فلان » . ثم يخلى بيت العلامة تقدير شبر . ويكتب فى بقية الوصل الأول قبل الثانى بأربع أصبع مطبوقة « رسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى أعلاه الله تعالى وشرفه أن يمكن فلان الفلانى » . والمستند فى هذه الطريق هو كاتب السر أو الدوادار أو نائب السلطان .

ولم يكتف القلقشندى بمتابعة هذا النظام فى المكاتبات فى العراق والشام والحجاز ومصر حتى أخذ يشرح هذا النظام نفسه فى ممالك ايران وكرمان وتوران ثم فى اليمن والهند والسند والسودان وبلاد المغرب والأندلس صدورا وورودا ، وابتداء وردودا ، وما كان منها مكتوبا الى أهل الاسلام ، وما كان مكتوبا الى أهل الكفر وهكذا .

ثم عرج المؤلف على الكتب الاخوانية « الديوانية » وذكر كثيرا من مصطلحها وان كان مصطلحها لا يقاس مطلقا بمصطلح الكتب الرسمية . ثم عاد مرة أخرى الى هذه الكتب الرسمية أو الديوانية فاستأنف الحديث عنها على أساس الغرض من هذه المكاتبات وهذا الغرض اما أن يكون انتقال

خلافة الى خليفة واما أن يكون حثا على لزوم الطاعة ، أو دعاء الى الجهاد ، أو دعاء الى التمسك بالدين ، أو تهديدا لمن نكث العهد من المخالفين ، أو توبيخا لمهزوم أو تضييقا على المجرمين ، أو نهيا عن التنازع فى الدين ونحو ذلك .

* * *

وأما الغرض من المكاتبات الاخوانية فهو التهنئة بولاية أو بالعودة من الحج أو القدوم من سفر أو الشفاء من مرض أو بحلول موسم من المواسم أو بالأولاد أو بالزواج والتسرى أو بقرب المزار أو بنزول المنازل الجديدة وبالتعازى فى ابن أو بنت أو أب أو أم أو أخ أو أخت أو زوجة . وقد يكون الغرض من المكاتبة الاخوانية توسطا وشفاعة ، أو تشوقا واستزارة أو استرضاء واستعطافا واعتذارا أو شكرا أو عقابا أو عيادة وسؤالا ، أو فكاهة ومداعبة ، أو أخبارا يسوقها الصديق الى صديقه وهكذا .

* * *

تلك هى المقالة الرابعة من مقالات صبح الأعشى ؟ وتلك أفكارها ومحتوياتها ؟

وستقول ولم طالت فى يد المؤلف حتى بلغت من الصفحات ألفا وثلثمائة وخمسا وستين »

والجواب عن ذلك أن القلقشندى اتبع فى كتابة هذه المقالة الطريقة المصرية التى أشرنا اليها آنفا وهى الطريقة

التى تعتمد على الاكثار من النماذج والأمثلة بدلا من الاكثار من القواعد والأصول على نحو ما يفعل المشارقة .

والحق أن هذه المقالة الرابعة التى فرغنا منها الآن تعتبر معرضا جميلا لأبلغ ما عرفه الأدب العربى من المكاتبات فى شتى العصور وشتى البيئات . ومن أجل هذا نقول — ونحن صادقون فيما نقول — اننا قصرنا فى حق هذه المقالة لأن جمالها فى الحقيقة صادر عن هذه الأمثلة البليغة . وقد ضاق هذا الفصل عن ايراد طائفة منها .

المقالة الخامسة [1]

الفصل الثانى عشر

موضوع هذه المقالة هو بيان الولايات والبيعات والعهود الصادرة عن الخلفاء أو الملوك لامثالهم من الخلفاء أو الملوك لاصحاب المناصب سواء كانوا من أرباب السيف أم القلم(١) .

الولايات

فأما الولايات فهى طبقات : فهناك طبقة الخلافة اما بعهد من الخليفة السابق واما ببيعة أهل العقد والحل فى المملكة . وهناك طبقة السلطنة اما بعهد من الخليفة أو بعهد من السلطان السابق . وفى الديار المصرية خاصة صدرت الولايات والعهود لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وللوظائف الصناعية كالأطباء والجراحين ، ولزعماء أهل الذمة كبطارقة النصارى ورؤساء اليهود . والقاعدة فى كل ذلك أن تصدر الولايات الكبيرة عن السلطان والصغيرة عمن دونه . فمقدم الألف

---

(١) استغرق الكلام فى هذه المقالة الفا وستمائة واثنتين وأربعين صفحة موزعة بين المجلدات التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر .

— مثلا — تكون ولايته عن السلطان بمرسوم من ديوان الانشاء . ومقدم الحلقة ولايته عن نائب السلطان بالمملكة التى هى مضافة اليه . والقضاة الكبار تكون ولايتهم بمرسوم سلطانى . والقضاة الصغار ولايتهم الى قاضى القضاة . وقس على هذا فى وظائف الافتاء والحسبة والتدريس والخطابة بالجوامع . وكذلك الشأن فى الوظائف الديوانية التى سبق شرحها .

ولسنا بحاجة الى أن نعيد القول فيما ينبغى للكاتب مراعاته فى كل ذلك من براعة الاستهلال ومراعاة المناسبة أو مقتضى الحال ، والا يوصف المتولى بما فيه تعريض بمن سبقه فى الولاية . ثم منها ذكر الدعاء المناسب لصاحب الولاية ونحو ذلك .

ثم لا حاجة بنا أيضا الى اعادة القول فى الألقاب الخاصة بذوى الولايات الصادرة عن السلطان . وقد سبق القول أنها بالديار المصرية خمسة ألقاب على الترتيب وهى :

المقر ، والجناب ، والمجلس ، ومجلس الأمير أو مجلس القاضى أو مجلس الشيخ ، ومجلس الصدر . أو الاقتصار على المضاف اليه من كل ذلك وحذف المضاف . فيقال : الأمير ، والقاضى ، والشيخ ، والصدر . وأما أهل الذمة فيخاطبون بالحضرة .

وأما الألفاظ المستخدمة فى اسناد الولاية فهى على

الترتيب: عهد ، وتقليد ، تفويض ، استقرار أو استمرار ، ترتيب ، تقدم .

فيقال : يعهد اليه ، ويقلد كذا ، ويفوض اليـه كذا ، ويستقر أو يستمر فى كذا ، ويرتب فى كذا ، ويقـدم على الطائفة الفلانية وهكذا .

وأما الافتتاحيات فهى على الترتيب الآتى :

افتتاح بلفظ هذه بيعة أو هذا ما عهد . افتتاح بأما بعد حمدا لله . افتتاح بلفظ : رسم بالأمر الشريف . افتتاح بلفظ أما بعد فان كذا .

ومن الأمور التى يجب مراعاتها كذلك فى كتابة العهود أو الولايات طول الكلام أو قصره ، فكلما عظمت الوظيفة وارتفع قـدر صاحبها كان الكلام فيها أطـول والعكس بالعكس — ولندع هذا الى الكلام عن كل من البيعة والعهد والولاية .

البيعـــة

البيعة والمبايعة كالبيع الحقيقى معناها المعاقدة والمعاهدة. وهى نوعان بيعات الخلفاء وبيعات الملوك .

بيعات الخلفاء :

والأصل فيها أنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار الى سعد بن عبادة فى السقيفة فقالوا : منا أمير ومنكم أمير . فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر . ثم تكلم أبو بكر فكان مما قال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء . وهنا قال عمر : نبايعك يا أبا بكر فأنت سيدنا وأحبنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أخذ عمر بيده فبايعه وبايع الناس .

أما ما ينبغى مراعاته فى كتابة البيعة للخليفة الجديد فأمور كثيرة منها حسن الاقتناع والتنبيه على شرف الخلافة وبيان الحاجة الماسة الى وجود امام ، والاشارة الى أن صاحب البيعة قد استوفى شروط الامامة . وانه أفضل من غيره فيها . ثم التنبيه الى أهل الحل والعقد فى المملكة وهم الذين لهم فضل المبايعة ، والتنبيه على سبب خلع الخليفة السابق ان كانت البيعة مترتبة على خلع ثم التنبيه على وجوب طاعة الخليفة الجديد والانقياد له . ولا ينسى الكاتب التعبير

عن معنى التعزية فى الخليفة الميت ومعنى التهنئة للخليفة الجديد المستقر ان كانت البيعة مبنية على موت خليفة .

ولكتابه البيعة ذاتها مذاهب شتى وأساليب عدة منها الأسلوب المبنى على الايمان المغلظة كالحلف بالله وكالطلاق والعتاق والايمان المحرجة يحلف بها على البيعة . واشتهرت بين الفقهاء بايمان البيعة . ولم يعرف هذا الأسلوب الا على يد الحجاج بن يوسف حين كان يأخذ البيعة من أهل العراق للخليفة عبد الملك بن مروان ، ثم جرى الناس بعده هذا المجرى . وفى كتاب صبح الأعشى فى الموضع الذى يتحدث فيه عن البيعة والعهد نماذج كثيرة من شتى العصور . وكلها خليق بأن يرجع اليه القارىء المتخصص [1] . ثم أورد القلقشندى نماذج وافية من كتاب العهد وللقارىء أن يرجع الى الموسوعة متى أراد .

عهود الخلفاء للملوك :

الأصل فى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم فوض أمر اليمن فى حياته الى عمرو بن حزم رضى الله عنه . وقد سبق القول بأن الملك يطلق على الولاية العامة . والسلطنة تطلق على أنواع الولايات حتى ان من الفقهاء ورجال القانون الاسلامى من يعبرون عن القاضى ووالى البلد بالسلطان .

ثم ان تفويض الخليفة الأمور فى الأقاليم الى من يدبرها ويقوم عليها ثلاثة أنواع :

(١) راجع صبح الأعشى: الجزء التاسع من ص ٢٨٠ ـ ٣٣١

الأول — وزارة التفويض . ويلقب الوزير فى هـذه الحالة بلقب ملك . وهو ما كان عليه الأمر فى الديار المصرية.

الثانى — امارة الاستكفاء . ويسمى صاحبها بالأمير الكافى . ويعتبر فى هذه الامامة ما يعتبر فى وزارة التفويض من الشروط .

ثالثها — امارة الاستيلاء — وهى أن يستولى الرجل بالقوة على بلاد — ثم يقلده الخليفة امارتها ويفوض اليه تدبير شؤونها . وقد يحدث العكس فيقلد الخليفة أحـد الأمراء اقليما من الأقاليم فيستولى عليه ويستبد بسياسته . وهذا ما صار اليه الأمر بعد التغلب على الخلفاء .

قال أبو العباس : ومملكة الديار المصرية منـذ الفتح الاسلامى سائرة بين هذه الأنواع الثلاثة :

كانت فى بداية الأمر امارة استكفاء يولى عليها الخليفة فى كل زمن من يقوم عليها . الا ما كان فى أيام بنى طولون من الخروج عن طاعة الخلفاء أحيانا . فلما اسـتولى عليها الفاطميون اتخذوا لأنفسهم فيها « وزراء تفويض » واحتجبوا هم وتركوا لوزرائهم حرية التصرف فى جميع الأمور . وكان أولئك الوزراء يلقبون بألقاب الملوك : كالملك الأفضـل رضوان وزير الحافظ ، والملك الصالح طـلائع بن رزيك وزير الفائز ثم العاضد .

ولما صار الأمر فى مصر الى بنى أيـوب وكانوا يلون

الديار المصرية باسم الخلافة العباسية صارت مصر « امارة استيلاء » لاستيلائهم اذ ذاك عليها بالقوة .

وحين تغلب الملوك بالمشرق على خلفاء بنى العباس وظهروا عليهم صاروا يلقبون بالسلاطين . وشاركهم فى ذلك غيرهم من الملوك فى بلاد أخرى . فتلقب الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى بالسلطان الى جانب لقبه الأول وهو الملك . وأصبح يعرف (بالسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب) .

وفى كتابة الخليفة العهد للملك اما أن يقتصر على ما يلقب به هذا الملك أو يكنى به ثم يضاف الى ذلك لفظ (مولى أمير المؤمنين) ولا يزاد على ذلك . وأما يكتب فيها (السلطان السيد الأجل الملك الفلانى مع بقية ما يناسب من الألقاب المفردة أو المركبة) .

وهناك مذهب عمل به الوزير ضياء الدين بن الأثير وهو أن يأتى بالألقاب المقررة دون المركبة . ويضرب ابن الأثير مثلا على ذلك عهداً تخيل أنه يكتبه لصلاح الدين الأيوبى فقال فيه :

وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الأجل السيد الكبير العالم العادل صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب .

الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب السيوف والأقلام :

والأصل فى هذه الولايات ما كتب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه لأمرائه الذين وجههم لقتال أهل الردة . وعلى طريقته سار الناس بعد ذلك .

« هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه لقتال من رجع عن الاسلام، عهد اليه أن يتقى الله ما استطاع » الخ.

ثم عهد عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى بولاية القضاء فقال : أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة. فأفهم اذا أدلى اليك. وأنفذ اذا تبين لك. فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ... الى آخر هذه الرسالة المشهورة فى التاريخ.

ثم فى عهد بنى أمية سار الكتاب على هذا النهج. حتى جاءت خلافة بنى العباس فأصبحت هذه الولايات أنواعاً ثلاثة :

أولها — ما يكتب لوزراء الخلافة.

ثانيها — ما يكتب لأرباب السيوف فى ديوان الخلافة.

ثالثها — ما يكتب لأرباب الأقلام فى ديوان الخلافة.

وفى أيام الدولة الفاطمية كانت الولايات على نوعين رئيسيين :

أولهما — ما يكتب به عهد الخليفة.

ثانيهما — ما يكتب به عن الوزير.

وكانوا يسمون جميع ما يصدر عن ديوان الانشاء « سجلات ». وربما سموه « عهود ». ثم يرتبون هذا النوع من المكاتبات مراتب :

الأولى — أن يقال بعد التصدير (أما بعد فالحمد لله) ويطول التحميد بعد ذلك.

الثانية — أن يؤتى بعد التصدير بتحميدة واحدة تشتمل على كثير من صفات الله تعالى ثم ينتقل الكاتب منها الى غرض آخر من أغراض الرسالة .

الثالثة — أن يفتتح بالتصدير أيضا ثم يؤتى بلفظ (أما بعد) من غير تحميد . بل يقال (أما بعد فان أولى الناس بكذا) أو (أما بعد فان أحق الناس بكذا) . ثم ينتقل العهد من ذلك الى ذكر الأوصاف الحسنة ثم الوصايا وهكذا .

ومعروف أن الخليفة هو الذى تصدر عنه ولاية الوزير والقاضى ومن فى هذه الدرجة من أرباب السيوف والأقلام .

وهذا كله ما يكتب عن الخليفة . أما ما يكتب عن الوزير فكانت عهوده تفتتح بلفظ (أما بعد فان أولى) أو (أن أحق) أو (أن أجدر) أو (من كان متصفا بكذا كان خليقا بكذا) أو (لما كان فلان) أو (لما كنت) الخ ..

وللوزير الفاطمى أن يكتب باسم الخليفة ، وله أن يكتب باسمه هو مستقلا عنه .

وعلى هذا النحو وصف لنا القلقشندى الطرق المتبعة فى كتابة العهود فى مصطلح كتاب المغرب والأندلس . فقال انهم يسمون العهود باسم « الظهائر » كما كان الفاطميون يسمون هذه العهود باسم « السجلات » . وانهم يفتتحون هذه المكاتبات بلفظ « هذا ظهير » وهى كثيرة منها ما يكتب لأرباب السيوف . ومنها ما يكتب لأرباب الأقلام من أصحاب الوظائف الدينية والوظائف الديوانية .

المقالة السّادسة

الفصل الثالث عشر

فى الوصايا والمسامحات والإطلاقات والتذاكر والتحويلات

فرغ القلقشندى من الحديث عن المكاتبات الرسمية التى تكتب فى الولايات وتعيين الأمراء والحكام ونحو ذلك . وبقى أمام القلقشندي أن يعرض بعد ذلك لضروب أخرى من المكاتبات تلى ذلك فى الأهمية . ومنها الوصايا الدينية والمسامحات والاطلاقات السلطانية والتذاكرات والتحويلات وسنعرف المراد بكل هذه الألفاظ جميعا وذلك بعد أن نعرف المقصود باللفظ الأول منها وهو :

الوصايا الدينية

وقد كان لقدماء الكتاب عناية كبيرة بهذه الوصايا . غير أن ملوك المغرب كانوا أشد عناية بها من ملوك المشرق ، وكانوا يأمرون فتقرأ هذه الوصايا من أعلى المنابر ، ليعرفها الناس كما نعرف نحن مواد الدستور الجديد الذى تأتى به حكومة جديدة . ولا شك ان هـذه طريقة من أنجح طرق الاعلام الى وقتنا هذا .

غير ان هذه العادة الحسنة قل العمل بها فى زمان المؤلف

اكتفاء بالعمل الذى يقوم به « المحتسب » وهو موظف كبير فى الدولة عهد اليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومراقبة الآداب العامة فى الأسواق والأماكن العامة ، كما عهد اليه مراقبة الموازين والمكاييل والأسعار ونحو ذلك .

وكانت الدولة المملوكة لا تظهر الاهتمام بمثل هذه الوصايا الدينية الا فى حالات قليلة يظهر فيها الجمهور بمظهر المستهتر بأمر من أمور الدين أو الخروج على حد من حدوده ، أو الرجوع بالناس الى مذهب الرافضة وهو المذهب الذى كانت عليه الدولة الفاطمية ثم أتت الدولة الأيوبية فعادت بالناس الى مذهب أهل السنة .

ثم أتى القلقشندى بنماذج من هذه الوصايا . ومنها وصية لأحد خلفاء بنى أمية فى الأندلس . كتبها كاتب معروف بأبى زيد الدارارى .

وقد افتتحت الوصية بحمد الله والصلاة على رسوله والدعاء للصحابة والتابعين . ثم اشتملت الوصية على أمور كثيرة منها على سبيل المثال :

أولا — التوصية بتقوى الله والعمل بطاعته . « وقد علم الله اننا لم نتحمل أمانة الاسلام لنستكثر من الدنيا . ولكن لنتعهد الكافة . ورجونا بذلك أن نتخلص من القسم الأول فى قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فأرفق به »

ثانيا — اقامة الصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم « أحب الأعمال الى الله الصلاة فمن حافظ عليها حفظ دينه . ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع » . وأن يأمر كل انسان من صغاره بها لقوله تعالى « وآمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » . وأن يدرس الجمهور كتاب الصلاة ويستكمله وعياً وحفظاً .

ثالثا — الأمر بالجهاد والأخذ بأسبابه الكثيرة ومن أولها تعلم الرماية . قال تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . وقال صلى الله عليه وسلم (القوة الرمي) قالها ثلاثا .

رابعا — تعهد الضعفاء والفقراء بالصدقات وايثار أهل التعفف ممن لا يسألون الناس الحافا . قال صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذى يطوف به على الناس فترده التمرة والتمرتان وانما المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن اليه فيتصدق عليه » .

خامسا — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى وظيفة واجبة على كل مسلم . قال صلى الله عليه وسلم : «انما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه . واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذى نفس محمد بيده لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » الا

وان من أشد المنكرات شرب الخمر بل ان الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها والمحمولة اليه. فمن شربها فليضرب الضرب المبرح ، وليسجن السجن الطويل أو يتوب عنها .

سادسا — النهى عن قراءة كتب الفلسفة « لعن الله واضعها فانهم بنوها على الكفر والتعطيل . واخلوها من البرهان والدليل » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تركت فيكم أمرين لن تقتلوا ما تمسكتم بهما — كتاب الله وسنة نبيه . فيحسب العاقل كتاب الله وسنة رسوله .

سابعا — العناية بأمر الأسواق فليتول ذلك عن المسلمين رجال معروفون بالديانة والأمانة ومن لا يصلح للتجارة فى سوق المسلمين ينزع منها على أسوأ حال . ومن عثر منهم على ربى فى معاملته نال أشد العقاب وأسوأ النكال .

وحول هذه المعانى وأشباهها دارت توصيات الخلفاء التى من هذا النوع وهى أمور تضمنتها كتب الحسبة التى سبق شرحها فيما مضى .

المسامحات

ثم من الموضوعات التى اشتملت عليها المقالة السادسة فيما عدا الوصايا الدينية — كتب المسامحات والاطلاقات السلطانية .

و « المسامحات » جمع مسامحة — وهى ما جرت به عادة الدواوين السلطانية من المقررات واللوازم السلطانية . وقد جرت العادة ان السلطان اذا سمح بترك شىء من ذلك كتب به مرسوم شريف سواء فى ذلك المسامحات العظام ويقال فيها « مرسوم شريف أن يسامح بالجهة الفلانية بأبطال المكوس بها ... أو أن يسامح أهل الجهة الفلانية بكذا وكذا ابتغاء وجه الله تعالى ، ورجاء لنواله الجسيم على ما شرخ فيه » . ثم تأتى بعد ذلك البسملة . ثم تليها الخطبة بالحمد لله الى نهايتها ثم يأتى لفظ (وبعد) . ثم يؤتى بمقدمة المسامحة من شكر النعمة والوفاء بحقها ومقابلتها بالاحسان الى الخلق والأخذ بين الرعية وعمارة البلاد وتوخى مصالح العباد . ثم يقال كذلك « لما كان كذا وكذا اقتضت آراؤنا الشريفة أن يسامح بكذا . ثم تكتب هذه العبارة : فرسم بالأمر الشريف أن يكون الأمر على كذا

وكذا . ثم يؤتى بلفظ : وسبيل كل واقف على هذا المرسوم الشريف العمل بمضمونه أو بمقتضاه . ثم تختم بالدعاء المناسب .

ولقد أتى القلقشندى كعادته بطائفة كبيرة من النماذج لهذه المسامحات [1] .

ومن المسامحات ما يصدر عن نواب السلطان كما صدرت من السلطان نفسه . وغالب مايكون ذلك فى مسامحات التجار فى المقررات التى يبيعونها أو يشترونها ونحو ذلك . وتبدأ المسامحة التى من هذا النوع بلفظ « رُسم بالأمر العالى » .

---

(١) راجع الجزء ١٣ من صبح الأعشى ص ٢٤ ـ ٣٩ .

الإطلاقات

وانتقل القلقشندى من الكلام عن (المسامحات) الى الكلام عن (الاطلاقات) سواء ما يصدر منها عن السلطان وما يصدر عن غيره . ويتبع فى تحريرها ما اتبع فى تحرير المسامحات ذاتها من بسملة وتحميد ومقدمة ودخـول فى الموضوع . وقد أتى المؤلف بأمثلة كثيرة من هذه المكاتبات. ومنها الكتاب الذى تم تحريره فى دولة الناصر محمد بن قلاوون وذلك باستمرار العمل بالاطلاق الذى كان قد أطلقه السلطان صلاح الدين الأيوبى بالديار المصرية للعمريين من نسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه [١] .

* * *

ثم من الأمور التى اشتملت عليها المقالة السادسة حديث المؤلف كذلك عن :

---

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٤١ .

الطرخانيات

والمراد بها أن يصير الشخص مسموحا له بالخدم السلطانية ، يقيم حيث شاء ، ويرتحل متى شاء تارة بمعلوم يتناوله ،وأخرى بغير معلوم يأخذه . ومن ثم وجدنا (الطرخانية) تكتب للأمراء حينا ، وللأجناد حينا آخر . وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية . وجرت العادة أن يسمى ما يكتب فى الطرخانيات مراسيم . والعادة أن يفتتح هذا المرسوم بحمد الله أو يكتفى فيه بلفظ (أما بعد) ثم يقال بعد ذلك « لما كان فلان كذا وكذا رسم بالأمر الشريف أن يستقر طرخانا يتصرف على اختياره ، يسير ويقيم فى أى مكان اختاره من بلاد المملكة . ويتبع فى تحرير هذه المراسيم كثير من الأصول المتبعة فى مراسيم الاطلاقات والمسامحات التى سبقت الاشارة اليها .

وهذا النوع من المراسيم كما يكتب لأرباب السيوف يكتب أيضا لأرباب الأقلام . وكلها قريبة الشبه فى وقتنا

هذا بالاحالة الى المعاش — ولكن بطريقة مهذبة جدا . لأنها تكون بمقتضى كتاب من السلطان أو نائب السـلطان يذكر فيه فضائل المكتوب اليه وسابق بلائه فى خدمة السلطان أو نائبه ، ويدعى له فيها بالخير ، وتلتمس منه البركة ، وتوجه اليه العبارات اللطيفة التى تنم عن العطف والشفقة من جانب والتقدير والاجلال من جانب آخر » .

التحويلات

ثم ان المقالة السادسة اشتملت كذلك على أمر من الأمور الهامة هو ما يكتب في التوفيق بين السنين الشمسية والقمرية — أو بعبارة أخرى — تحويل السنين من هذه الى تلك وبالعكس . وقد ظهرت حاجة كاتب الديوان الى ذلك منذ أدركت الدولة ان الخراج وجبايته منوطان بالزرع . والزرع منوط بالشهر من شهور السنة الشمسية . وجبايه الخراج فى الملة الاسلامية منوط بتاريخ الهجرة النبوية وشهور السنة العربية .

قال المؤلف ومعلوم أن السنة الشمسية ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم تقريبا . والسنة الهجرية ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وسدس يوم تقريبا . فيكون التفاوت بينهما أحد عشر يوما وسدس يوم . وتنتج زيادة السنين الشمسية على السنين القمرية فى كل ثلاث سنوات شهرا واحدا وثلاثة أيام ونصف يوم تقريبا . فاذا تمادى الزمان تفاوت ما بين السنين تفاوتا قبيحا . فيرى السلطان عند ذلك أن تنقل السنة الشمسية الى السنة القمرية بالاسم دون الحقيقة توفيقا بينهما وازالة للشبهة فى أمرهما . وهنا

تسىء الرعية ظنها بالسلطان وتأخذ فى التشنيع عليه . فيأمر السلطان بكتابة مراسيم يوجه فيها السلطان كلامه للناس حتى يفهم منهم الغبى ويبصر الأعمى .

وعلى هذا الأساس فسّر القلقشندى قوله تعالى فى سورة الكهف (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) بقوله : انما خاطب الله عز وجل نبيه بكلام العرب وما تعرفه من الحساب . فمعنى هذه التسع ان الثلثمائة كانت شمسية بحساب العجم الذين لا يعرفون السنة القمرية . وزيادة التسع تصبح بها السنين شمسية .

منذ أدرك خلفاء بنى العباس منذ الخليفة المتوكل هذا الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية اضطر بعضهم الى نقل السنة التى هو فيها الى سنة أخرى . فنقل المعتضد بالله سنة ثمان وسبعين ومائتين الى سنة تسع وسبعين ومائتين . وأمر (المطيع لله) أن تنقل سنة ست وثلثمائة الى سنة سبع وثلثمائة .

اما فى الديار المصرية فقد كان نقل السنين قد أغفل بها حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربعمائة قمرية ، فنقلت سنة تسع وتسعين الخراجية الى سنة احدى وخمسمائة. وما برح الملوك والوزراء يعنون بنقل السنين فى أوقاتها الى اليوم (أى الى زمن المؤلف) . والقاعدة فى ذلك انه اذا مضى ثلاث وثلاثون سنة حولت السنة الثالثة والثلاثون الى السنة

التاليــة لما بعدها أى الى الخامسة والثلاثين وألغيت السنة الرابعة والثلاثين [1] .

هكذا استحدث نوع من المكاتبات فى ديوان الانشاء القصد منه نقل السنين القمرية على نحو ما رأينا . وأصبح لهذا النــوع الأخير من المكاتبات مواصــفات فنيــة أو خصائص كتابية لا بد لكاتب الانشاء من الالمام بها هى الأخرى .

---

(١) صبح الاعشى ـ الجزء الثالث عشر ص ٦٠ .

التذاكر

ثم كان آخر ما عرضت له المقالة السادسة من الأمور التى يحتاج الى معرفتها كاتب ديوان الانشاء موضوع التذاكر .

والتذاكر جمع تذكرة . وقد جرت العادة أن تتضمن التذكرة جميع الأقوال التى يسافر بها الرسول ليعود اليها ان أغفل شيئا منها أو نسيه . أو لتكون حجة له فيما يورده ويصدره .

وعنوان التذكرة يكتب هكذا بعد البسملة : « تذكرة منجحه صدرت على يد فلان عند وصوله الى فلان بن فلان. ثم يقال : قد استخرنا الله عز وجل وندبناك أو وجهناك الى فلان لايصال ما أودعناك وشافهناك به من كذا وكذا . ويقضى جميع الأغراض التى ألقيت اليه مجملة » . ثم يكتب « ان شاء الله تعالى » . ثم يكتب التاريخ . ثم الحمد لله والصلاة على نبيه ثم (حسبنا الله ونعم الوكيل) على نحو ما تقدم فى المكاتبات السابقة كلها .

وقد أتى القلقشندى بنموذج طويل لتذكرة كتبها القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين الأيوبى الى دار

الخلافة ببغداد . وكان الرسول الذى يحمل هذه التذكرة هو الأمير شمس الدين الخطيب :

« تذكرة مباركة ولم تزل الذكرى للمؤمنين نافعة ، ولعوارض الشك دافقة . ضمنت أغراضا يقيدها الكتاب الى أن يطلقها الخطاب . على ان السائر سيار البيان ، والرسول يمضى على رسل التبيان . والله سبحانه يسدده قائلا وفاعلا . ويحفظه بادئا وعائدا ومقيما وراحلا » الخ .

وطبيعى ان تكون هـذه المكاتبات أو التذكرات على أنواع : فمنها ما يصدر عن السلطان : ومنها ما يصدر عن نائب السلطان ، ومنها ما يكتب للولاة . ومنها ما يكتب لنواب القلاع . وهكذا .



المقالة السّابعة

الفصل الرابع عشر

فى الإقطاع والقطائع

الاقطاعات جمع اقطاع والقطيعة الطائفة من أرض الخراج والجمع قطائع . واما أصلها فى الشرع ان تميما الدارى قال « استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضا بالشام قبل أن تفتح فأعطانيها ففتحها عمر بن الخطاب فأتيته فقلت له : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى أرضا من كذا الى كذا . فجعل عمر ثلثها لابن السبيل ، وثلثها لعمارتها وترك ثلثها لنا » .

وقيل ان أبا ثعلبه الحبشى رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم . فقال رسول الله : ألا تسمعون ما يقول ؟ قال الرجل : والذى بعثك بالحق ليفتحن عليك . فكتب النبى له كتابا بذلك .

والمعروف ان أول من وضع (ديوان الجيش) فى الاسلام هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقيل فى سبب ذلك ان أبا هريرة قدم عليه بمال من البحرين فقال له عمر : ما جئت به ؟ قال : خمسمائة ألف درهم . فاستكثره عمر

وقال : أتدرى ما تقـول ؟ قال : نعم — مائة ألف خمس مرات . فقال عمر : أطيـِّب " هو ؟ قال : لا أدرى ؟ فصعد عمر الى المنبر فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أيها الناس — قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وان شئتم عددنا لكم عدا . فقام اليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين رأيت الأعاجم يدونون ديوانا . فدوِّن انت لنا ديوانا .

وقيل فى سبب وضع الديوان أيضا أن عمر بعث بعثـا وعنده « الهرمزان » فقال لعمر : هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال . فان تخلف منهم رجل وأخلّ بمكانه فمن أين يعلم صاحبك به ؟ فاثبت لهم ديوانا . فسأله عن الديوان فشرحه له . وتشاور عمر فى الأمر مع أصحابه فقال خالد بن الوليد : قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا جنودا فاجعل مثلهم . فأخذ بقوله ودعا عقيل بن أبى طالب ومعـه شباب من قريش وقال لهم : اكتبوا النـاس على منازلهم . فبدأوا ببنى هاشم فكتبوهم ، ثم اتبعوهم أبا بكر وقومه ، ثم عمر وقومه ، وكتبوا القبائل ووضعوها — أى رتبوها — على الخلافة . ثم رفعوه الى عمر ، فلما نظر فيه قال : لا — ما وددت انه هكذا ، ولكن ابدأوا بقـرابة رسـول الله صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله ، فشكره العباس على ذلك وقال : وصلتك رحم!

أما المساواة والمفاضلة فى العطاء فقد اختـُلف فيه . فكان

أبو بكر رضى الله عنه يرى التسوية ، وكان عمر يرى التفضيل بالسابقة فى الدين .

جاء مال من البحرين الى أبى بكر رضى الله عنه فساوى فيه بين الناس فغضب الأنصار وقالوا له : فضّلنا على غيرنا. فقال : ان أردتم أن أفضلكم فقد صار مما عملتموه للدنيا . ثم رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا معشر الأنصار لو شئتم أن تقولوا انا آويناكم وشاركناكم أقواتنا ونصرناكم بأنفسنا لقلتم ، وان لكم من الفضل ما لا يُحصى له عدد وان طال الأمد ، فنحن وأنتم كما قال الغَنَوِىّ :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلفت
بنا نعلنا فى الواطئين فزلّتِ
أبوا أن يملونا ولو أن أمّنا
تلاقى الذى لاقوه منا لملّتِ
همو أسكنونا فى ظلال بيوتهم
ظلال بيوت أدفأتْ وأكنتِ

وأما عمر فقد رأى المفاضلة — كما قلنا — وناظر أبا بكر فى ذلك وقال له : أتسوى بين من هاجر الهجرتين وُصلى الى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف ؟ أم تسوى بين من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين من قاتل معه ؟ فلما وضع الديوان فى خلافته جرى على التفضيل بالسابقة فى الاسلام . ففرض لكل رجل شهد بدرا

من المهاجرين خمسة آلاف درهم فى كل سنة ، ولكل من شهد بدرا من الأنصار أربعة آلاف ، ولكل رجل هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف ، ولكل رجل هاجر بعد الفتح ألفين . وفرض لبقية الناس على منازلهم وحفظهم للقرآن وجهادهم بالشام والعراق . وفرض لأهل اليمن وقيس لكل رجل من ألفى درهم الى ألف درهم الى خمسمائة درهم ، الى ثلثمائة فقط . وقال : لئن كثر المال لأفرض لكل رجل أربعة آلاف : ألفا لفرسه ، وألفا لسلاحه ، وألفا لسفره ، وألفا يخلفها فى أهله . وكان لا يفرض للمولود شيئا حتى يُفطَم . الى أن سمع ليلة ان امرأة تُكره طفلها على الفطام وهو يبكى . فسألها عنه . فقالت : ان عمر لا يفرض للمولود حتى يفطم فأنا أكرهه على الفطام حتى يفرض له . فقال : يا ويح عمر ، كم ركب من وزر وهو لا يدرى . ثم أمر مناديا ينادى : الا — لا تعجلوا أولادكم بالفطام . فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام . قال المؤرخون : ثم روعى فى التفضيل بعد انقراض أهل السوابق فى الاسلام التقدم فى الشجاعة والبلاء فى الجهاد .

واما تقدير العطاء فالكفاية فيه مبنية على أسس ثلاثة : أولها — عدد من يعوله من الأولاد والمماليك . والثانى — عدد ما يربط من الخيل والدواب . والثالث — الموقع الذى يحل فيه من حيث الغلاء والرخص بحيث تقدر نفقته وكسوته لعام كامل حسب الأسعار .

انواع الاقطاع وطرق كتابتها :

الاقطاع نوعان : اقطاع تمليك واقطـــاع استغلال . واقطاع التمليك اما أن يكون مواتا (كأرض عاد وثمود في الجاهلية) أو عامرا ثم خرب وأريد عمارته من جديد ولكل حكمه في الفقه الاسلامي .

واما اقطاع الاستغلال فهـو اما اخراج واما عشر . والخراج اما جزية واما أجـرة . وله أحكامه المعروفة في الفقه . واما العشر فلا يجوز اقطاعه .

واما كتابة الاقطاع فالأصل فيها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب على قطعة جلد من أدم كتابا اقطع فيـه الداريين أرضا هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريين اذا أعطاه الله الأرض . وهب لهم بيت عينون وجبرون وبيت ابراهيم بمن فيهم لهم أبدا » .

« شـــهد عبـاس بن عبد المطلب ، وجهم بن قيس ، وشرحبيل بن حسنة وكعب » .

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزله وخرج به مطويا وهو يقول : « ان أولى النــاس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » الآية .

وكانت الاقطـاعات فى الزمن الأول قليلة . انما كانت تجبى الأموال الى بيت المال . ثم ينفق منهـا على الجند .

وربما أقطع الخلفاء القرية ونحوها ، وقرروا على صاحبها شيئا يقوم به لبيت المال فى كل سنة . ويسمون ذلك (المقاطعة) .

وأما طريقة الكتابة فى ذلك فهى أن يكتب : هذا كتاب من فلان — بلقب الخليفة — انك ذكرت من أمر ضيعتك كذا وكذا . وسألت أمير المؤمنين فى كذا وكذا . وقد أجابك أمير المؤمنين الى سؤالك . ثم أتى القلقشندى بالنماذج الكثيرة على مثل هذه المكاتبات [1]

وفى أيام بنى أيوب كان يطلق على المكاتبات الخاصة بالاقطاعات اسم (تواقيع) . وكان التوقيع يبدأ عندهم بالتحميد وبالصلاة على الرسول . ثم يؤتى بلفظ (اما بعد) . ثم يوصف صاحب الاقطاع بما يقتضيه الحال من صفات المدح ويبنى على ذلك استحقاقه للاقطاع . ثم يذكر هذا الاقطاع ويختم التوقيع بتوصية [2] .

وفى زمان المؤلف كانت تسمى كتب الاقطاعات (مناشير). منها ما كتب قبل أن ينقل الاقطاع الى ديوان الانشاء . ومنها ما كتب بعد أن نقل الاقطاع الى هذا الديوان . وقد أتى المؤلف بكثير من النماذج على النوعين معا . ونبهنا على ان المماليك زادوا فى هذه المنشورات شيئا جديدا هو (الطغرى)

---

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٢٥ ـ ١٤٣ .

(٢) صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٤٤ ـ ١٥٢ نجد نماذج من التوقيعات الأيوبية التى تكتب لهذا الغرض .

أو (الطغراء) . وهى أشبه ما تكون (بالبطاقة) التى تشتمل على ألقاب صاحبها فى الوقت الحاضر وموضعها فى المنشور بين الطرة والبسملة .

ويفتتح المنشـــور المملوكى اما بحمـــد الله أو بلفظ (أما بعد) أو بلفظ (خرج الأمر الشريف) [1] مثال ذلك :

« هذه نسخة منشور بقلم المؤلف :

اما بعد حمد الله منوّر الأهلّة فى آفاقها. ومكمل عطاياه باطلاقها ... والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى جمع القلوب بعد افتراقها وشفع فى الخليقة الى خلاّقها ، وعلى آله وصحبه البحور فى اندفاقها ، والبدور فى ائتلاقها ، فان أبناء الأولياء أشبال الأسود ، وعليهم عاطفتنا تجود ، وقد أنشأت نعمنا آباءهم فأصبحوا للدولة أنصارا ، وألحقناهم بهم فى التقديم فأقروا أبصارا . وكان ممن ترعرع ناشئا ، وغدا فرعا زاكيا ، وتدرب على الصهوات يمتطيها ، وتأهل لحلول النعم يرضى مفضيها ، ودلت حركاته على ان الشجاعة سجية طباعة وأنه تروى بلبان الطاعة من وقت رضاعه ، وان أباه أجلّه الله أحسن مرباه ، وهو فلان المنتخب فى الدولة الناضرة المشبه به فى الاضاءة النجوم السافرة .

فلذلك خرج الأمر الشريف ... الخ . » .

---

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٧ ـ ١٩٩ وبها نماذج عدة من المناشير المملوكية الخاصة بالاقطاعات .

المقالة الثامنة

الفصل الخامس عشر

فى الأيمان

تبنى اليمين على الحلف بما يعظمه الحالف . وقد حلف الله تعالى بذاته وصفاته وببعض مخلوقاته ومصنوعاته كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والليل والنهار وكما حلف تعالى بالملائكة الكرام وبعض الحيوان كالخيل . كما أقسم بالدهر فقال : « والعصر ان الانسان لفى خسر »

اما البشر فانهم يحلفون كذلك بالأشياء التى يعظمونها. وقد كانت العرب تدعو على نفسها بالمكروه ان هى حنثت فى اليمين ، وانظر الى قول الأشتر النخعى :

بقيت وفرى وانحرفت عن العلى
ولقيت أضيافى بوجه عبوس

ان لم أشن على ابن حرب غارة
لم تخل يوما من نهاب نفوس

أقسم الشاعر أن يشن شعواء على ابن حرب ، ودعا على نفسه — ان هو لم يبر بهذا القسم — أن يصبح فى قومه رجلا موصوفا بالبخل منحرفا عن طريق المجد مقصرا كل التقصير فى اكرام الضيف .

أما صيغة الحلف فمنها الصريحة ومنها الكناية . فالصريح من الأقسام الشرعية يكون مع الاتيان بلفظ الحلف — كقوله (احلف بالله لافعلنّ كذا) . والكناية تكون بلفظ (لعمرو الله) أو (وايم الله) أو (اشهد الله) . فاذا أتى الرجل بصيغة من هذه الصيغ ونوى اليمين انعقدت .

والحلف فى الاسلام يكون بالله أو بصفة من صفات الله كالرحيم والحليم والكريم والموجود الحى . ومثل : وعظمة الله وجلال الله ونحو ذلك . وقد كان من أكثر حلف النبى صلى الله عليه وسلم بقوله «والذى نفسى بيده — وكان أكثر حلف الصحابة : ورب محمد ورب ابراهيم .

واليمين الشرعية التى يطلب الحكام الى المسلم أن يحلف بها أمامهم هى : احلف بالله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة الذى أنزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم .

واما اليهودى فيحلف أمام الحاكم (بالله الذى أنزل التوراة على موسى ونجاه من الغرق) . وأما النصرانى فيحلف (بالله الذى أنزل الانجيل على عيسى بن مريم) .

اليمين الغموس :

وهى أن يحلف الحالف على أمر ماض انه كان ولم يكن . وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى الاثم .

واما (لغو اليمين) فهو ما وقع من غير قصد ماضيا كان أم مستقبلا . كقوله : (لا والله) . و (بلى والله) . وقيل هو الحلف على الماضى من غير قصد الكذب فى يمينه .

واليمين الغموس من الكبائر . قال تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمــان) . وقال تعالى (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) . وفى الحديث الشريف : من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بهــا مال امرىء مسلم لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان .

تحرير الايمان :

قيل أنه أول من رتب الايمان التى تحلف بها على مبايعة الخليفة هو الحجاج بن يوسف حين أخذ التبعة لعبد الملك ابن مروان على أهل العراق . ثم زيد فيها بعد ذلك وتنقحت فى الخلافة العباسية . وهذه نسخة يمين أوردها أبو الحسين الصابى :

« نبايع عبد الله أمير المؤمنين فلانا بيعة طوع واختيار ، وتبرع وايثار ، واعلان وأسرار ، واظهار واضمار ... وثبات من غير تبديل ، ووفاء من غير تأويل ، واعتراف بما فيها من اجتماع الشمل واتصال الحبل وانتظــام الأمور وصلاح الجمهــور ، وحقن الدماء وسكون الدهمــاء ... على ان عبد الله فلانا أمير المؤمنين عبد الله الذى اصطفاه ، وأمينه الذى ارتضاه ، وخليفته الذى جعــل طاعته جارية بالحق وموجبة على الخلق ... وعلى أنك ولى أوليائه وعدو أعدائه ... بيعــة لا تنقض ولا تنكث ولا تخلف ولا توارى ولا تخادع ... علانيتك مثل نيتك . وقولك مثل طويتك . وعلى

ألا نرجع عن شيء من حقوق هذه البيعة وشرائطها على ممر الأيام وتطاولها ، وتغير الأحوال وتنقلها ، واختلاف الأحوال وتقلبها ، وعلى انك فى كل ذلك من أهل الملة الاسلامية ودعاتها ، وأعوان المملكة العباسية ورعاتها ، لا يتداخل قولك مواربة ولا مداهنة ، ولا تحبس به أمانة ، ولا تقله خيانة حتى تلقى الله تعالى مقيما على أمرك وفيا بعهدك ، والا فكل ما حلله الله لك محرم عليك ، وكل ما تملكه من مال موجود ومدخور ، ومصنوع ومضروب ، وأرض وضيعة ، وعقار وعقدة ، ومملوك ، وأمه صدقة على المساكين محرمة على مر السنين. وكل امرأة لك تملك شعرها وبشرها ، وأخرى تتزوجها من بعدها طالق ثلاثا بتاتا طلاق الحرج والسنة لا رجعة فيها ولا مثنوية ، وعليك الحج الى بيت الله الحرام ثلاثين دفعة حاسرا حافيا وراجلا ماشيا ، نذرا لازما ، ووعدا صادقا لا يبرئك منها الا القضاء لها والوفاء بها ، ولا قبل منك توبة ولا رجعة ، ولا أقال لك عثرة ولا صرعة الخ .

* * *

وهناك الايمان المتعلقة بالملوك والأمراء والايمان الخاصة بكل فرقة من الفرق الدينية المعروفة والايمان المتعلقة بكل فرقة من الفرق كالخوارج والشيعة والامامية والزيدية والاسماعيلية والدروز وغيرهم من الطوائف الدينية فيما خلا أهل السنة . ثم ايمان اليهود والنصارى والفرق الدينية

التى عند هؤلاء وأولئك وايمان المجوس ، وايمان الفلاسفة والحكماء . فذكرها القلقشندى واحدة واحدة ، وضرب عليها الأمثال وأتى لها بالنماذج .

فاما (الخوارج) فأيمانهم ايمان أهل السنة ولكن يزاد فيها « والا أجزت التحكيم وصوبت قول الفريقين فى صفين وأطعت بالرضى منى حكم أهل الجور ، وقلت فى كتاب الله بالتأويل . وادخلت فى القرآن ما ليس منه ، وقلت ان امارة بنى أمية عدل وان قضاءهم حق : وان عمرو بن العاص أصاب ، وان أبا موسى الأشعرى ما أخطأ الخ .

وأما (الشيعة) فالزيدية منهم يحلفون كأهل السنة بزيادة قولهم : والا برئت من معتقد زيد بن على ، ورأيت ان قولى فى الآذان « حى على خير العمل » بدعة ، وخلعت طاعة الامام المعصوم الواجب الطاعة ، وادعيت ان المهدى المنتظر ليس من ولد الحسين بن على ، وقلت بتفضيل الشيخين على أمير المؤمنين على ، وطعنت فى رأى ابنه الحسن لما اقتضته المصلحة » .

* * *

اما الايمان التى يحلف بها (اليهود) فهى : « اننى والله والله والله العظيم القديم الأزلى الفرد الصمد الواحد الأحد المدرك المهلك باعث موسى بالحق وشاد أزره بأخيه هارون . وحق التوراة المكرمة وما فيها وما تضمنته وحق العشر

الكلمات[1] التى أنزلت على موسى فى الصحف وما حوته قبة الزمان[2] والا تعبدت فرعون وهامان ، وبرئت من بنى اسرائيل ودنت بدين النصرانية. وصدقت مريم فى دعواها. وبرأت هدم بيت المقدس وقتل بنى اسرائيل ... وكنت ممن شرب من النهر[3] ومال الى جالوت وفارقت شيعة طالوت الخ.

وواضح من هذه الايمان انها تشتمل على جمل واشارات الى حوادث دينية كبيرة لها أهميتها فى نظر كل دين أو مذهب على حدة . ولها ايحاء قوى فى أذهان هؤلاء وأولئك .

واما (النصارى) فيمينهم : والله والله العظيم وحق المسيح عيسى بن مريم وأمه السيدة مريم وما أعتقده من دين النصرانية والملة المسيحية . والا ابرأ من المعمودية . وأقول ان الماء نجس ، وان القرابين رجس ، وبرئت من مارى حنا المعمدان والأناجيل ، وقلت ان متى كذوب وان مريم المجدلانية باطلة الدعوى فى اخبارها عن السيد اليسوع

---

(١) وهى الوصايا العشر فى الألواح التى نزلت على موسى عليه السلام . وهى تشتمل على بعض أوامر ونواه ومواعظ لقوله تعالى « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء » .

(٢) وهى قبة كان ينزل على موسى فيها الوحى .

(٣) من أعظم الكبائر عندهم الشرب من النهر الذى ابتلى به قوم طالوت ملك بنى اسرائيل والميل الى جالوت ملك الكنعانيين. وهو الذى قتله داود .

المسيح ، وقلت فى السيدة مريم قول اليهود ، ودنت بدينهم فى الجحود ، وأنكرت اتحاد اللاهوت بالناسوت الخ .

واما (المجـوس) فيمينهم : اننى والله الرب العظيم . القديم ، النور ، الأول ، رب الأرباب ، واله الآلهة ، ماحى آية الظلم ، والموجد من العدم ، مقدر الأفلاك ومسيرها ، ومنور الشهب ومصورها ، خالق الشمس والقمر ، ومنبت النجوم والشجر ، والنار والنور والظـل والحرور . وحق (كيومرت)[1] وما أولد من كرائم النســل ، وزرادشت وما جاء به من القول الفصل ... والا أنكرت ان زرادشت لم يأت بالدائرة الصحيحة بغير اله[2] . وان مملكة افريد كانت ضلالة . وأكون قد شاركت (ببورأسب) فيما سفك طعما لحيتيه . وقلت ان (كابيان) لم يسلط عليه [3] . وكذبت

---

(١) كيومرت عند المجوس هو آدم أول الخليقة .

(٢) قالوا ان من معجزات زرادشت انه أتى بدائرة صحيحة بغير آله . وهو ممتنع عند أهل الهندسة . قال زرادشـت بوحدانية الله انه خالق النور والظلمة . وأتى بكتاب اسـمه (الافستا) أمر فيه بالمعروف ونهى عن المنكر . وعمل له شرحا سماه (الزند) .

(٣) المجوس يسخطون على بيوراسب هذا لظلمه وجوره وسفكه الدماء وفرضه الضرائب والمكوس وذلك فضلا عن لهوه ومجونه . وكان على كتفه سلعتان مستورتان تحت ثيابه يزعم أنهما حيتان . ويزعم أن ما يأخذه من الرعية يطعمه لهما ليكف أذاهما عن الناس . وانهما لايشبعان الا بأدمغة بنى آدم . وقيل ان الذى خلص الرعية منه رجل من العوام اسمه كابيان .

مانى وصدقت مزدك واستبحت فضول الفروج والأموال . وقلت بانكار الترتيب فى طبقات العالم وانه لا مرجع فى الأبوة الا الى آدم . وفضلت العرب على العجم ، وجعلت الفرس كسائر الأمم ، وأطفأت النار ، وأنكرت فعل الفلك الدوار ، ومالأت فاعل الليل على فاعل النهار » الخ .

واما (الفلاسفة أو الحكماء) فيقولون فى ايمانهم « إننى والله والله العظيم الذى لا اله الا هو الواحد الأحد الفرد الصمد . الأبدى السرمدى الأزلى . الذى لم يزل علة العلل ، ورب الأرباب ، ومدبر الكل . القديم الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية . المنزه عن أن يكون حادثا أو غرضا للحوادث الحى الذى اتصف بصفات البقاء والمتردى برداء الكبرياء ، مدبر الأفلاك ومسيّر الشهب ، مفيض القوى على الكواكب ، وباث الأرواح فى الصور ، مكون الكائنات ، ومنمى الحيوان والمعدن والنبات .

والا فلا رقيت روحى الى مكانها . ولا اتصلت نفسى بعالمها .

المقالة التاسعة

الفصل السادس عشر

كتب الأمان

الاسلام دين الانسانية ودين القوة . هاتان صفتان لازمتان للاسلام . وتظهر أولاهما من قول الله تعالى فى كتابه العزيز : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » . ومن ثم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤمن أعداءه . ومن ذلك كتبه صلى الله عليه وسلم لرفاعه بن زيد الخزاعى حين قدم عليه فى هدنة الحديدية وأسلم زيد وحسن اسلامه . فبعث به الى قومه بكتاب هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله الى رفاعه بن زيد : انى بعثته الى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم الى الله تعالى والى رسوله . فمن أقبل منهم ففى حزب الله ورسوله . ومن أدبر فله أمان شهرين .

شروط الأمان :

للأمان أركان وشروط وأحكام . فاما أركانه فثلاثة وهى : من صدر عنه العقد ، ومن صدر له العقد ، وصيغة

العقد . واما شروطه فألا يكون على المسلمين ضرر فى المستأمن بأن يكون طليعة أو جاسوسا فانه يقتل ولا يلتفت الى أمانه .

ومدة الأمان لا تزيد عن سنة بخلاف الهدنة فتجوز عند ضعف المسلمين أن تمتد الى عشر سنين . واما حكم الأمان فى الشرع فانه لو قتل مسلم صاحب الأمان وجبت عليه الدية . وذهب الفقهاء الى أن الكافر يجوز له نبذ الأمان . ولكن المسلم لا يجوز له ذلك الا فى حالة واحدة فقط هو أن يتوقع من المستأمن شرا . فاذا توقع منه ذلك جاز له أن يلحق به فى مأمنه .

ثم ان الأمان نفسه نوعان :

أمان عام — وهو الذى يعقد للعدو الذى يصعب حصره كأهل بلد أو أهل ناحية أو اقليم .

وأمان خاص — هو الذى يعقد للواحد أو العدو المحصور .

الأول لا يكتبه الا السلطان أو نائب السلطان .

والثانى يصح لكل مسلم أن يكتبه وان لم تكن له أهلية للقتال باستثناء المجنون والصبى .

تحرير الأمان :

للكتاب فى تحرير الأمان مذهبان : فاما أن يفتتح بلفظ (هذا كتاب أمان) أو (هذا أمان) . واما أن يفتتح بالتحميد ثم يقال : (ولما كان كذا وكذا اقتضى حسن الرأى الشريف كذا وكذا) . ثم يقال (فلذلك رسم بالأمر

الشريف أن يكونوا كذا وكذا على نحو ما يكتب فى الولايات .

وعلى المذهب الأول كتب عمرو بن العاص كتاب الأمان لأهل مصر عند فتحها . وكان مما جاء فيه بعد البسملة :

« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم . لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ، ولا تساكنهم النوبة . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزى بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة . وان نقص نهرهم عن غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة . فله ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين . شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه . وكتب (وردان) وحضر .

ويفرق القلقشندى بين الأمان الذى يكتب لأهل الاسلام والأمان الذى يكتب لأهل الكفر فيقول عن الأول وهو يلزمه بما لا يختاره :

الأمان لأهل الاسلام :

ومعروف أن الأمان ضربان : ضرب يصدر عن الخلفاء ، وضرب يصدر عن الملوك . وكتب الأدب العربى حافلة بأمثلة

لا حصر لها من الضربين معا ، وهى ميـدان فسيح لأقلام البلغاء يتسابقون فيه ويتنافسون فى بلوغ غايته .

ومن طرق الأمان عند العرب طريقة الدفن :

ومعناها دفن ذنوب من يكتب له هذا النوع من الأمان . والأصل فى ذلك ان العرب اذا جنى أحد منهم جناية وأراد المجنى عليه العفو عما وقع من الجانى جمـع لذلك أكابر القبيلة بحضور رجال يثق بهم الجانى . وقام منهم رجل وقال للمجنى عليـه : نريد منك الدفن لفلان — وهو مقر بما أهاجك عليه — ويعدد ذنوبه التى أخذت عليه ولا يبقى منها شيئا . ويقر المجنى عليه بأنه لم يدع من ذنوب الجانى شيئا ثم يحفر بيده حفرة فى الأرض ويقول : قد ألقيت فى هذه الحفيرة ذنوب فلان التى نقمتها عليه . ودفنتهـا له دفنى لهذه الحفيرة . ثم يرد تراب الحفيرة اليها حتى يدفنها بيده .

قالوا : وهو كثير متداول بين العرب ، ولا تطمئن خاطر المذنب منهم الا به ، الا أن العرب لم تجر عادتهم بكتابة ذلك ، بل يكتفى بهذا الفعل بحضور كبار الفريقين . ثم اذا كانت دماء أو قتلى عفيت وعفا بها الثأر والمطالب به .

وفى عهد الاسلام أخذ بهذه الطريقة وأثرت عن الملوك طائفة من كتب الأمان على هذه الصورة ومنها على سبيـل المثال :

« هذا دفن لذنوب فلان ، من الآن لا تذكر ولا يطالب بها ، ولا يؤاخذ بسببها ، اقتضته المراحم الشريفة السلطانية

الملكية الفلانية — ضاعف الله تعالى حسناتها واحسانها .
وهى ما بدر من الذنوب لفلان ومن الجرائم التى ارتكبها
والعظائم التى احتقبها ، وجعل العفو الشريف عن زللها .
وهى كذا (وتذكر) ، دفنا لم نبق معه مؤاخذة بسبب من
الأسباب ، ومات به الحقد وهيل عليه التراب ... تصدق
بها سيدنا ومولانا السلطان الأعظم (ويذكر اسمه ولقبه)
تقبل الله صدقته ... وخلاها نسيا منسيا لا تذكر فى خفارة
ذممه ، وجعله بها مقيما فى أمن الله تعالى . الى أن يبعث الله
تعالى خلقه ، ويتقاضى كما يشاء حقه ... لا يعيش هذا
الدفين ، ولا يوقف له على أثر فى اليوم ولا بعد حين ...
ورسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى
الفلانى . أعلاه الله تعالى وشرفه ، وغفر به لكل مذنب
ما أسلفه » . ثم يختم بقوله :

« وسبيل كل واقف على هذا الكتاب — وهو الحجة
على من وقف عليه أو بلغه خبره أو سمعه أو وضح له أثره
— أن يتناسى هذه الوقائع ويتخذها فيما تضمنته الأرض
من الودائع » .

الفصل السابع عشر

عقود أهل الذمة

أفرد القلقشندى فصلا للعقود التى تكتب لأهل الذمة وقال انها تأتى بعد عقود الأمان من حيث الرتبة . ثم قال : والأصل فيها قوله تعالى :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »

وفى السنة ان النبى صلى الله عليه وسلم حين وجه معاذ ابن جبل الى بلاد اليمن قال له :

« انك سترد على قوم معظمهم أهل كتاب . فاعرض عليهم الاسلام فان امتنعوا فاعرض عليهم الجزية ، وخذ من كل حالم دينارا ، فان امتنعوا فاقتلهم » .

ويحتاج الكاتب فى كتابة هذه العقود الى معرفة أمور منها :

الأول — انه لا يجوز أن تصدر هذه العقود الا من الامام

أو نائبه . لأن ذلك من الأمور الكلية التى تحتاج الى نظر واجتهاد .

الثانى — ويحتاج الى معرفة الشروط التى يجب توفرها شرعا ، وذلك فيمن يكتب له هذا من أهل الذمة . ومن هذه الشروط الذكورة والحرية والأهلية . ويدخل مع أهل الذمة فى ذلك المجوس لقوله صلى الله عليه وسلم « سنوا لهم سنة أهل الكتاب » ، والسامرة اذا وافقت أصولهم أصول اليهود ، والا فلا ، والصائبة اذا وافقت أصولهم أصول النصارى . والا فلا . ولا يعقد هذا العقد لزنديق ولا عابد وثن ولا عابد الملائكة والكواكب .

الثالث — معرفة صيغة العقد والأصول المتبعة فى ذلك .

الرابع — المدة التى يعقد عليها . والمعتبر فيها أن تكون مطلقة ولا تقيد بانتهاء . ولا يجوز اضافة ذلك الى الامام . لأن المقصود من عقدها هو الدوام . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب فى مثل هذه الأحوال : « أقركم ما أقركم الله » — أى على الدوام .

الخامس — معرفة المكان الذى يستقرون فيه باستثناء الحجاز فلا حق لهم فى أن يستقروا فى شىء من

بلاده . لقوله تعالى (فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) .

السادس — معرفة ما يلزم أن يفعله الامام لهم بعد عقد الذمة . اذ ينبغى للامام أن يكتب أسماءهم ودينهم ، ويجعل على كل جمع منهم عريفا لمعرفة من أسلم منهم ، ومن مات ، ومن بلغ من صبيانهم ، ومن قدم عليهم أو سافر منهم ، ويحصرهم لاداء الجزية ، أو يقدمهم للشكوى ممن تعدى عليهم من المسلمين . وهذا العريف هو المسمى فى الديار المصرية فى زمان المؤلف (بالحاشر) .

السابع — معرفة ما يطلب منهم كالجزية ومقدارها فى الشرع ، والضيافة ومعناها ضيافة من يمر بهم من المسلمين علاوة على الجزية . ومنها عدم ركوب الخيل . ولهم أن يركبوا الحمير والبغال وذلك لأن الخيل من أدوات القتال . ومنها أن يتميز أهل الذمة بلباس خاص . فيلبس اليهودى الملابس الصفراء ، والنصرانى الملابس الزرقاء ، والمجوسى الملابس السوداء أو الحمراء . ويشد الرجال منهم الزنانير على أوساطهم . ولهم أن يلبسوا الحرير والعمامة والطيلسان ونحو ذلك.

ثم منها ألا يرتفعوا بمبانيهم على مبانى المسلمين ونحو ذلك .

فاذا خالف الذميون هذه الشروط كان من حق الامام أن يردهم اليها ويأخذهم بها .

نعم — كانت هذه الشروط مما تكتب فى العقود التى تعقد بين المسلمين وأهل الذمة . ولكن من الحق أن يقال انه كان من أئمة المسلمين فى بعض الأحيان أن اشتطوا فى معاملة أهل الذمة ، وتجاوزوا حدود العقل والمنطق فى هذه المعاملة . ومنهم أى من أولئك الأئمة من كانوا فى الوقت نفسه أدنى الى روح الاسلام — وهو دين التسامح والحرية واحترام الحقوق الانسانية والنظر الى الانسان على انه انسان . وهؤلاء الأئمة هم الأكثرون عددا والأقلون ضررا والفاهمون للدين الاسلامى على الوجه الصحيح .

الفصل الثامن عشر

كتب الهدنة

المهادنة فى اللغة المصالحة أو الموادعة أو المسالمة أو المقاضاة أو المواصفة . لأن الكاتب يصف شروط الصلح التى اتفق عليها الطرفان وتقع بين ملكين متساويين أو متفاوتين فى السلطان أو العقيدة أو الرتبة . يقول الفقهاء : والأصل فى مهادنة أهل الكفر قوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » . وربما كان أول كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا النوع هو الكتاب الذى كتبه لسهيل بن عمرو مندوب قريش ورسولها اليه وهو (بالحديبة) بعد أن صدته قريش عن البيت . وفى الكتاب :

« هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو على وضع الحرب عن الناس عشر سنين . وانه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه . ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » وأشهد فى الكتاب على الصلح رجالا كثيرين من المسلمين والمشركين .

أمور تلزم معرفتها فى كتابة الهدنة :

لهذا الفن من المكاتبات شأن كبير فى الدولة . ومن ثم وجب على كاتب الانشاء أن يراعى فى كتابته أمورا منها :

أولا — لا يصح عقد الهدنة بين المسلمين وغيرهم الا بشروط منها أن يصدر العقد عن الامام أو نائبه اذا كان العقد على اقليم من الأقاليم أو كان موضوعه مهادنة ملك من ملوك الكفار (على حد تعبير المؤلف) .

ثانيا — لا يصح عقد الهدنة الا اذا كانت لمصلحة المسلمين حين يكون فى المسلمين شىء من الضعف المؤقت أو تكون بهم حاجة الى المال اللازم للقتال أو حين يبدو من المسلمين انهم يتوقعون اسلام الكافرين بسبب اختلاطهم بهم ونحو ذلك .

ثالثا — ألا يكون فى العقد شرط يأباه الاسلام . كما لو شرط أن يترك بأيديهم مال مسلم ، أو أن يرد أسير مسلم أفلت منهم ونحو ذلك . وقد جرت العادة أن يكتب فى العقد : « على أن من جاءكم من المسلمين رددتموه ، ومن جاءنا مسلما رددناه » فان كان فى المسلمين ضعف وخيف عليهم جاز لهم أن يلتزموا بدفع شىء من المال دفعا للشر .

رابعا — ألا تزيد الهدنة على أربعة أشهر فى حالة قوة المسلمين وأمنهم . ولا يجوز أن تبلغ سنة بحال .

اما اذا كان فى المسلمين ضعف وكان هنـاك خوف فانه يجوز المهادنة الى عشر سنين. ولا تجوز الزيادة على ذلك .

تحرير كتب الهدنة :

وثم أصول تجب مراعاتها كذلك فى تحرير هذه الكتب ومنها :

أولا — براعة الاستهلال بتحسـين الصلح وتعظيم الملكين اللذين تحدث بينهما الهدنة . وذكر السبب الذى أوجب هذه الهدنة . فان كان الصلح بين المسلمين والكافرين احتج الكاتب فى قبول الصلح بآيات من القرآن الكريم أو شىء مما ورد فى السنة . وان كان الصلح بين المسـلمين بعضهم وبعض احتج الكاتب بقوله تعالى (وان طائفتـان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) . أو بالحـديث الشريف « اذا التقى المسلمان بسيفهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول فى النار » .

ثانيا — تبجيل المتهادنين ووصف كل منهما بما يليق به من التعظيم أو التوسط حسبما فى الكتاب نفسه من لين أو شدة .

ثالثا — أن يتجنب الكاتب كل ما من شـأنه التأويل بذكر لفظ مشترك أو معنى ملتبس أو عبارة تفتح الطريق الى التأويل .

رابعا — أن يوضح الكاتب مدة الهدنة فانه ان أهمل فى ذلك فسد عقد المهادنة . وقد جرت العادة أن تحسب بالسنة الشمسية اذا كانت الهدنة بين المسلمين والكفار ، وبالسنة القمرية اذا كانت بين المسلمين بعضهم وبعض ، وعليه أن يوضح فى الكتاب ان الهدنة وقعت بين الملكين أو بين النائبين لهما أو بين ملك ونائب الملك الآخر وهكذا .

خامسا — أن يضمن العقد نوعا من التحليف على الوفاء بالشروط وعدم الاخلال بها أو محاولة التأويل فى شيء منها ، ثم يكتب تاريخ صدور الهدنة بالتاريخ العربى وبتاريخ المملكة التى تقع منها المهادنة . وأن يتضمن الكتاب شهادة الشهود من الطرفين على نحو ما فعل النبى صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبة .

هذا — وللهدنة أو للكتاب الذى يكتب بشأنها (طرة) تبدأ بلفظ (هذا عقد صلح) ، أو (هذا كتاب هدنة) ، أو (هذه موادعة) ، أو (هذه مواصفة) ، ثم تلى ذلك أوصاف لهذه الهدنة بأنها ناجحة ومؤدية الى الخير العام ونحو ذلك .

واما متن الهدنة فيبدأ بلفظ (وهذا ما هادن عليه) أو (هذه هدنة أو موادعة أو مواصفة أو صلح) . وقد يفتتح المتن بلفظ (أما بعد . فهذا كتاب مهادنة) ، أو (مواصفة) .

وهذا كله بين الملك المسلم وأخيه الملك المسلم ، فاذا كانت المكاتبة بين ملك مسلم وآخر غير مسلم ، فان المكاتبة تفتتح بلفظ (هذه هدنة) أو بلفظ (استقرت الهدنة بين فلان وفلان) . وقد تفتتح المهادنة بخطبة تبدأ بحمد الله على ما يكون فى المكاتبات الخاصة بالولايات .

فسخ العقد :

جرت العادة انه اذا كان الفسخ من جانب واحد أن يذكر الكاتب موجب الفسخ أو موجب نقض العهد وأن يقيم الحجة فى ذلك على المفسوخ عليه من كل وجه. وتكون صورته على هذا النحو : تكتب البسملة ثم يكتب :

هذا ما استخار الله تعالى فلان استخارة بَيَّن له فيها غدر الغادر ، وأظهر له بها سر الباطن من حققه الظاهر ، فسخ فيها (فلان) ما كان بينه وبينه من المهادنة التى كان الوقت الفلانى آخر مدتها . وطهّر السيوف الذكور فيها من الدماء الى انقضاء عدتها ، وذلك حين بدا منه من موجبات النقض ، وحلّ المعاقدة التى كان يشد بعضها ببعض (وهى كذا وكذا وتذكر وتعدّ) . ويوجب كل ذلك اخفاء الذمة ونقض العهود المرعية الحرمة ، وهدم قواعد الهدنة . كتب انذارا ، وقدم حذارا ... وكتب هذا الفسخ عن فلان الفلانى ، وقد نبذ اليه عهده وأنجزه وعده ، وأنفذ اليه سهمه ، بعد أن صبر مليا على ممالأته ، وأقام مدة يداوى مرض وفائه ولا ينجح فى مداراته ، ولينصرن الله من

ينصره ، ويحذر من يأمن مكره من يحذره . وأمر فلان بأن يقرأ هذا الكتاب على رءوس الأشهاد لينقل مضمونه الى البلاد ، أنفه من أمر لا ينادى به الاعلان ، وينصب لهذا الغادر لواء — يقال اذا يقال : هذا اللواء لغدرة فلان بن فلان !! »

المقالة العاشرة

الفصل التاسع عشر

كتب غير ديوانية

فرغ المؤلف من فنون المكاتبات الديوانية على كثرتها وتنوعها ثم لم يشأ ان تخلو موسوعته من الاشاره الى الكتب التى تصدر عن كتاب الديوان فى غير الشئون الرسمية البحته فأخذ يخوض بنا فى المقامات ، ورسائل الغزو ، ورسائل الصيد ، ورسائل المفاخرات ، والرسائل التى على شكل أسئلة وأجوبة ، والرسائل التى تصف الأحداث الجارية — وقد أطلق على هذه الأخيره اسما معروفا فى الصحافة فى أيامنا هذه ، وهو اسم « ماجريات » وألم القلقشندى كذلك بالرسائل التى تصدر عن العلماء الفضلاء كاجازات الافتاء والتدريس والرواية . وكالتقريظات التى تكتب للمؤلفات الحديثة . ثم الكتب التى تصدر كذلك عن أكابر القضاة فى التقاليد الحكيمة وفى سجلات العدالة ، وفى الكتب الى النواب ، وفى الكتب التى تكتب بمناسبة الحج . وأخيرا ختم المؤلف كلامه عن فن الترسل بكتب الهزل والتندر والهجاء والسخرية ، ووصف هذه الكتب وتقديم نماذج منها .

أما المقامة :

فاسم فى الأصل للمجلس أو الجماعة وسميت به الأحدوثة التى تكون فى هذا المجلس أو الجماعة . وأول من اشتهر بالمقامة فى الأدب العربى (بديع الزمان الهمذانى). ثم تلاه (الحريرى) وقيل عن هذا الأخير انه لما اشتهر أمره فى الكتابة انتدب لديوان الخلافة ببغداد وكلف بتحرير شىء من رسائله فلم يستطع واعتذر له النقاد عن ذلك بأن فن المقامات شىء وفن الرسائل الديوانية شىء آخر . لا شك أن هذا الحكم صحيح ، وان كان من الناس من يستطيعون أن يجمعوا بين فنين من فنون القول أو أكثر . وقليل ما هم .

وانتهز القلقشندى كعادته فرصة الحديث عن المقامات وقدم للقارىء بعض النماذج من انشائه فى هذا الفن أيضا . ثم اتبع ذلك بنماذج أخرى من المقامات أنشأها كتاب آخرون منهم الخوارزمى .

الرسائل :

يميز القلقشندى بين المكاتبات الديوانية والمكاتبات غير الديوانية من حيث التسمية . فيطلق على الأخيرة اسم (الرسائل) . وقال عن هذه الأخيره (ان المراد بها أمور يرتبها الكاتب عن حكاية حال عدو أو حكاية صيد ، أو مدح، وتقريظ ، أو مفاخرة بين شيئين أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى) .

فرسائل الغزو — وهي أعظمها شأنا وأجلها منزلة — يكتبها الملوك لوزرائهم أو اصدقائهم يصفون فيها بعض المواقع الحربية ، والمواقف البطولية . ويتبارى الكتاب فى تحرير هذه الرسائل كما يتبارون فى الرسائل الديوانية سواء فسواء ، ويحاول كل منهم أن يبلغ فى ميدان البلاغة مبلغا يشق على سواه . ويبنى رسالته على السجع والبديع ويزينها بالأبيات الشعرية الكثيرة كلما أمكن ذلك سواء كانت هذه الابيات من نظم الكاتب أم كانت من نظم غيره .

وقد كان من عادة أهل الأدب أنهم يكتبون الى الأفاضل من العلماء والأدباء يسألونهم فى مسائل — اما على سبيل الاستفهام واما على سبيل الامتحان . وتارة يجاب عن هذه الأسئلة ، وأخرى لا يجاب عنها بحسب ما تقتضيه الحال . كما كان من عاداتهم كذلك أن يتعرضوا لوصف الحوادث الجسام ويكتبوا بهذه الأوصاف الى أصدقائهم وأصفيائهم ويفرغوا فى هذه الرسائل كل ما يملكونه من جهد فنى وعقلى فى وقت معا .

رسائل البندق :

وكانوا يسمون الرسالة الواحدة منها (قدمة) بكسر القاف وسكون الدال . وتصف الرمى بالبندق وتصف كذلك أحوال الرماة واصطلاحاتهم فى ذلك ، وأسماء الطير.

وهكذا يسير الكاتب فى وصف الصيد ووصف حركة الطير ووصف المطاردة التى تكون بين اللاعبين ، ووصف

النجاح الذى يحرزونه من حين الى حين ، ووصف الطيور التى تقع فى شباكهم وهى أنواع شتى ، ووصف الطبيعة التى تحيط بهم فى هذا اليوم ، ووصف اللهو الذى يصاحبهم فى تلك الأوقات السعيدة ، وهكذا مما يطول شرحه ولا يمكن الالمام به .

كتب الصدقات :

الصدقات بضم الدال . وقد جرت العادة انه اذا تزوج السلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر فى دولته أن يكتب له خطبة صداق تطول وتقصر بحسب صاحب العقد . فتكون طويلة للملوك وتقصر لمن دونهم درجة درجة .

تبدأ بحمد الله وتعداد نعمه ، والتغنى بنعمة الزواج خاصة . ثم يستأنف الكاتب رسالته بعد ذلك بكلام مناسب.

تحرير الأجازات :

ومنها الاجازة بالفتيا والاجازة بالتدريس والاجازة بالرواية وهكذا .

وهذه نسخة اجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه — كتبت للقلقشندى حين أجازه الشيخ سراج الدين أبو حفص عمرو المشهور بابن الملقن سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وهو بالاسكندرية ، وعمره يومئذ احدى وعشرون سنة : « الحمد لله الذى رفع للعلم

مقدارا ، وأجرى نعمه على العلماء وأعلى لهم م[illegible]را ...
أحمده حمد من هدى الى الحق فجعله شعارا ، واستضاء
بنور الهدى فلجأ الى مولاه فى حالتى سره وجهره افتقارا .
وأشهد ألا اله الا الله وحده لا شريك له تصديقا واقرارا ،
وان محمدا عبده ورسوله أرسله والأصنام قد عبدت جهارا ،
والكفار قد أعرضوا عن الحق استكبارا . فقام بأمر الله
انتصارا ، وقهر من أعرض عن الله اغترارا الخ .

(اما بعد) فقد وضح لذوى الأبصار والبصائر ،
واتضح عند ذوى الأسرار والسرائر أن منزلة علم الشريعة
عند الله تعالى أعلى المنازل وفضله أفضل المآثر وآثر الفضائل
... فقد أعظم الله تعالى من حفظها من عباده المنة ، اذ جعله
وقاية لهم من مهالك الجهل وجنة . قال تعالى (وقل ربى
زدنى علما) . فنبهه على أن العلم أقوى أسباب العبادة اذ
خصه به وحضه على أن يطلب منه الزيادة ... وقال تعالى
« انما يخشى الله من عباده العلماء » . فأوضح بذلك ان
الأولياء من خلقه العلماء ، اذ وصفهم وخصهم بأنهم
الخائفون منه الأتقياء . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

ولما كان فلان — أدام الله تسديده وتوفيقه ، ويسر الى
الخيرات طريقه — ممن شب وشبا فى طلب العلم والفضيلة ،
وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة ، وصحب السادة
من المشايخ والفقهاء والقادة من الأكابر الفضلاء واشتغل

عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى ، والى نيل السعادة — ان شاء الله تعالى — يفضى . استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا — العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العلامة الحبر الفهامة ، فريد دهره ، ونسيج وحده ، جمال العلماء ، أوحد الفضلاء عمدة الفقهاء والصلحاء سراج الدين، مفتى الاسلام والمسلمين أبو حفص عمر بن سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل الأوحد الكامل القدوة المرحوم نور الدين أبى الحسن على ، بن سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى ... أدام الله تعالى النفع ببركته ، وأشركنا والمسلمين فى صالح أدعيته .

واذن وأجاز لفلان المسمى فيه أدام الله تعالى معاليه أن يدرس مذهب الامام المجتهد المطلق العالم الربانى أبى عبد الله محمد بن ادريس المطلبى الشافعى رضى الله عنه وأرضاه . وجعل الجنة منقلبه ومثواه ، وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه ، وأن يفيد ذلك لطالبيه حيث حل وأقام. كيفما شاء ومتى شاء وأين شاء ، وأن يفتى من قصد استفتاءه خطا ولفظا على مقتضى مذهبه الشريف المشار اليه ، لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته .

فليتق أيده الله تعالى هذه الحلة الشريفة وليترق بفضل الله تعالى ذروة هذه المرتبة المنيفة ، وليعلم قدر ما أنعم الله عليه ، وأسدى من الاحسان الوافر اليه ، وليراقبه مراقبة من يعلم اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ولا

يستنكف أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم . فذلك قول سعد قائله . وقد جاء « جنة العالم لا أدرى . فان أخطأها أصيبت مقاتله » . فالله تعالى يرزقنا واياه التوفيق والتحقيق . ويسلك بنا وبه أقرب طريق ويهدينا الى سواء السبيل . فهو حسبنا ونعم الوكيل » .

ثم كتب له الشيخ تكملة لهذه الاجازة سمح له فيها بأن يروى عنه جميع الكتب التى ألفها ، وأذن له أن يشرحها لطالبيها ويفتح الطريق لجميع الراغبين فيها . ومن هذه الكتب (جامع الجوامع) و (شرح صحيح الامام) و (البدر المنير فى تخريج الأحاديث والآثار الواقعة فى الشرح الكبير) للامام أبى القاسم الرافعى . وأجاز له كذلك رواية الكتب الستة المعروفة فى الحديث وهى : البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

خاتمة صُبح الأعشى

الخاتمة

أراد القلقشندى فى خاتمة الموسوعة أن يذكر أمورا تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة . فتكلم فى هذه الخاتمة عن البريد ومطارات الحمام وأبراجه ومراكب الثلج والمحرقات والمناور .

البريد :

البريد فى اللغة هو المسافة التى تقدر باثنى عشر ميلا . لأن البريد أربعة فراسخ . وكل فرسخ ثلاثة أميال . ومن معانى البريد فى العربية الرسول وأبردته أرسلته . وذهب آخرون الى انه فارسى معرب أخذ من اللفظ الفارسى (بريده دم) ومعناه (المقصوص الذنب) . وذلك أن ملوك الفرس كانوا اذا أقاموا بغلا فى البريد قصوا ذنبه ليكون علامة لكونه من بغال البريد .

وقيل ان أول من وضع البريد فى الاسلام معاوية بن أبى سفيان . وقد أشار عليه بالبريد دهاقين الفرس ووصفوه له . وفى زمن عبد الملك بن مروان أحكم أمر البريد ثم قلت العناية بهذا الأمر منذ قدر لبناء الدولة المروانية أن ينتقض ، ولحبلها أن ينتكث . فانقطع مابين خراسان والعراق

لانصراف النـاس الى الدعوة التى اتنهت بقيـام الدولة العباسية . وبقى الأمر على ذلك حتى أيام الخليفـة هارون الرشيد فأشار عليه وزيره يحيى بن خالد البرمكى بالعودة الى الاهتمام بأمر البريد فان فيه صلاح ملكه . فرتبه يحيى على ما كان أيام بنى أميه . ثم قطـع بنو بويه البريد حين غلبوا على الخلافة ليخفى على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم . ثم جاءت ملوك السلاجقة فلم يكن بينهم الا الرسل على الخيل . فلما جاءت دولة زنكى اهتم بأمر البريد وأقام اذ ذاك ما يسمى (بالنجـابة) . وأعدّ لهـا النجب المنتخبة . واستمر الحـال على ذلك زمان بنى أيوب حتى انقراض دولتهم . وتبعتهم فى ذلك دولة المماليك حتى كان عهد الظاهر بيبرس واجتمع له ملك مصر والشـام وحلب والفرات وأراد ترتيب دولته فى دمشق ، فعيّن لها نائبـا ووزيرا وقاضيا وكاتبا للانشاء . ومثل كاتب الانشـاء بين يديه . وكان الظاهر بيبرس يزمع العودة الى القـاهرة . فأوصاه وصايا كثيرة أهمها وصيته بمواصلة الأخبار وخاصة أخبار الفرنج والتتار . وقال له : ان استطعت الا تبيتنى الا على خبر ولا تصبحنى الا على خبر فافعل . فعرض عليـه كاتب الانشـاء أمر البريد ووصف ما كان من أمره أيام الخلفاء فحسن وقع ذلك فى نفسه وأمر به . ولم يزل البريد مستقرا بالديار المصرية والممالك الشامية الى زمان المؤلف .

غير ان البريد تعرض لكارثة عظمى بسبب تيمور لنك

وتخريبه دمشق سنة أربع وثمنمائة للهجرة . وصار اذا عرض أمر من الأمور السلطانية ركب البريدى على فرس له تسير به الهوينا سير المسافر الى المكان الذى يريده ثم يعود على هذه الصورة التى لا تسعف أحدا ولا تؤدى الى قضـــاء مصلحة .

وقد سبق القول فى بعض الفصول المتقدمة ان صاحب ديوان الانشاء هو المتولى لأمر البريد وتنفيـذ أوامره . وكان للبريد ألواح من فضة موضوعة بديوان الانشاء تحت أمر كاتب السر ومنقوش على أحد وجهى اللوح ما صورته (لا اله الا الله . محمد رسول الله . أرسله بالهـدى ودين الحق ليظهـره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة) . وعلى الوجه الآخر ما صورته : (عز لمولانا السلطان الملك الفلانى فلان الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين — فلان بن مولانا السـلطان الشهيد الملك فلان . خلد الله ملكه) . وفى اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر ذات بندين يعنى شريطين) يجعلها البريدى فى عنقه . فيصير اللوح أمامه وتحت ثيابه . والشرابة خلفه من فوق ثيابه . فاذا خرج بريدى الى جهة من الجهـات أعطى لوحا مـن تلك الألواح . فكل من رأى تلك الشرابة خلف ظهره علم انه بريدى . وبذلك تذعن له أرباب المراكز بتسليم خيل البريد . ولا يزال كذلك حتى يذهب ويعود .

وللبريد أماكن أو مراكز (محطات) لتغيير الخيل ومنها

(مركز قلعة الجبل) بالديار المصرية وهى العاصمة . وتتفرع منها أربع جهات هى : قوص ، وعيذاب ، والاسكندرية، ودمياط . وفى كل جهة من تلك الجهات مراكز أصغر أو مراحل أو (محطات) . وقد أتى القلقشندى بأوصافها وأسمائها وطريقة المسير اليها . ثم انتقل من ذلك الى مراكز البريد فى الشام فذكر منها (غزة) وما يتفرع منها وهى : الكرك ودمشق وصفد . ثم (حلب) وما يتفرع منها وهى : البيرة وبهنسا وقلعة الروم واياس وجعبر .

ثم انتقل من ذلك الى مراحل الحجاز الموصلة الى كل من مكة والمدينة .

واذ قد فرغ من كل ذلك انتقل منه الى موضوع آخر يتصل بالبريد ويهم ديوان الانشاء وهو :

مطارات الحمام الرسائلى :

والحمام الرسائلى هو أغلى أنواع الحمام قيمة وأعلاه قدرا . يتخذه الملوك وسيلة لحمل مكاتباتهم ويعبر عنه (بالهدى) بسكون الدال . وقد سبق للقلقشندى أن عنى بأوصاف هذا الضرب من الحمام عناية تامة ولم يترك فى ذلك شيئا الا شرحه ثم قال : وأول من عنى بهذا الحمام هم خلفاء بنى العباس وتنافس فيه رؤساء الناس فى العراق حتى بلغ ثمن الطائر منها سبعمائة دينار . وقيل ان طائرا منها جاء من القسطنطينية وبيع بألف دينار وكانت للمسلمين فى ذلك الحين دفاتر خاصة بأنساب الحمام كأنساب العرب سواء

بسواء . وتفوق أهل البصرة على غيرهم فى كل ذلك . وكان يرجع اليهم فى مثل ذلك .

واما فى الشام ومصر فان أول من عنى به من الملوك نور الدين زنكى المعروف بالشهيد . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا فى ذلك حتى أفردوا له ديوانا . وعملوا جرائد بانساب الحمام . وصنف فيه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كتابا سماه (تمائم الحمائم) .

حكى ان العزيز بالله الفاطمى ذكر لوزيره يعقوب ابن كلس انه ما رأى (القراصيا البعلبكية) وانه يحب لو رآها . فكتب الوزير لوقته بطاقة يأمر فيها من هم تحت امرته بدمشق أن يجمعوا ما بها من حمام مصر ويعلقوا فى كل طائر حبات من القراصيا ويرسلوها الى مصر ففعلوا ذلك ولم يمض النهار حتى حضرت الحمائم بما علق فيها من القراصيا . فجمعه الوزير يعقوب بن كلس وطلع به الى العزيز فى يومه فأكله . وكان ذلك من أغرب الغرائب عنده !

أبراج الحمام :

المعروف ان مطارات الحمام ربما زادت على مراكز البريد . واما أبراج الحمام فانها تبدأ من قلعة الجبل بالقاهرة . وهناك الأبراج الآخذة من قلعة الجبل الى غزة ، والبروج الآخذة من غزة الى دمشق وبلد الخليل واللد وهكذا . وهناك البروج الآخذة من دمشق الى حلب

وحمص وحماه وهكذا . ثم هناك الأبراج الآخذة من حلب الى البيرة وقلعة المسلمين وبهنسا وهكذا .

مراكب الثلج :

ولما كان الصيف فى مصر حارا والهواء ساخنا وكان الثلج غير موجود بها ، اعتاد ملوكها أن يأتوا بهذا الثلج من بلاد الشام لتبريد الماء فى زمن الحر .

وقيل أن الحجاج بن يوسف الثقفى كان أول من حمل اليه الثلج بالعراق .

ولاعتناء ملوك مصر بالثلج واهتمامهم به قرروا له أبلا تحمله الى البحر وسفنا تحمله فى هذا البحر وتصل به الى دمياط فقلعة الجبل .

وفى أيام الملك الظاهر بيبرس كانت مراكب الثلج لا تزيد على ثلاث . ثم أخذت تزيد شيئا فشيئا الى أن صارت أحد عشر مركبا أو أكثر . والمراكب تأتى دمياط ثم يخرج بالثلج فى النيل الى ساحل بولاق . ثم ينتقل على البغال السلطانية ويحمل الى (الشراب خانة) . وقد جرت العادة أن يصحب المراكب رجال (ثلاجون) لمداراة الثلج حتى يصل الى مكان السلطان .

أما الابل أو (الهجن) بضم الهاء جمع هجين فالمستقر منها فى كل مركز ست على الأقل . خمس منها تحمل الثلج ، وواحدة يركبها الهجان .

المحرقات :

كان من عادة التتار أنهم لا يقومون بعلوفة خيلهم . بل يكلونها الى نبات الأرض التى تنزل فيها . فاذا كانت هذه الأرض مخصبة سلكوها واذا كانت مجدبة تركوها . وكانت جميع الأراضي المؤدية الى الشـــام ومصر بلاد شــديدة الخصوبة . وكانت لذلك تكفى هــذه الخيل اذا قصــد أصحابها بلادنا . فاذا حرقنا زرع هذه البلاد ونبتها ضعف التتار عن قصد بلادنا ، وأمنا على أنفسنا من مباغتة القوم.

واما طريقــة احراقها فانه كان يؤتى لذلك بالثعــالب الوحشية وكلاب الصيد فتكمن فى كهوف الجبــال وبطون الأودية ويرتقب لها يوم تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزعا ، وتعلق النار وتوثق فى أذناب الكلاب والثعالب ، ثم تطلق من مكمنها وقد جوعت لتجد فى العدو أو الجرى ، فتحرق ما مرت به من نبت وزرع . وقد كان ينفق من خزانة دمشق فى سبيل هذا الاحراق جملة كبيرة من المال .

المنــاور :

المناور هى مواضع رفع النار فى الليــل والدخان فى النهار . وتكون تارة على رءوس الجبال ، وتارة تكون فى أبنية عالية ومواضعها معروفة. وهى من أقصى ثغور الاسلام كالبيرة والرحبة الى حضرة السلطان بقلعة الجبل . وفى كل واحد من هذه المناور نظارة لرؤية ما وراءهم أو أمامهم . ولمن يقومون بهذا العمل رواتب معلومة .

قال المؤلف : وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند فان في بلادهم مناور على جبال مرتفعة ترى النار فيها على بعد. وقد ترقى المناور في سرعة وصول الأخبـــار الى الدرجة القصوى . وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره . والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع من البريد . والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام . وناهيك بوصول خبر في الفرات الى مصر في مسافة يوم وليلة على الأكثر !!

عبد اللطيف حمزة

فرغنا من هذا الكتاب فى ليلة التاسع من شهر ابريل سنة ١٩٦١
الموافق ليلة العاشر من شهر شوال سنة ١٣٨٠
فالحمد لله على ما وفق
وله المنة على ما هدى

فهرس الكتاب

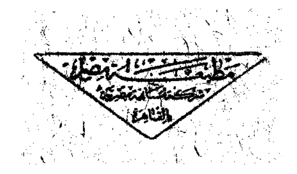
هذه السلسلة • • •

توخت الوزارة فى اصدار هذه السلسلة ما توخته فى اصدار سلاسلها من تحقيق لاشتراكية الثقافة ، وتشجيع كل بيت على تكوين مكتبة له بثمن زهيد .

وهى اذ تفخر بتقديم هذه السلسلة الحافلة ، من عرض لسير هؤلاء الأعلام ، والترجمة لكل علم فى كتاب على حدة ، مع التزام الحيدة والانصاف ، والبعد عن الهوى والتحيز ، تود أن تلفت نظر القراء الى اصدار طبعة ممتازة بعشرة قروش ، ابتداء من العدد العاشر . ا

وقد صدر منها حتى الآن :

- **محمد عبده** : للأستاذ عباس محمود العقاد
- **المعتمد بن عباد** : للأستاذ على أدهم
- **جابر بن حيان** : للدكتور زكى نجيب محمود
- **عبد الرحمن بن خلدون** : للدكتور عبد الواحد وافى
- **ابن تيمية** : للدكتور محمد يوسف موسى
- **معاوية** : للأستاذ ابراهيم الابيارى
- **سيد درويش** : للدكتور محمود احمد الحفنى
- **عبد القاهر الجرجانى** : للدكتور أحمد أحمد بدوى
- **عبد الله النديم** : للدكتور على الحديدى
- **عبد الملك بن مروان** : للدكتور ضياء الدين الريس
- **مالك** : للأستاذ أمين الخولى
- **القلقشندى** : للدكتور عبد اللطيف حمزه


مطبعة الاستقامة
شركة مساهمة مصرية
بالقاهرة